

# الأخلاق والسياسة

محمد مختار الشرقاوي

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ محمد طالع الغنيمي

الإسكندرية

# الأخلاق والسياسة

محمد مختار النوروزي

١٩٩٨

مكتبة الانجلو المصرية  
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة









## محتويات الكتاب \*

### تمهيد واقترب

( ٩ - ١ )

لم تعرف الحياة السياسية الإغريقية سوى ( دولة / المدينة ) — تضاريسها الجبلية فرضت عليها العزلة — الحكام يؤثرون العزلة لصالحهم — الرق دعامة الاقتصاد — المثلثة الاجتماعية الأولى عند المواطن هي العمل السياسي — النعرة القومية الإغريقية — الدين محلي — الفكر الإغريقي يبحث طبيعة الفرد وطبيعة ( المدينة / الدولة ) — الإنسان حيوان سياسى بطبعه .

## الفصل الأول

### الفلاسفة الثلاثة الكبار

( سقراط وأفلاطون و أرسطو )

( ١١ - ٣١ )

١ — عند ( سقراط ) علم النفس نقطة البدء في الأخلاق — السياسة تظهر من تحت عباءة ( سقراط ) — تقييم محاكمته يتم من خلال السياسة والأخلاق معا — ارتباط الأخلاق والسياسة عنده .

٢ — وعند ( أفلاطون ) لا فصل بين الأخلاق والسياسة — السياسة عدالة الدولة والأخلاق عدالة الفرد — ( كتاب الجمهورية ) هو نظرية ( أفلاطون ) في الأخلاق والسياسة — القوانين تجعل الناس أخيارا وحياتهم ممكنة — الأخلاق سيكولوجيا الفرد والسياسة سيكولوجيا الجماعة .

٣ — و ( أرسطو ) لا يفصل بين الأخلاق والسياسة — السعادة عند الفرد و الجماعة — توسيع ( أرسطو ) لتعريف ( السياسة ) ليدخل فيها ( ما هو واقعى ) .

\* يمكن بالقارئ أن يرجع أيضا إلى ( دليل الكتاب )

ب

## الفصل الثاني

### البعث الجديد

( ٣٣ — ٤٢ )

آدم الجديد وطفل البعث الجديد — إمكانيات الإنسان الجديد —  
فلورنسا بعد أثينا صاحبة الفضل على التراث الإنساني — القوضي في إيطاليا  
— السفير الفلورنسي ( ( ماكيافلي ) كاتب رغم أنه .

## الفصل الثالث

### الشیطان وتعاليم الشيطان

( ٤٣ — ٧١ )

ماكيافلي يلتقي مع ( قيصر بورجا ) بطل ( كتاب الأمير ) — الكاتب  
الفلورنسي يفصل في هذا الكتيب بين الأخلاق والسياسة — رجال الكنيسة  
والأخلاقيون يشعلون نيران التشهير بـ ( ماكيافلي ) — العذر لماكيافلي  
في اختيار ( قيصر بورجا ) بطلا لـ ( كتاب الأمير ) في إيطاليا كانت بلا  
سيادة و بلا زعيم .

## الفصل الرابع

### من التشهير إلى التقدير

( ٧٣ — ٩٢ )

إيطاليا تنقل رفات ( ماكيافلي ) إلى ( بانثيون فلورنسا ) تكريماً له —  
فرنسا تنشر ترجمات أعماله كاملة و ( روسو ) يشيد به — ألمانيا ومفكروها  
أمثال ( هيجل ) و ( رانكي ) و ( فيشته ) ... إلى آخره يقدمون تفكيره  
وكتاباتاته ، و ( فردريك ) و ( بسمارك ) يتخذانه شيخاً لهما وأستاذاً .

## الفصل الخامس الأخلاق نفسها بنفسها ( ٩٣ — ١٣٩ )

١ — الأخلاق عند ( عمنائيل كانت ) تقود إلى الدين — الدين عنده أخلاقي ، والإنسان قيمة و غاية ، وسيد نفسه ، والناسق باسم ( القانون الأخلاقي ) .

٢ — أم ( كانت ) خير حرف استقر في قلب طفلها ( كانت ) فاق آلاف الحروف في الكتب — التعليم في بروسيا يقوم به أصحاب الأخلاق المشبوهة غير الصالحين له — بروسيا تنصدي فورا لإصلاح التعليم و حال المعلم أولا وفتح النوافذ للعلم والأبواب لـ ( القراءة للجميع ) لكي تسبق بروسيا الدول الأخرى — التعليم مضغة في جسم الدول إذا صلح صلحت الدولة بأسرها — الإهمال في التعليم أو الخطأ في نظامه يجعل شئون الدولة غسيرة نراثة شأن .

٣ — الصفات غير الإجتماعية في فطرة الإنسان عند ( كانت ) من أجل المنافسة والتحدى والكفاح — الطبيعة تدعو إلى السلام — الخروج من القوضي والخوف من العدوان عن طريق ( القانون ) في شكل ( دستور ) في الداخل والخارج — ( كانت ) لا يستمرى ( الحرب ) أو إقامة ( جيوش دائمة ) مع توجيه تكاليفها إلى تدعيم (التعليم العام ) كخطوة للمتدين والتحضر — الهدنة المسلحة — التوسع الاستعماري — في النظام الجمهوري الفرد مواطن بمعنى الكلمة .

٤ — ( كانت ) يهيم بـ ( القانون الأخلاقي ) ويسخر من ( السياسة ) وهى تدبير ظهرها لـ ( الأخلاق ) — دعامة الأخلاق ( الحرية ) و ( فكرة الحق ) التى يرسمها ( العقل ) — ( الأخلاقى السياسى ) و ( السياسى

- ث -

الأخلاقي ) و ( الأخلاقي الاستبدادي ) — زمرة السياسيين الذين ( يجعلون كل إصلاح أمرا مستحيلا ) .

٥ — الخلاف بين الأخلاق والسياسة يتر من أنانية السياسة — السياسة لا تدع مكانا لـ ( الشرعية ) أو لـ ( الإرادة العامة ) وبعيدا عن ( الإكراه ) — أساليب السياسة المناهية للأخلاق — عجز الناس عن التخلص من ( فكرة الحق ) في مختلف علاقاتهم — السياسة الصحيحة لا تخطو خطوة إلا بعد أداء التحية للأخلاق — ( الأخلاق تقطع في المشكلات التي تستعصي حلها على السياسة ) .

٦ — تحقيق ( السلام الدائم ) مشكلة أخلاقية — الفوضى تدفع المفكرين إلى ( إعادة التنظيم ) — ( كانت وهوبز ) على هذا الدرب — دعائم ( كانت ) لإنهاء ( جميع الحروب ) عن طريق ( حلف الشعوب ) و ليس بـ ( معاهدة سلام ) لإنهاء ( حرب واحدة ) فقط ، أى عن طريق ( الجمهورية العالمية ) و ( تحالف شعوب الأرض ) و ( الفدرالية ) — الفدرالية تحقق ( الحرية ) و ( الإتفاق بين الأخلاق والسياسة ) واستقرار العلاقات الدولية على ( حالة الشريعة ) لا ( حالة الطبيعة ) — عيوب ( الأمم المتحدة ) وهى تمارس مسئوليتها عن ( السلام ) تحتم ضرورة إصلاحها حتى تصدر قراراتها تمثل ( الإرادة الحرة ) لجميع أعضائها ، وذلك لتقدم العلم والهندسة المذهل وظهور الأسلحة الذرية والأسلحة الجرثومية والكيميائية والبيولوجية — هذا التقدم وضع العالم في مفترق طرق رهيب وفرض على السياسة الدولية بفوضاها وعلى الأمم المتحدة أن يعدلا من سلوكهما — الحل في ( الأخلاق الواسعة ) ، و الإيمان ، وقيم عديدة أخرى ، ويحتاج إلى ( بطولة خيالية ) في هذا الشأن ، ليسلم العالم من أسلحة دمار لا صلاح له .

- ج -

## الفصل السادس

### عينات ونماذج

( دزرائيلي و جلادستون وبسمارك )

( ١٤١ - ١٧٣ )

١- مدرسة التاريخ ومدرسة الفلسفة في العمل السياسي - ( بنيامين دزرائيلي ) الساحر في إنجلترا و ( أتوفون بسمارك ) في بروسيا يؤثران ( مدرسة التاريخ ) بينما ( وليم إيوارت جلادستون الكاهن ) في بريطانيا يفضل ( مدرسة الفلسفة ) - ( الضرورات السياسية ) لـ ( دزرائيلي ) و ( الضرورات الأخلاقية ) عند ( جلادستون ) - الصراع الحزبي بين الخصمين لا يمس استقرار إنجلترا بتاتا - الاستقرار ومعناه ولوازمه - مثال لذلك كان توفير ( الملكة اليزابيث ) للاستقرار في إنجلترا ليصبح عهدا فاتحمة ( عصر إنجلترا الحديثة ) ذات الإمبراطورية - ومثال آخر للاستقرار استتفا إنجلترا في إصلاح كافة شئونها ونظام الحكم فيها .

٢ - الاستقرار يسفر عن نفسه تحت أعلام ( السياسة ) و ( حكومة ) قيمته للإنسان كخطوة أولى من أجل الحضارة و التاريخ و ( الخلود الحضري ) وليس ( الخلود المطلق ) الذي يشتهي البشر - ( ملحة جلعاميش ) توضح أن الموت قدر الإنسان ، وأما ( الخلود المطلق ) فهو للآلة فحسب .

٣- ( دزرائيلي ) و ( جلادستون ) يصف كل منهما الآخر بأوصاف غير مستحبة - اختلاف موقفيهما من ثورة بلغاريا - اختلاف علاقة ( الملكة فكتوريا ) بكل منهما - نجاح ( دزرائيلي ) في شراء أسهم ( خديوي مصر ) في شركة قناة السويس عمل سياسي بارع لصالح إنجلترا وبغية احتلال مصر و قناة السويس - ( السويس ) مفتاح الهند وحارسة الإمبراطورية البريطانية - ( ديزي ) حقق طموحاته السياسية في السلطة ، والعيش عيشة ( الأدواق ) في إنجلترا كما انتهى - من أهم آثار رحلته إلى الشرق وثوقه من نفسه و تحقيق طموحاته حتى أصبح ( أخطر رجل في أوروبا ) .



٤ - في تاريخ بروسيا لانجد أبدا سياسيا واحد مثيلا لـ ( أتوفون بسمارك ) - من أقوال الكتاب والمؤرخين الكبار في ( بنسمارك المارد ) - فطرته وسعت الشروط القاسية لرجل الحكم ورجل الدولة - استيعابه لـ ( الثقافة الجرمانية ) بشئى مفاهيمها من ( الجنس الجرمانى ، والهول الألمانى ، والقوة ، و الأنا القومى ، والقومية العدوانية ، والبطولة ) ، وذلك من أجل ( تحقيق القيم العليا ) و ( وحدة الجماعة الحية ) - الجيش يصحح الأخطاء التى اقترفت فى حق بروسيا - قائد ألمانى فى الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ يقرر أن انتصار بروسيا على فرنسا هو نتيجة لانتصار المعلم الألمانى على المعلم الفرنسى - من نتائج إصلاح نظام التعليم فى بروسيا وحال المعلم من جميع الوجوه كان التقدم الألمانى بالفعل فى القرن التاسع عشر - ( بسمارك ) طبق نظرية ( حق الدولة ) من أجل بناء بلده ومصلحة أمتة فكان ( سيد بناء الدول ) .

## الفصل السابع

### الأنبياء غير العزل

( ١٧٥ - ٢٠٤ )

١ - فكر ماكيافللى وفصله بين الأخلاق و السياسة يهيمن على ( جميع التاريخ الأخير ) فى القرون الأربعة الأخيرة بما فيها القرن العشرون - هذا القرن هو قرن العماء القومى وقرن تقدم العلم والهندسة المذهل دون تقدم فى الأخلاق يعادله أو يفوقه - العالم يعيش فى مفترق طرق رهيب بين فنائه بسبب أسلحة الدمار الشامل ( الأسلحة الذرية والجرثومية والكيميائية ... إلى آخره ) أو السلم عن طريق الإتفاق بينما التاريخ فى واقعه لا يزال ينحرف مجراه عن العدالة والأخلاق - البشر محب لـ ( الرياسة ) - ظهور ( الأنبياء غير العزل ) تلاميذ ماكيافللى فى هذا القرن ، أمثال ستالين و أتاتورك ولينين و هتلر وموسولبنى - الحديث عن ( الدوتشى بنيتو موسولبنى ) و ( الفيرر أدولف هتلر ) كمثالين لتلميذين بارين لأستاذهما ( ماكيافللى ) الذى فصل الأخلاق عن السياسة .

- خ -

٢ - الوصل بين ( الدوتشى ) وبين ماكيافللى - انقلاب ١٧ أكتوبر  
١٩٣٣ وانقلابات أخرى فى التاريخ - الطبيعة البشرية والدولة - موسولينى  
والاكليروس والرسالة القومية للدولة - توجيه حياة الأمة إلى حاجاتها  
العسكرية - الواقعية و الرومانية عند ( موسولينى ) و ( ماكيافللى ) - إعدام  
( الدوتشى ) وقد غابت عنه أقوال ( ماكيافللى ) فى ( المطارحات )  
وفى ( كتاب الأمير ) عن الطبيعة البشرية .

٣ - ( الفيرر أدولف هتلر ) وظروف ألمانيا السيئة كانت  
( فرصة ) لظهور ( هتلر ) وحزبه النازى وفاعلية حملاته الخطائية وسيطرته  
على الكتل الشعبية - ( الفيرر ) ينصب نفسه ( مستشارا للرايش الألمانى )  
ثم يستولى على ( رئاسة الجمهورية ) .

٤ - الوصل بين أقوال ( هتلر ) و ( ماكيافللى ) - اعترافه بفضل  
( كتاب الأمير ) عليه وتأكيده الصريح بفائدة هذا الكتاب وضرورته  
فى السياسة - إسرافه فى القوة جعله المنبت الذى لم يقطع أرضا و لم يبق  
ظهرا .

## الفصل الثامن

### ظل رجل الحكم

( ٢٠٥ - ٢١٤ )

( كتاب الأمير ) من أهم عوامل التكوين الروحى لـ ( أدولف هتلر )  
و ( بنيتو موسولينى ) - والد ( موسولينى ) يقرأ هذا الكتاب عليه وعلى اخوته  
مرة ، و ( الدوتشى ) يقرأه مرة أخرى واعية فى سن الأربعين - نبى القومية  
فى شرائعها الرومانية الفاشستية يقف فى طابور طلاب الدراسات العليا  
فى جامعة بولونيا لنيل درجة الدكتوراه برسالة عنوانها ( تعليق عام ١٩٢٤ على  
( كتاب الأمير ) لـ ( ماكيافللى ) - ( موسولينى ) الباحث وصاحب نظام  
سياسى جديد يتساءل فى رسالته عما بقى حيا من ( كتاب الأمير )  
فى القرن العشرين ؟ - الإنسان عنصر جوهري فى السياسة - فكرة

- د -

(موسوليني) عن البشر فيما عدا القليل يزعمون إلى الخمود الإجتماعي وهم في ثورة كامنة ضد الدولة — لا تعريف لـ (الشعب) — الشعب لا يمارس في الواقع (سيادة) في العمل السياسي — (سيادة الشعب) تاج من السورق يتزع عنه عندما توضع المصالح القومية للدولة في الميزان — القوة هي التي تكسبه المرتدين عن الإيمان بالنظم لأن طبيعة البشر متقلبة — (الأنبياء غير العزل) ينتصرون و (الأنبياء العزل) يندحرون .

## التصدير

هذه قراءة في التاريخ ، وهو يحفظ الأحداث في ديوانه الخالد حسب وقوعها ، بأسلوبه القصصى الذى يسيطر عادة على مؤلفاته ، أو بالربط بين الأحداث المبعثرة للوصول إلى فكرة أو أفكار عن الإنسان وما يتصل به ، وهو يدور في فلك حياته وحركته ، وهما رفيقان لا يفترقان . وحين يرغب الإنسان في الحديث عن رفيق منهما يجد نفسه عاجزا عن ذلك ، إلا إذا استعان بالزمان . هذا بينما الإنسان يعيش حياته بين الجوع والشبع . فيبتسم عند الشبع ، و يكتب عند الجوع . ويحس عند ابتسامته في شبعه بأن مرور ساعة من الزمن عليه كأنه مرور لحظة أو أقل ، بيد أنه يحس مع إكتسابه في جوعه بأن مرور هذه المدة نفسها عليه كأنه مرور ساعات ، وأنه قد أصبح عبدا لرغيف الخبز .

ومن الطبيعى أن تثير هذه الظاهرة في الإنسان تساؤلات عن سر اختلاف إحساسه بالزمن أثناء سروره و اكتسابه ، على الرغم من أن الثابت أن الإنسان نفسه هو الحيوان الناطق الذى يخدمه ذكاؤه إلى مالا نهاية ، ويعيش في الزمن نفسه ، والزمن نفسه جزء منه . وهو الذى عرف السرعة وقدرها ، واستطاع أن يسخر رسالة إذاعية لتدور حول العالم من مكان فيه وتعود إلى المكان نفسه في أقل من ٢ : ١٥ من الثانية . وهو الذى انساق عقله ، والعقل منه كان لا يزال في بادئ أمره مجرد تباشر فكر مهزوز ، إلى أن يحاول استكناه ( طبيعة الإنسان ) نفسه ، في غضون استكناهاه ( طبيعة الكون ) . إذ نحن (( لا نستطيع أن نتحدث عن ( الطبيعة ) أبدا دون أن نتحدث عن ( أنفسنا ) في الوقت نفسه )) ، كما يقول أحد علماء الذرة . وهذه هى المحاولة التى سبقت ( سقراط ) وهو يضع أسس ( علم الأخلاق ) وفى غضون ذلك ظهرت ( السياسة ) من تحت عباءة هذا الفيلسوف الكبير ، فاعتبره الغرب الأب الروحى لـ ( السياسة ) . فضلا عن جميع ذلك نقول : ألم يكن هذا العقل نفسه هو الفارس الذى اقتنح مشكلة الموت وبحث فيها لكي يتغلب على الموت ويفوز بـ ( الخلود المطلق ) بينما هذا الخلود هو المستحيل بالنسبة إليه ؟ ولكنه فشل في جميع محاولاته . وعرف في النهاية أن ثمة نوعا آخر من الخلود هو المتلح له والميسر ، وأن الطريق الوحيد إليه هو ( العمل المثقن ) الذى ينسب إليه

في حياته ، ثم يذكر به بعد وفاته ، وذلك في ظل ( استقرار ) تهيه له ( السياسة ) تحت أعلام ( حكومة ) . فيضاف ذكره بـ ( عمله ) هذا بعد موته ، كعمّر ثان له ، وهذا طريق غير طريق الزوجة والولد . ومن شأن هذا الذكر أو هذه الذكرى أن يضيف على الإنسان النوع المتاح له من الخلود ، وهو ( الخلود الحضارى ) الذى يفوز به عن طريق ( العمل المتقن ) فقط . وهكذا عاش الإنسان وتحرك حتى كانت له حضارة وتاريخ ، ووصل إلى حضارتنا الراهنة .

ولا يخفى أن ملامح حضارتنا الراهنة أخذت تتسم بـ ( الآلية ) وسيطرة ( الآلة ) عليها بصورة بارزة فائقة ، منذ نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، رغم معارضة ( الروحانية ) وثورتها ، دون أن تنتصر على ( الآلية ) أو تلحق بها . فأخذت المذاهب الروحية في التخلّف . وإذا بعالمنا اليوم يعاني من انحلال ينبى بما لا تحمد عقباه ، نتيجة لعدم اتزان حياتنا بين (( أشياء لا تعرف الموت ، وأخرى لا تستطيع أن تعيش )) ، أى بين ( الروحانيات ) و ( الماديات ) . إذ ظهر أن ( الآلة ) لا تشير في الإنسان من قوى الخلق والإبداع والروحانية سوى أقل هذه القوى . فاستخدامنا مثلا ( آلة الكمبيوتر ) التى سحرتنا وسحرت أطفالنا ، جعلنا نلمس حقيقة ابتعادها عن التفكير الإبداعى الخلاق ، وعن تحريك ( قدراتنا العقلية ) إلا بقدر صغير . ويبدو أن ذلك هو الذى دفع وزير التعليم في حكومة العمال في إنجلترا ، بعدما أعلن رئيسها ( تونى بلير ) عن إهتمام حكومته البالغ بـ ( التعليم والتعليم والتعليم ) ، باعتباره الوقاية والعلاج معا لصحة الدول والأمم ، وسر الأسرار لتحقيق أى جدوى تنشدها من نظمها . ومن ثم اتجه هذا الوزير إلى أن يحسب حسابه لما قد يؤدى إليه استخدام ( آلة الكمبيوتر ) من تأثير لا يستحسن على ( القدرات العقلية ) للتلاميذ في المراحل الأولى ، وينحو إلى إصلاح ( العملية التعليمية ) بتعويد أبناء بريطانيا في هذه المراحل الأولى على استخدام ( عقولهم ) في ( الحساب والرياضيات ) بدلا من استخدام ( الكمبيوتر ) ، حتى لا تتوقف ( قدراتهم العقلية ) ، عند مجرد الضغط على أزرار ( الكمبيوتر ) .

وإذا كانت ( الآلية ) تفضى إلى السطحية ، فهى تؤدى أيضا إلى إساءة

- ز -

استخدام ما يأتى به العلم والهندسة من جديد مفيد . وتوضح ذلك الحقائق التى أوردناها فى الفصل الخامس \* . فعندما وصل العلم والهندسة إلى ( الإنشطار النووى ) و ( المواد النووية ) و ( خصائص الذرة وتركيبها ) ... إلى آخره ، إذ بالسياسة — وهى أصلا ( مبحث قسوة ) ، وهى السق تدير وتدبر ، وهى صاحبة سلطة تفوق كل سلطة فى أى مجتمع حتى سلطة الخبراء وتجبها — تسرع فى لهفة ، لتوحى للعلم والعلماء ، بل تسخرهم ، لكى يوجهوا بحوثهم الذرية ، من أجل المزيد من الفيوض الدافقة للقوة والسلاح . و إذا بأسلحة الدمار الشامل تظهر وتتطور ، وتضع العالم فى مفترق طرق يثير الدعر ، بين حتمية اتفاق جميع الدول ، أو فناء الجنس البشرى فناء لا صلاح له . و إذا بالسلام العالمى ، وهو مشكلة أخلاقية ، لا يجد له أملا فى أن يتحقق إلا على أرض ( الروحانيات ) ، من إيمان ، وأخلاق ، و مثل ( بضم الميم والثاء ) . وهذا ما أنتهى إليه وأكدّه تأكيدا مبينا فطاحل العلماء ، وكبار الأساطين من المعنيين بالسلام العالمى ، عندما بحثوا عن الحل للمفترق المخيف .

\* \* \*

وإذا كانت هذه القراءة قد جاءت فى ( الأخلاق ) و ( علم الملوك ) أى ( السياسة ) ، فلقد جاءت فى الوقت نفسه فى ( الحق ) و ( القوة ) فى حياة الإنسان ، وهو يبني حضارته ويكتب تاريخه ، تارة بـ ( الحق ) وأخرى بـ ( القوة ) . فـ ( الحق قوة ، لابد من أن يدعم بالقوة ) لكى ينتصر الإنسان بـ ( قوة الحق ) على ما ولد به من طاقات لا تنضب ، من الكذب على نفسه وعلى غيره ، فيرتفع فوق الهوى والأنانية ، والتفاهات والبغائير ، و يدور فى ذات فلكه كالكجوم التى تضئ بنور متالىق موصول دون أن تحرق أو تحترق . فتأكد ( قوة الحق ) عند الإنسان . وتأكد شجاعته . وتأكد ( عدالته ) . ومن ناحية أخرى يجب ألا يغيب عنا أو ننسى أو نتناسى الأهمية

\* ارجع إلى ص ١٣١ من هذا الكتاب

- س -

الكبيرة و الخطيرة اللازمة لصالح حال البشرية عن طريق ( السياسة ) ،  
رغما عن علائقها و مغالطاتها وأساليبها العملية . فهي ضرورة في واقع حياة  
الناس . ويستحيل على الإنسان أن يستغنى عنها . فهي التي فتحت الطريق  
السلطاني للحضارة والتاريخ ليولدا . وهي التي كفلتهما عندما ولدا ، وإبان  
نشأتهما ، وخلال شبوئهما ، أى في مختلف مراحلهما وأطوارهما ، فارتبطا بهما  
ارتباطا لصيقا وثيقا ، وهذا ما سبق أن عرضناه في شئ من التفصيل في هذا  
الكتاب \* .

وبعد :

فلامراء في أن تأتى ( العدالة ) في صلب الإهتمام عند ( الأخلاق )  
( السياسة ) . ولامراء في أن الدولة هي التي جاءت أصلا في المجتمع البشرى  
وقامت فيه من أجل ( تحقيق العدالة ) . ولامراء في أنها هي التي تصبها من  
حكمة حكامها ومشرعيها في قوالب ( القوانين ) ، بعد تجربها من الهوى ،  
ليكون ( القانون ) ويبقى دوما السيد الأوحد والأعلى والأمثل ، للحاكم  
والمحكوم على السواء . لأن الحكم ( بضم الحاء وسكون الكاف ) ينبغي أن  
يكون دائما (( لأصلح القوانين وليس لأصلح الرجال فقط )) . وذلك لكى  
تتحقق ( العدالة ) ، باعتبارها سيدة الفضائل السياسية للدولة ، و أولى حاجاتها  
الأخلاقية . ولامراء في أن العقل هو الذى هدى الإنسان على مر العصور على  
أيدى أرشد المفكرين الحكماء في كل عصر ، كى يسلم ( بفتح السين  
كسر اللام وتشديدها ) الإنسان قياده إلى ( التعاون ) بينه وبين انداده في  
المجتمع ، وبينه وبين ( الدولة ) ، حتى يحقق المجتمع كل التوافق ، وكل المساواة  
، وكل الاعتدال ، وكل المواءمة بين المطالب والمصالح . فـ ( العدالة )  
في جوهرها ( واجب ) في كل من ( الأخلاق ) و ( السياسة ) محتم حتما خالصا .  
نقيا ، و ( قيمة ) واجبة ضرورية لا مفر منها ، و ( غاية ) منشودة دائما أبدا  
طلما الإنسان لا يتوقف عن الغلبة والقهر والظلم وسفك الدماء ،  
و حب المال و التمول ، والمتعة والسلطان . ولذا حين تغيب في حياة الإنسان  
يصبح الإنسان ( الحيوان الأكبر ) و ( أشد الحيوانات توحشا ) لا أفضلها .



- ش -

وعندما تغيب عن دولة تغيب (الحرية) عن أهلها وناسها ، وتنقلب الدولة  
وتصبح بمثابة ( قاطع طريق ) ! ومع ذلك فتحقيق ( العدالة ) أمر لا يدعو إلى  
اليأس والقنوط ، فالطريق إلى ( العدالة ) سيظل مفتوحا أمام الإنسان لتحقيقها  
بـ ( المحاولة والخطأ ) .

\* \* \*

وختاما صلاة وسلاما على ( دعوة إبراهيم ، ونبوءة موسى ، وترويسة  
داوود ، وبشارة عيسى ) ، و ( الصادق الأمين ) الذى أدبه ربه فأحسن  
تأديبه ، وبعثه ، نبيا ورسولا رحمة للعالمين ، ( ليتمم مكارم الأخلاق ) .  
محمد مختار الزقروقى



## الاهداى

أهدى هذا الكتاب إلى زوجتي وهي في ذمة  
الله وقد عرّيت لها وأخذت أعيش عمري  
بعدها سفينه بلا شرع في بحر وحيد مرمية ،  
يزورني فيها طيفها فلا يراه سوى ، ويرث صورتها  
في أذني فلا يسمعه إلا إتي .

والآن وأنا أصوغ هذا الإلهداى ، أهدى  
معانيه تدفق غلى مما أودعت في عندي من  
إيمانها بتقديس الواجب ، لتكون لي ولعيلاني  
السكن والامن ، والراح والروح وإسعاد اليمين .  
وكذا الغذاء واللعب ، وشربة الماء وتشمع  
الهواء . توفرت لنا حياة كريمة ، لم نطأ طي  
فيها راجاً منا لعار ، أو نصم نفساً لنا بجزي ...

محمد مختار الزقزوقي



تمهيد واقتساب



لم تعرف الحياة السياسية الاغريقية شكلا للحكم أعلى من « دولة - المدينة » . وكانت هذه « الدولة » ضيقة الرقعة ، فلم تتجاوز مساحة بعض المدن بضعة أميال مربعة . كما كانت قليلة التعداد ، فلم يبلغ تعداد أثينا ، مثلا ، وكانت من أكبر المدن ، أكثر من ثلث المليون ، وذلك فى أوج عظمتها . فادى ذلك الى أن تصبح العزلة ، فى حد ذاتها ، حاجزا يفصل « الدولة » عما جاورها . وذلك لكثرة الجبال ، ووعورة المسالك ، وصعوبة الطرق والدروب ، مما انعكس على شعور الفرد الاغريقى ، فجعل حبه لوطنه الضيق ، وبلده الصغير ، ومسقط رأسه غير الكبير ، وكذلك داره ومنزله ، حبا مركزا مكثفا . وأصبحت جميع صور الحب هذه عنده أمرا واحدا ، أو يكاد . فادى ذلك الى أن تكون المدن الاغريقية بجماعاتها الخاصة ، منفصلة عن بعضها بعضا ، ومنعزلة .

وساعد على هذه العزلة ، عوامل أخرى . وكان الدين نفسه واحدا منها . فلم يكن هناك دين واحد مشترك بين الاغريق كافة عامة ، يشكل رباطا يوثق العلاقات بين مدن عدة ، تعددت آلهتها . لقد كانت الديانة الاغريقية ديانة « محلية » بالفعل ، « تشخص » مميزات الاقليم المحلية . فاخْتفاء نهر من الأنهار فى بقعة من البقاع ، قد يوحى لهم بنموذج اله يختلف عن نموذج اله آخر فى اقليم مختلف آخر تحيط به الينابيع مثلا . وكان من أثر ذلك ، أن ازداد الشعور بالعزلة عند كل « جماعة » تعيش فى « موضع » معين ، وأن قوى الروح الفردى عند مواطنى المدن الاغريقية ، هذا فضلا عن اختلاف العادات والتقاليد فكل مدينة . وجددير بالذكر ، لم يكن زيوس Zeus وحده كافيا



وقد أصبح رب الأرباب جميعا فى بلاد الاغريق بينما يظل لكل مدينة الهها الراعى أو آلهتها ، أن يقضى على « محلية » الدين الاغريقى ، واختلاف العقيدة . ونتيجة لذلك ، أصبحت عقيدة الاغريق الدينية محلية خاصة ، وغير شاملة عامة .

وأثر ذلك تأثيره فى الحياة السياسية ، وأبرز طابع « العزلة » هذا وأكدده ، بعدما جاء نتيجة للعوامل الجغرافية أولا . ومما يبرز لنا قوة هذا الطابع فى حياة الاغريق ، أننا نجد الاتحادات الاقليمية ، التى قامت نتيجة لاتصال بعض المدن الاغريقية ببعضها ، فى المناطق التى لم تكن فيها حواجز طبيعية محكمة ، أو فى الأقاليم التى لم يكن فيها حواجز قط ، اتحادات ضعيفة هزيلة ، لم تقو على الاتيان على روح العزلة والانفصال بين هذه المدن . وجدير بالذكر ، أن حكومات هذه المدن ، كانت وراء نزعة الانفصال هذه ، ترغب فى عدم القضاء عليها ، بل وكانت تعمل للمحافظة عليها ، أملا منها فى المحافظة على أشكال الحكم التى يتربعون على قممها ، ولذا كانوا يرفضون أى شكل للاتحاد مع المدن المجاورة . ولذلك لم تقم الجامعات السياسية الاغريقية الا متأخرا ، ولم يكن الدافع اليها هو العامل الاقتصادى ، الذى يمكن أن يجمع دويلات أو دولا حول مصلحة مشتركة واحدة .

ولتوضيح ذلك نقول : لقد كان الرق دعامة النظام الاقتصادى الاغريقى العريضة . وكان عدد الرقيق يزيد على عدد الأحرار عندهم . وفى اسبرطة كان عدد غير الأحرار يربو على نصف سكان المدينة . وفى أثينا أكثر المدن ثقافة واستنارة ، كانت نسبة الأحرار الى العبيد نسبة ضئيلة . وكانت نتيجة ذلك ، أن أصبحت قيمة العمل اليدوى ، الذى كان يناط بالأرقاء ، قيمة تافهة . وبالتالي ، احتقر الاغريق التجارة ، والتعامل التجارى . فكان التاجر الأثينى قليل الشأن ، على عكس « السياسى » الذى كانت له المنزلة الاجتماعية الأولى . ومن ثم أصبحت غاية كل مواطن طموح أن يصبح « سياسيا » . وعلى الرغم من أن التعامل التجارى كان وسيلة للاحتكاك والاتصال بين المدن الاغريقية ، مثل أثينا وطيبة ، فإن المصالح التجارية لم تغر المدن الاغريقية بقيام

اتحاد دائم بينها . ولذلك ، لم تكن للحياة الاقتصادية فى المدن الاغريقية نفس تأثيرها فى الدول الحديثة ، من حيث تصبح عوامل للاتحادات السياسية ، أو حتى مثرات للخلافات الدولية .

وفضلا عن ذلك ، فلم يكن هناك وعى قوى ، من شأنه أن يهيب ويخلق تكاملا سياسيا بين هذه المدن ، ويقوى كياناتها السياسية . ولقد شعر الاغريق فى قرارة أنفسهم بأنهم فوق غيرهم من البرابرة ، أى الأجانب عنهم . ولذا لم يجيزوا لمن لم يكن يجرى فى عروقه الدم الهللىنى أن يشترك فى المهرجانات الأولومبية فى سهول أولومبيا . وحتى هذه النعرة الاغريقية نفسها ، والاحساس بسمو الاغريقى على البربرى (الأجنبى) ، لم توحد بين المدن الاغريقية . وقد يكون هذا هو السر فى أن الاغريق فى عصر أفلاطون نفسه ، لم يستمرئوا حيرته فى مذهبه السياسى وهو يقول ذات مرة : « اننى أجزم بأن جميع أفراد الجنس الاغريقى ، تربطهم فيما » بينهم روابط الأخوة والقربة . ولكنهم أغراب وأجانب بالنسبة لعالم « البرابرة » . ويقول مرة أخرى : « ان الفتنة ، التى معناها خيانة » « المواطن لوطنه ، قد يدخل فى معناها هذا النوع من العداء ، الذى » « يوجد أثناء الصراع بين دولتين مستقلتين من ( دول - المدينة ) » .

وموجز القول ، فان العوامل التى قد تتضافر اليوم لتكوين دولة واحدة كانت معدومة فى بلاد الاغريق ، أو كانت موجودة هناك ، ولكنها لم تكن قوية حينذاك ، أو لم يتبينوها البتة . لقد كان الدين ، كما قلنا ، « محليا » غير شامل ، وطوقسه الشعبية غير خلقية . وكانت المصالح الاقتصادية معيبة . وكان الوعى القومى ضعيفا وغير محسوس به . ومع ذلك ، بقى شىء ما . ولم يكن هذا الشىء علاقة الدولة بالدين ، أو علاقة الدولة بالصناعة ، أو علاقة الدولة بغيرها من الدول . انما كان هذا الشىء هو « طبيعة الدولة » نفسها . ومن ثم أصبحت هذه أهم موضوع شغل قرائح قادة الفكر الاغريقى ، وبالتالى اهتموا بالبحث فى الانسان ، لا باعتبار أنه وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، بل على أساس أنه جزء من الجماعة التى ولد بينها ، فالفرد لا يستطيع أن يحس بذاته ، ويشعر بنفسه ، أو يعبر عن وجوده ، الا من خلال ( المدينة ) أى

( الدولة ) ، لأن الانسان « حيوان سياسى بطبعه » . وهذه كانت أول لبنة وضعها الاغريق فى صرح الفكر السياسى .

ولقد أظهر البحث فى طبيعة الانسان والدولة ، على أساس أن الانسان حيوان سياسى ، مشاكل كثيرة . بحث الاغريق فى الفلسفة السياسية ، ولم تكن ثمة بحوث هامة سبقت أبحاثهم ، يستعينون بها فى بحثهم فى السياسة ، وحتى الألفاظ أو المصطلحات السياسية لم تكن قد ظهرت بعد . ولقد تناولوا البحث فى هذا الموضوع بحماس عقلى وقاد ، وبمحاولة علمية واضحة ، وتجلى ذلك فى جميع نظرياتهم . وخلال ذلك أحسوا ولسوا ضرورة مناقشة بعض القوانين العامة الشاملة ، قبل أن يخوضوا فى البحث فى السياسة ، فناقشوا القوانين العامة التى تسيطر على الحياة السياسية ككل ، بالإضافة الى البحث فى الخصائص الأولى للدولة . وبذلك استهلوا بناء السياسة ، ووضعوا قواعده وأساسه . ثم أصبحت أبحاث مفكرهم فى ماهية الدولة ، القبلية الأولى لطلاب العلم السياسى ودارسيه فى جميع أنحاء العالم ، حتى القرن الذى نعيش فيه .

ناقش الاغريق الغرض من الحياة الاجتماعية ، وطبيعة الدولة وسلطتها ، وعلاقة الدولة بالمواطنين ، ووضعوا المصطلحات الخاصة بالأشكال المختلفة للدول . واقترحوا القوانين اللازمة للحياة السياسية ، ومنها « القانون الدورى » لحركة التغيير ، الذى لو أهمل الأخذ به لثار المواطنون على حكومتهم لا محالة . ومثال ذلك ما حدث فى انجلترا بالفعل فى القرن السابع عشر ، وكما حدث فى تاريخ فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وقد كانت الفكرة السائدة وال خاطئة معا ، أن منطق الجماعة والدولة منطق استاتيكي لاديناميكي . بيد أن الثورات التى قامت وغيرت الحكومات ، هى التى وضعت أصابع الجميع على خطأ تلك الفكرة التى كانت سائدة .

ولم يفت الاغريق أن يبحثوا فى القدر الذى به تجدد الحياة فى «دولة» حرية المواطن . وخاضوا فى مشكلة العلاقة بين الدولة والتربية ،

- ٧ -

ومشكلة «الالزام السياسى» . كما درسوا أشكال الدساتير بحثا عما يخلصهم مما عانوه من ويلات عدم الاستقرار . فضلا عن البحث فى الحرية ، والرق ، وأسمى غايات الدولة . وكانوا يؤمنون أشد الايمان ، وهم يبحثون فى هذا وذاك ، بأنه يستحيل على الفرد أن يعبر عن نفسه الا من داخل الدولة ، وهذا يبين مباشرة وبوضوح الأهمية البالغة للحياة السياسية للأفراد . ومن هنا ، ربطوا بين تدبير سلوك الفرد ، وبين تدبير سلوك الدولة . وسماو التدبير الأول « الأخلاق » ، والتدبير الثانى « السياسة » . وكانت ( الدولة ) ، كما فى أيام سقراط وأفلاطون وأرسطو قادة الفكر اليونانى ، هى ( المدينة المكتفية بذاتها ) . أما الحياة السياسية فكانت تتميز بالفتن ، والمؤامرات ، والصراع الحزبى ، ولا تبحث الا عن الانتصار السياسى ، وهو فوق جميع مصالح « الدولة - المدينة » نفسها !

اذن ، لا مناص من أن يحاول قادة الفكر الكبار عندهم ، أن يكشفوا عن القواعد التى تسيطر على حياة الفرد والأفراد ، وتهيمن على حياة ( المدينة - الدولة ) ، ويخلصوا « الغاية السامية » للدولة والجماعة ، من كافة الشوائب ، بالتوفيق بينها وبين المثل العليا ، لتجىء على مستوى هذه « الغاية السامية » لحياة الجماعة والدولة ، وبالتالي لم يكن لهم سوى ألا يفصلوا بين « الأخلاق » و « السياسة » ، ويوفقوا بينهما ما واتاهم التوفيق . ومما كان يدفعهم الى ذلك ، النزعة الهدامة التى اتجهت اليها طائفة من المعلمين كانت تتجول فى بلاد اليونان ، هنا وهناك ، وفى كل مكان ، يدعون الفرد والأفراد ، الى تعاليم من شأنها أن تفضى بالضرورة الى أن يتمرد الفرد على « قوانين » الجماعة ، ألا وهى ( الدولة - المدينة ) حينذاك ، وتقطع الحبل السرى وكل صلة ، تربط « الحيوان السياسى بطبعه » بالجماعة السياسية ككل . فهذه الطائفة أخذت تفرق بكل جرأة وقوة ، بين « الطبيعة » وبين « القانون » تفريقا يؤثر تأثيره الكبير والخطير معا ، بصورة غير بناءة وغير مفيدة ، بالنسبة للفرد الصالح ، أو الدولة الصالحة ، أو هما معا .

ولم تكن هذه الطائفة المتجولة سوى « السوفسطائيين » . وهنا نشير إشارة تتفق مع منهج البحث من ناحية ، ومن أجل بعض التفصيل الذى أومأنا اليه من ناحية أخرى ، ونذكر من كبار هذه الطائفة كاليكس ، وبولس ، وترازيماخوس - وهم يتجولون فى أنحاء بلاد اليونان بين الشباب ، ويعلمونهم أن « القوانين » من صنع « الضعفاء » ، وضعها « الضعفاء » لكى يتخلصوا بها من « الأقوياء » ، فيجردوا الأقوياء من سلاح قوتهم . هذا ، وكانوا يعلمونهم أن الفرد الذى يبلغ من القوة درجة يستطيع بها أن يشق عصا الطاعة على القانون ، ودون أن يجر على نفسه العقاب ، له هذا الحق فى هذا العصيان . وبناء على ذلك ، فالدولة من صنع الضعفاء ، وهى شر ، أما « الطبيعة » فهى خير . ولذا فالسير بمقتضى الطبيعة يجب أن يكون أساس السلوك . وفضلا عن هذا وذاك ، فقد ذهبوا بالشباب الى أن « الظلم » هو الطبيعى ، أما « العدالة » فهى خضوع وضعة . ان « القانون » لا يتفق مع « الطبيعة » ، والطبيعة ، هى التى ينبغى أن تكون المشرع الأول والأخير لنا ، وبالتالي فلا محل للقانون . ماذا يوجد تحت درجات السلم التقليدى - ماذا ؟ لا يوجد سوى « حرب جميع الأشياء » ، والتنازع ، والصراع . ان الحرب يجب أن تحكم البشر ، والقوة مصدر كل شئ ، وهى التى يتسنى لنا بها أن نبرر كل شئ ، فالقوة حق ، والحق نسبى ، وما نراه حقا لك فافعله ، وفعلك مشروع .

أجل ، انها لشطحات عقلية سياسية أخلاقية هدامة . ومن هنا قيل ان السوفسطائيين كادوا أن يقضوا على الفلسفة . ولكن مهما كان الأمر ، فانهم ، لحسن الحظ ، قد مهدوا الطريق لقيام « علم الأخلاق » نفسه ، وعلى يد سقراط على وجه التحديد ، فهو الذى يعتبر من ناحية ، منشئ هذا العلم ، ومن ناحية أخرى ، يعتبر « الأب الروحى الذى ظهرت من تحت معطفه الفلسفة السياسية فى الغرب » . قال أرسطو عن أستاذه سقراط : ان الفلسفة عند سقراط انحصرت فى دائرة الأخلاق . وقال شيشرون : ان سقراط أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض . وهذان القولان صحيحان عند جمهرة الباحثين . فسقراط « المسيح قبل المسيح » ، و « القديس شهيد الفلسفة » ، والذى عمده

- ٩ -

الآباء المسيحيون القدامى ، لم يبحث الا فى الانسان ، بعد أن دفع تيار التفكير برمته اليه . وكان فى ذلك كالمسوفسطائيين ، بيد أنه فاقهم فضلا فى بيان العلاقات البشرية الصحيحة للفرد والجماعة ، والصالحة لهما ، بصورة غير مشوهة القلب ، وغير مريضة القلب .





## الفصل الأول

الفلاسفة الثلاثة الكبار

( سقراط ، أفلاطون ، أرسطو )



نقطة البدء فى فلسفة «سقراط» هى علم النفس، وغاية هذه الفلسفة هى الاخلاق . ولئن كان سقراط قد عنى بالنظر فى المعرفة ، ووضع الشروط الصحيحة لها ، والقواعد السليمة للعلم ، فهو لم يفعل ذلك الا من أجل غاية واحدة هى الأخلاق . حقا ، يعتبر سقراط مؤسس علم الاخلاق ، الذى كان السوفسطائيون قد زعزعوا الايمان به ، على أساس التغير فى القوانين البشرية . ولكن سقراط هو الذى نادى بوجود قوانين للبشر غير مكتوبة ، وطبيعية ومقدسة ، وثابتة وغير متغيرة ، وباطنية وسامية . وهو الذى قال أيضا بأن غاية الحياة يجب أن تكون مراعاة هذه القوانين ، ولكى نراعيها يجب أن « نعلم » بها . فانتهى الى أن أول شروط « الفضيلة » هو « العلم » ، « فالعلم » شرط ضرورى لممارسة الخير ، وهو شرط كاف أيضا . يقول سقراط : ان الأشياء العادلة ، وكل ما نقوم به بدافع الفضيلة ، أشياء جميلة وخيرة . وان هؤلاء الذين يعرفونها ، لا يستطيعون أن يفضلوا عليها سواها . . . اذا

كان الموسيقى هو الذى يعرف الموسيقى ، فان «العادل» هو من يعرف « العدالة » . فالفضيلة هى معرفة الخير ، والرذيلة هى الجهل به . ولا انسان يميل الى الشر بارادته . ونتيجة جميع ذلك ، أن الفضيلة يمكن أن تعلم ، والطريقة الوحيدة لكى نجعل الناس أختارا ، هى أن نعلمهم . ان معرفة الخير هى الفضيلة ، وهذه المعرفة والفضيلة شىء واحد .

ولا فضيلة تعادل الحكمة . وللحكمة أسماء مختلفة ، تتفاوت تبعا

لعلاقات الانسان بنفسه ، وبأنداده ، وبالله . وفى الحالة الاولى ، نجد أن حكمة الاحساس هى العفة ، وحكمة الارادة هى القوة والشجاعة ، وفى الحالة الثانية ، تكون الحكمة فى علاقة الانسان بأقرانه هى العدالة ، والعدالة هى أن يعطى كل ذى حق حقه . وفى الحالة الثالثة ، تكون التقوى هى حكمة العلاقة بين الانسان والله .

والحقيقة ، أن سقراط لم يبين بوضوح مميزات الخير المطلقة ، وكثيرا ما يخلطها بالنفع . يقول بوترو **Boutroux** : « ... اذا » « كان سقراط يوصى بتحصيل المعرفة ، وممارسة العدالة ، والعناية بالروح » « وأسمى الفضائل ، فذلك لأنه يعتبرها نافعة لسعادة الانسان . وفى نفس » « اليوم الذى يفضل فيه الموت على العار - وهو يرجع ذلك الى غياب » « الهاتف\* الذى ينهاه عادة عن فعل سيفعله ( سقراط ) ، ويفضى الى » « الاضرار به - يكون مقتنعا ( سقراط ) بأن الموت لن يسبب له أى » « خسارة » .

وهكذا كانت « الأخلاق » عند سقراط . أما « السياسة » فلم تكن عنده غير « الأخلاق » ، غير أنها أكبر وأعظم ، فخير المدينة مثل خير الفرد ، وليس من شرط ضرورى لهذا الخير سوى المعرفة . وهنا نجد سقراط ، على هذا الأساس ، يتناول ديموقراطية أثينا بالنقد ، والتهكم المعهود فيه ، معتمدا على مبدأ يؤمن به ، وهو أن الحاكم لابد من أن توكل مهمته الى أكثر الناس معرفة وتعلما . وبعبارة أدق ، يجب ألا نترك للمصدفة العمياء ، سواء عن طريق القرعة أو رمى القداح ، تعيين الحكام . يقول سقراط : « يا للغفلة ... فحبة من حبات الفول تقرر اختيار رؤساء » « الجمهوريات ، بينما لا نرجع الى المصدفة فى اختيار النوتى ، أو » « المهندس المعمارى ، أو العازف على الناي ! » . ان القاعدة عنده التى يجب أن تكون الركيزة الاولى لتولى السلطة هى الاقناع ، وليست القوة .

---

\* الهاتف أو جنى سقراط ، هو صوت المعرفة عند سقراط ، على حد رأى بعض الشراح .

وجدير بنا فى هذا المقام ، أن ننظر فى محاكمة سقراط . فلقد وجد أن من العسير أن نفهمها الفهم الصحيح ، دون أن تكون لها خلفية سياسية . كما أنها تجربة من أعظم التجارب الانسانية ، التى ظهرت فى تاريخ البشر . لأنها تمثل أروع تمثيل وأسماه ، الايمان بخير الدولة ، وخير الفرد سويا ، حيث لا هوة تفصل ، بين الأخلاق والسياسة ، وعلى ذلك نقول : دعا السوفسطائيون الى كسر القانون ، اذا استطاع الانسان أن يفعل ذلك ، دون أن يناله عقاب . ولكن سقراط ، أول شهيد للحرية وطاعة القانون ، كفر بما كان يدعو اليه هؤلاء ، وآمن باحترام القانون ، وحرص تماما على ألا يعتدى على حرمة . بل انه لم يقف عند هذا الحد ، اذ قال بأنه لا يحق للمواطن أبدا ، أن يفكر فى مجرد الفرار من وجه العقاب ، الذى تفرضه عليه ( المدينة ) ، أى الدولة ، وذلك ما دام ينتمى اليها ، ويخلص لها حقا ، ويحس احساسا عميقا بقوة الرابطة التى تربطه بها . والنص التالى ، من « محاوره كريتون » ، يوضح هذه الحقيقة ايما توضيح ، حيث يقول سقراط :

« ولتدعنى أضع المسألة كالتالى : هب أننا قصدنا الهرب ، أو «  
 « أى شئ آخر ينبغى للمرء أن يسميه ، وهب أن القوانين والمدينة ، «  
 « سدت علينا طريق الهرب ، وسألتنى : حدثنا يا سقراط ، ماذا تنوى «  
 « أن تفعله ؟ لا شئ أقل أو أكثر من أن تقلب نظامنا بمجادلتك ، «  
 « وتقلب القوانين ، وكل الشركة العامة ، بالقدر الذى تسهم به فيها . «  
 « وهل تظن أن مدينة تستطيع الوقوف ، دون أن ينقلب نظامها ، «  
 « حينما تكون أحكام القضاة بدون سلطان ، وعندما يكسرها الأفراد ، «  
 « ولا يجعلون لها أثرا ؟ والآن ، وقد ولدت ، ونشئت ، وربيت ، هل «  
 « تستطيع القول بأنك لست ملكا لنا ، وولدا لنا ، وخادما لنا ، «  
 « أنت وأحفادك ؟ واذا كان الامر كذلك ، فهل تظن أن حقوقك ، يمكن «  
 « أن تتساوى مع حقوقنا ؟ اننا مازلنا نمنح الحرية الكاملة ، لأى أثينى ، «  
 « بعدما رأنا ، وجربنا ، وجرب كل ما قمنا به فى مدينتنا ، فى أن «  
 « يأخذ متاعه ويذهب عنا . وهذا اذا لم تكن نرووق له ، وليذهب الى «  
 « حيث يشاء . واذا بقى معنا ، بعدما رأى كيف نحكم فى قضايانا ، «  
 « ونحكم مدينتنا ، فحينئذ نقرر أنه قد التزم بالعمل بأوامرنا . واذا «

« قصدنا قتلك ، لأننا نرى أن هذا هو العدل ، ألا تبذل بدورك ، »  
 « قصارى جهدي ، لتقتلنا ؟ هل فى وسعك أن تدعى بحقك فى هذا ، »  
 « أنت يا محب الفضيلة ؟ انك تسلك سلوك من يمكن أن يكون أخط »  
 « العبيد ، حين تستعد للهرب ، وتفسخ التعهدات - وقد تعهدت »  
 « بالموافقة على حكومتنا » .

أجل ، ان من صنعوا من حياة سقراط مثالا « لشهيد حرية الفكر » ،  
 لم يفعلوا ذلك جزافا ، أو مبالغة ، لأن سقراط شهيد حرية الفكر ،  
 بحياته التى حياها ، أذاب الأخلاق فى السياسة تماما ، ولم يجعل  
 لواحدة منهما مفهوما أو تعريفا يختلف عن مفهوم الأخرى أو تعريفها ،  
 من قريب أو بعيد . وما أولى القائمين بشئون التربية فى أمتنا العربية ،  
 أن يقدموه للنشء والشباب ، بصورة مناسبة ، كمثال للمواطن الصالح ،  
 الذى لم يستخفه مجد ، ولم يستهوه جاه ، لأن قلبه قد امتلأ  
 بالفضيلة ، وطاعة القوانين . ولذلك لم يفر من قضاها ، لأن هذا  
 الفرار عار . ولأن هذا ، لو قام به ، لا ينسب الى الحكمة ، والحكمة  
 فى العلاقات بين المواطنين ، كما قلنا ، هى العدالة ، والعدالة هى  
 اعطاء كل ذى حق حقه ولحق الدولة الذى يجب أن يعطى لها ، لأنها  
 هى الوحيدة صاحبة هذا الحق ، وهو حق الدولة فى طاعة المواطنين  
 للقوانين .

لقد أغرى أصدقاء سقراط ، صديقهم بالفرار ، وهو ينتظر تنفيذ  
 حكم الاعدام . وكان هذا أمرا غير عسير ، وخاصة أن الحارس سبى  
 أن أرشاه ( أناكساجوراس ) وساعده من قبل ، على الفرار . ولكن  
 سقراط ، أو المواطن المثالى ، رفض ذلك عن إيمان ، لأنه ملك للدولة ،  
 وولد لها ، وخادم لها ، هو وأحفاده ، كما سبق القول ، ولا سيما أن  
 هذا الفرار ، كما حدثنا ، لا يليق « بمحب الفضيلة » ، وإنما هو  
 سلوك « أخط العبيد » .

وحينذاك ، قال سقراط : « الآن ، لا أظن أن القانون ، يحول »  
 « بينى وبين الآلهة ، فلاصل ولاضرع اليهم ، فى أن أوفق الى »

## - ١٧ -

« رحلة سعيدة » ، ثم تناول قدح السم ، ورفعته الى فمه ، ونفسه راضية ، تعبر أجلى تعبير ، عن الرضا والهدوء والشجاعة . وسرعان ما شرب قدح السم ! ولنا أن نتساءل فى هذا الموضع : ألا يحتمل أن يكون سقراط ، قد تهكم على القوانين ، وقصد بذلك ، التهكم على « السياسة العملية » حينذاك ، وخاصة أنه لم يكن ثمة ما يدينه ، وكل ما فى الأمر ، أن جماعة من أصدقائه ، مثل ( أنيتيوس ) Anytus ، وهو زعيم ديموقراطى ، قد حنق على سقراط ، لهجومه على ( ديموقراطية أثينا ) وقتئذ ؟ والحقيقة أن سقراط كان قد هاجم بالفعل ، نظام الاقتراع فى جمهورية أثينا . « وما من شك ، فى ان الاقتراع كان وسيلة ذات » « عيوب بالغة ، لأنه ، لا يكفل شغل المناصب الهامة ، بخير من » « تتوفر فيه الكفاءة اللازمة ، للاضطلاع بمهامها » \* .



وحين نصل الى أفلاطون ، نجده يتابع اتجاه أستاذه سقراط ، ويعتبر السياسة هى العدالة فى المدينة أى الدولة ، والأخلاق هى العدالة فى الفرد ، ولا تعارض بينهما . وعلى ذلك تتصل السياسة عنده بالأخلاق ، على أساس أن الغاية فى كل منهما هى الدولة . وكل مافى الأمر ، أن هناك عدالة بالنسبة للفرد ، وعدالة بالنسبة للدولة ، والأولى منهما أساس العدالة بالنسبة للثانية .

ويتضح عدم فصل أفلاطون للأخلاق عن السياسة ، من نفس عنوان أهم كتبه السياسية الخالدة ، ألا وهو « الجمهورية » ، أو بتعبير أصح « الدستور العام » ، أو بالعنوان الدقيق الذى يعيننا تماما ويسندنا فى بحثنا هذا ، وهو « فيما يخص العدالة » . ولا تعنى العدالة هنا ، شيئاً آخر ، سوى طريقة لتنظيم العلاقة بين المواطنين فى الدولة ، وهذا هو قطب الرحى فى فلسفة أفلاطون الأخلاقية السياسية ، أو السياسية

---

\* فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة ، الترجمة العربية ، للدكتور ابراهيم نصحي والدكتور محمد عواد حسين .

الأخلاقية . يقول (هيجل) عن مؤلف أفلاطون هذا، بأنه لا يمثل أكثر من النظرية الخلقية فى الأخلاق العملية ، وفى الحياة السياسية ، عند الاغريق .

العدالة فضيلة الفرد ، حيث أن للنفس ثلاث قوى . أولاها واعلاها القوة العاقلة ، ومركزها الرأس ، وفضيلتها الحكمة . وثانية هذه القوى ووسطاها القوة العصبية ، ومركزها القلب ، وفضيلتها الشجاعة ، وثالثتها واحطها القوة الشهوانية ، ومركزها البطن ، وفضيلتها العفة . ولا تتحقق العدالة فى الفرد ، الا بانسجام يتم بين هذه القوى الثلاثة ، فى هدى العقل . ونتيجة هذا الانسجام ، لا تتحقق الا باجتماع هذه القوى الثلاثة . وهنا نجد الحكيم يناجى باستمرار الله ، ويتأمل فيه ، كما يتأمل الفنان فى النموذج الذى يثير الهامه ويتبلور فيه . ومن شأن هذا التأمل فى الله ، ان نلمس فى الحكيم صورة مثالية سامية ، تتحقق رويدا رويدا .

هذا ، والعدالة تجلب السعادة ، ويستتبعها الاحسان الى كل انسان دون تفریق بين عدو وصديق . لأن اساءة المسيء هى اساءة أولا لنفس هذا المسيء . فمن يرد بالشر على الشر ، انما يقوض بنفسه صرح عدالته . « أنا لا أبتغى ارتكاب الظلم ولا تحمله ، ولكن اذا وجب الاختيار ، « فانى أختار الثانى » (١) . « اننى أنكر أن يكون منتهى العار ، « أن أصفع ظلما ، أو تقطع أعضائى ، أو أسلب مالى ، وادعى أن « العار يلحق بالمعتدى ، فالظلم أقبح وأخسر لصاحبه منه لضحيته » (٢) . قد نجد فردا عادلا ، بكل ما فى العدالة من معنى ، وتسقط المصائب فوق أم رأسه وتنهمر ، وتوجه اليه التهم وتكال ، ويسقى كئوس العذاب بأنواعها ، ويقيد بمختلف القيود ، ويوثق بشتى الأغلال ، ويكوى ويحرق ، ويضرب بالنعال ، ومع ذلك جميعه يحس فى قرارة نفسه ،

(١) فيدون .

(٢) جورجياس .



احساسا عميقا صادقا بالسعادة . فهذه النفس ذاتها ، هى ينبوع العدالة ، التى تنبعث من اعماقها . أما الطاغية ، الذى يستعلى ويتكبر ، ويظلم ويتجبر ، والسياسى الذى يبرع فى التدبير ، ويحذق نصب الفخاخ لكى يصيد خصومه ، لا يذوقان للسعادة طعما البتة ، وحسرى بنا أن نرثى لهما ، لأن الظلم أول الشرور وأوخمها .

وفضلا عن ذلك ، فالظالم شقى ، اذا لم يمح ظلمه بالتكفير عنه . والتكفير هو الصبر على القصاص العادل . وفى هذا القصاص خير وعدل . وهو خير ضرورى بصورة قصوى لكى يستقيم النظام ، وتبرأ النفس من أوخم ما يصيبها من شر ، أى الظلم . ويجب أن نقارن بين سلامة البدن الذى لم يمرض قط ، وبين سلامة البدن الذى عوفى ، بعدما اعملنا فيه الكى والنار ، والمبضع البتار . ان سلامة البدن سعادة ، وسلامة البدن فى الحالة الأولى سعادة من الدرجة الأولى ، أما سلامة البدن فى الحالة الثانية فدون الأولى درجة ومرتبة ، من حيث السعادة . ان واجب المريض أن يسعى الى الطبيب ، ليخلصه من آلام المرض ، وذلك باللم الكى والشق . وبالمثل واجب المسيء ، أن يسعى فى الحال ، وفى التو واللحظة ، الى القاضى ، ليعترف له وأمامه بما اقترف ، ثم يصبر على العقاب ، فى الصورة التى يقضى بها القاضى عليه ، سواء كان العقاب جلدا ، أو غرامة ، أو نفيا ، أو اعداما !

وقد يتساءل بعضنا : ان معظم هذه الآراء خلقية ، أو على الأقل ، هى أقرب الى الأخلاق منها الى السياسة ؟ ! والجواب : ان العدالة ليست مجرد فضيلة للانسان باعتباره فردا فحسب ، وانما هى أيضا خصلة فى البشر ، تجعلهم أهلا لكى يدخلوا مع بعضهم بعضا فى علاقات سياسية ، فى الجماعة السياسية ، أى الدولة . ان المجتمعات ممكنة فحسب ، بالقدر الذى يظهره أفرادها وجماعاتها ، من الالتزام الخلقى الذاتى ، نحو شتى أندادهم ، ومختلف جماعاتهم ، فى هذه المجتمعات . اذ هم لا يستطيعون أن يأتوا من الأفعال أى فعل يحلو لهم مما يستطيعون القيام به ، ولا هم يقدررون على الاستيلاء على أى شئ قد يتاح لهم ، ما لم يكن هذا العمل أو ذاك ، يتفق مع العدالة أولا وأخيرا .

ان العدالة عند أفلاطون ، جماع الفضائل فى الفرد . وهى فى نفس الوقت ، الرابطة التى تربط بين المواطنين فى الدولة . العدالة هى الخلطة الذاتية التى تجعل الفرد ( خيرا ) من ناحية ، وتجعله ( اجتماعيا ) من ناحية أخرى . وهذا هو محور فلسفة أفلاطون السياسية ، كما سبق القول .

سلم السوفسطائيون بأن العدالة ، أو الأخلاق ، ضرورة لوجود الجماعة السياسية . ولكنهم أنكروا أنها موضوع الامتياز البشرى . كما سلموا بأن على الانسان ان يركز طاقاته الفردية ، فى دائرة تنظيم الأهواء وضبط النفس ، حين يعيش مع غيره فى جماعة . بيد أنهم رفضوا القول بأن الفرد يصبح أفضل ، اذا سلك هذا السلوك . ومن ثم أتى أفلاطون بسياسة تنطوى على ضرورة الالتزام الخلقى الذاتى ، لكى نرفع من شأن الامتياز البشرى ، ولكى يصبح امتيازاً بالمعنى الصحيح . والالتزام الخلقى ، والقهر الاجتماعى ، اللذان تفرضهما الحياة فى جماعة سياسية ، لهما حقيقة واحدة ، ولا فرق بينهما يذكر . فالقهر الاجتماعى ، اكمال لفضيلة الفرد كحيوان سياسى . أى اذا كنت بصدد تنمية قدرتك كإنسان ، لتصل الى درجة الكمال ، حسب ما أنت ميسر له ، فعليك أن تخضع هذه القدرة لتنظيم القانون . وأى قانون ؟ أنه هذا الذى يربطك بأعضاء جماعتك السياسية الآخرين .

ويقال بأن هذا الجزء من فلسفة أفلاطون السياسية ، غريب على عقول كثيرة فى العصور الحديثة . فأفكارنا الخلقية نتاج تقاليد ، قامت بعد فترة طويلة من نشاطنا البشرى ، ولم تحسب حساباً للتمييز بين ماهو « حق » من الناحية الأخلاقية ، وبين ما هو « مناسب » من الناحية السياسية . ان الدولة ، تبعا لفلسفات سياسية حديثة ، لم توجد الا لكى تفرض ما هو « مناسب » ، أما ما هو « أخلاقى » فليس فى مقدورها أن تفرضه . لأن الدولة توجد لكى تجعل ( حياة الجماعة ممكنة ) ، ولم توجد لتجعل الناس ( أخيارا ) .

والخلاصة ، أن القوانين التى تجعل ( حياة الجماعة ممكنة ) ،

هى القوانين نفسها ، التى تجعل الناس أختيارا . فلقد هيات الطبيعة الانسان وأعدته ، ليكون حيوانا سياسيا . وفن الحكم تربية . والتربية تنمية قدرات المواطن الى المستوى الذى يمكن أن تصل اليه ، لصالحه وصالح الجماعة التى ينتمى اليها . يقول أفلاطون : « ينبغى أن أرغب » « فى أن يكون المواطنون على استعداد لاستمالتهم الى الفضيلة ، على » « قدر الامكان . وهذا ما سوف يكون غرض المشرع بالتاكيد ، فى » « جميع قوانينه » . ويقول أيضا : « ينبغى للرجل أن يتحمل جميع » « تلك الأحكام ( النفى والطرء من القانون ) ، فهذا أوجب له ، من » « أن يقبل مثل هذا الدستور ، الذى يجعل الناس أرياء . اذن ، » « ليكن ثنائنا على القوانين ، أو لومنا لها ، لميلها هذا الميل ، أو » « عكسه » .

لقد حض أفلاطون ، على لسان ( ديون ) الراحل ، أهل سيراقوزة ، الذين أوشكوا على أن يثيروا حربا أهلية ، من جراء وضع الدستور ، بقوله :

« يا أهل سيراقوزة ، اقبلوا بادىء ذى بدء ، أية قوانين ، تبدو » « لكم أنها لا تفضى الى تحويل أفكاركم وأهوائكم ، الى السعى وراء » « الربح والثروة . فالرجال أيضا ، فضلا عن الملكية ، أبدان وأرواح . » « انظروا الى امتياز الروح ( أى الفضيلة ) ، من بين هذه الأمور » « الثلاثة ، أسمى نظرة . ثم انظروا الى امتياز البدن ، على أنه » « يتلو امتياز الروح . وليكن اهتمامكم بالثروة ثالثا وأخيرا . لأن » « امتيازها يجرى بعد امتياز كل من الروح والبدن » .

وحين ننظر الى فكرة أفلاطون هذه ، نجد أن النفس ترتاح اليها ، وتحس فى ظلها بالرضا والطمأنينة . وهذا بدوره يجعلنا نميل الى أن نفترض ، أن الجميع يؤيدها ويوافق عليها . ومن الحكمة أن تكون هذه هى نصيحتنا التى ننصح بها الحكام فى كل دولة مثالية . ولكن الحقيقة ، أن الأهداف والأغراض العملية فى الحياة السياسية ، كما يعلم أهل الخبرة فى فن الحكم ، تجعلهم ينحدرون بذكاء ، بين يوم

وليلة ، من هذا المستوى المثالى ، أو يتجنبونه ، تحت ضغط الحياة الواقعية ولوازمها ، وظروف عالم البشر وضروراته القاهرة ، ومنطق السير على الأرض ، دون التحليق فى سماء الوهم . وهنا نجد الاختلاف الكبير ، بين أفلاطون وبعض فلاسفة السياسة فى العصر الحديث . ان ( لوك ) Locke مثلا ، يرى أن فضيلة المواطن ، ليست بالشئ الذى ينبغى للحاكم المثالى ، ان يبذل جهده من أجل ترقيتها ، فهى أمر يخرج عن نطاق التنظيم الذى تقوم به الدولة . ان قوانين الدولة ، تبعا لرأى ( لوك ) ، يجب ألا تتجاوز تنظيم ملكية المواطنين ، لا لأن الملكية أهم من الفضيلة ، ولكن لأن الفضيلة لا ينظمها سوى مجموعة أخرى من القوانين .

وعلى كل حال ، فلقد هوجم أفلاطون ، لأنه افترض أن حقيقة الالتزام الخلقى والقهر السياسى حقيقة واحدة . ولكن النتيجة هى ، ألا فاصل بين الأخلاق والسياسة . لأن هناك ( سيكولوجيا للفرد ) هى الأخلاق ، و ( سيكولوجيا للجماعة ) هى السياسة . والعدالة أيضا ، فضيلة خاصة وفضيلة عامة ، من حيث أنها خاصة تحفظ الخير الأسمى للفرد ، وعامة تصون الخير الأسمى للدولة . وهذان الخياران خير واحد . وقوى الفرد ، اذا صلحت ، وحسن ضبطها وتوجيهها ، شكلت جماعة سياسية متجانسة صالحة . وفى الدولة ، كما قال أفلاطون نفسه ، يتحول موضوع العدالة ، من البحث عنها غاية للفرد ، الى البحث عنها غاية للدولة . لقد سلم أفلاطون بوجود اتساق ضمنى ، يربط بين الفرد والمجتمع ، وكذلك بين المجتمع والفرد . ولقد فسر هذا الاتساق ، باعتبار أنه ضرب من ( التوازى ) . فلكل « من الفرد والدولة ، أصل » مشترك واحد ، يحول دون أن يكون الخير فى أحدهما ، مخالف « مخالفة أساسية للخير عند الآخر »\* . ومن مصلحة الفرد ، أن يعيش فى دولة تقوم بحمايته ، وتسهر على اشباع حاجاته ، وتحقيق كماله

---

\* جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية ، للإستاذ حسن جلال العروسى ، طبعة دار المعارف ، ص ٦٤ .

المنشود . ولا قيام لهذه الدولة ، الا اذا تخللت العدالة ممارسة ، كل أركانها ، بالنسبة لكل جماعاتها وأفرادها ، حتى تنأى عن الظلم والانتقام . لأن أفرادها لن يكونوا موضع خير لها ، ولا يربطهم بها ولاء . وهنا لا تجد الدولة لنفسها من أبنائها حماة وحراسا ، وذلك للفوارق الصارخة بين أبنائها .



أما أرسطو ، فنجد به دوره لا يفصل بين الأخلاق والسياسة . وشأنه فى ذلك شأن سقراط وأفلاطون . بيد أنه كان أكثر واقعية من أستاذه أفلاطون ، الذى أسرف فى مثاليته . فأرسطو يعتبر الأخلاق متصلة بالسياسة ، أو هى بالأحرى مقدمة لها . فلكى يكون علم الأخلاق كاملا ، لابد من البحث أيضا فى السياسة . ان الأخلاق تبحث فى أخلاقية الفرد ، وفى أخلاقية الدولة . والبحث الأول هو علم الأخلاق ، والبحث الثانى هو علم السياسة . فالأخلاق تنظر فى أعمال الانسان ، ولذا فهى عملية ، بينما الانسان ( حيوان سياسى بطبعه ) ، اذ لابد له من أن يحيا فى ( مدينة ) ، أى ( دولة ) ، حتى يتحقق كماله . وتدبير المدينة هو السياسة ، والأخلاق جزء منه . والسياسة هى قمة العلوم العملية جميعا . وهى التى تستخدم هذه العلوم من أجل غايتها وخيرها ، بينما الأخلاق تبحث فيما ينبغى العمل به ، وما ينبغى الانتهاء عنه ، وذلك لتنظيم الحياة بالقانون . وهذه الغاية نفسها ، هى غاية الفرد نفسها . وفيها خيرها وصلاحه ، مع أنها غاية ( مدينة ) أى ( دولة ) بأكملها . اذن ، لابد من أن ترتبط الأخلاق بالسياسة ، طالما أن أخلاق الفرد ، لن تتحقق غايتها الا فى الدولة ، وفى الحياة الاجتماعية ، ومادام بلوغ الفرد غايته بدون هذه الحياة ، أمرا مستحيلا .

ولبيان ذلك نقول : للطبيعة غاية ، ولل فرد غاية . وغاية الفرد ، قد تكون وسيلة لغايات أخرى ، وهكذا دواليك ، حتى نصل فى النهاية ، الى غاية لا تكون وسيلة لغاية سواها ، بل تكون غاية فى حد ذاتها أخيرة ، لا تتغير . وماذا عسى أن تكون هذه الغاية التى لا تكون وسيلة

## - ٢٤ -

لسواها ؟ انها السعادة ، ضالة الانسان المنشودة ، وهى التى يبحث عنها ، ويسعى اليها .

وللطبيعة غاية ، وللدولة غاية . وهاتان الغايتان غاية واحدة ، وهى السعادة . تسعى الدولة لاسعاد أفراد شعبها . وبدون الدولة ، لا تتحقق هذه السعادة . لأن الانسان لا يكون انسانا الا بالحياة فى دولة ، لأنه ( حيوان سياسى بطبعه ) . ان من لا يعيش فى جماعة ، أو هذا الذى ليست له حاجات اجتماعية ، لأنه يكفى نفسه بنفسه ، اما ان يكون بهيمة من البهم ، أو الها . اذن ، الحياة فى دولة ضرورة للفرد لاغنى عنها ، وخاصة أن هذه الحياة هى التى تزرع فى الفرد الفضيلة وتنميها ، وتعين الفرد لى يفوز بها . فلولا الحكومات ، ما أمكن تحقيق النظريات الاخلاقية . وقصارى القول ، فللفرد غاية ، وللدولة غاية ، والغاية الثانية تشتمل على الغاية الاولى وتحتويها . وبعبارة أخرى ، للفرد والدولة غاية واحدة ، هى السعادة .

هذا ، ونظرية أرسطو فى الفضيلة مشهورة . فالفضيلة عنده وسط بين رذيلتين . فالتهور مثلا ، طرف وهو رذيلة ، والجبن هو الطرف الآخر ، وهو رذيلة بالمثل ، والوسط بين هذين الطرفين ( هاتين الرذيلتين ) هو الشجاعة ، وهو فضيلة . ولكن كيف يمكن معرفة هذا ( الوسط ) ؟ ان هذه المعرفة ، تتوقف على ظروف كل فرد ، وما يكون وسطا فى حالة ، لا يشترط أن يكون وسطا فى حالة أخرى عند فرد آخر . ويلاحظ أن ( نظرية الوسط ) هذه ، هى التى يستخدمها أرسطو ، فى بيان ( شكل الحكم الأمثل ) ، من بين الأشكال المختلفة . وهذا يوضح لنا فى هذا الصدد ، منذ أول وهلة ، مبلغ الاتصال الوثيق بين الاخلاق والسياسة عنده . يقول أرسطو : ان كل شكل من أشكال الحكم ، له مبدأ خاص به . وهذا المبدأ وجيه بعض الوجاهة ، وليس كل الوجاهة . وهو صحيح بعض الصحة ، وليس جميع الصحة . ولذلك فلا يمكن لنا أن نفضل ، بصورة مطلقة ، شكلا من هذه الأشكال على شكل آخر ، باعتبار أن الشكل الذى نؤثره ، هو شكل بلغ حد الكمال على الاطلاق . ولذا يجب ألا نختار نظاما ما ، بدون أن نقيسه بمقياس ( نظرية الأوساط فى الفضيلة ) هذه ، حيث أن أفضل النظم السياسية ،

هو الذى يكون ( وسطا ) بين نظم متطرفة . ومن ثم فخير نظام للحكم هو الذى يقوم على الطبقة المتوسطة ، من بين طبقات المجتمع الثلاثة ، فمثل هذا النظام ، يجمع بين الأوليكارشية ( حكم القلة ) وبين الديمقراطية . وهو الذى يمكنه أن يقاوم شطط الأحزاب واسرافها الحزبى . وهو بذاته صمام أمن ضد المناورات ، التى قد تتم عن طريق اتحاد أو تواطؤ ، تقوم به الطبقة الأرستقراطية مع الدهماء . وذلك جميعه يرجع الى حقيقة أن الطبقة المتوسطة ، أكثر الطبقات تأييدا من الطبقات الأخرى . والخلاصة ، ( أصلح حكومة ) لشعب ، هى ( أنسب ) حكومة له بالنسبة لظروفه هو بالذات . وذلك على الرغم من أن أرسطو فصل القول فى الحكومات الصالحة ، وذكر عددها ، وبين خصائصها ومميزاتها .

وفى الفترة التى جاءت بعد افتتاحه ( اللوقيون ) Lyceum بمدة غير وجيزة ، نجد أرسطو يوسع تعريفه للسياسة ، ويمنحها بعض الاستقلال عن الأخلاق ، ويفصل بينهما بعض الفصل ، لكى يدخل فيها ، ما هو واقعى وتجريبي ، ويدخل فيها أيضا ( الكتاب العلمى ) له فى فن الحكم ، ليكون هذا الكتاب فى متناول الحكام أنفسهم ، وغرضه من ذلك أن يبين امكان قيام سياسة تجمع بين المثالية والواقعية معا .

وقد يبدو من هذا جميعه ، أنه قصد الفصل بين الأخلاق والسياسة . ولكن ذلك لم يكن الا بالقدر الذى أشرنا اليه فيما سبق ، من حيث أن السياسة تحيط أيضا بمعرفة ( أساليب سياسية ) ، على الرغم من أن مؤداها قد يكون غير أخلاقى . ومع ذلك ، فلا نستطيع أن نذهب ، الى أنه لم يظل مخلصا وفيما لمثالية قادة الفكر اليونانى ، وعلى نحو ما أشرنا اليه ، وعلى نحو ما سنتحدث عنه فيما بعد . وعلى ذلك فلم يكن أرسطو فى هذا الموضوع نغمة نشاز فى سيمفونية توفيق هؤلاء بين الأخلاق والسياسة ، والربط بينهما . وقد يكفى أن نقول هنا بأنه جعل الأخلاق بالنسبة للدولة هدفا أخيرا ، وغاية نهائية . فالدولة عادة تضامن بين أفرادها ، ليعيشوا معا لتحقيق ( أفضل ) حياة ممكنة . وصورة هذا التضامن ، أو بالأحرى هذه المشاركة الشاملة ، هى الصورة الوحيدة ،

التي يمكن للمواطنين والأفراد من داخل اطارها العالى والسامى ،  
واللازم والضرورى ، أن يحققوا فيها وبها ( الفضيلة ) ، للارتقاء الى  
أعلى درجات السلم الأخلاقى .



وهكذا كان موقف هؤلاء القادة فى الفكر الاغريقى من مشكلة  
العلاقة بين الأخلاق والسياسة . ويمكن أن نعزو موقفهم هذا ، الى  
سعيهم نحو علاج ناجع شاف لتخليصهم من ويلات وآفات ما عرفوا به  
واشتهروا ، وهو ( الداء الاغريقى القديم ) ، ( حب الفرقة ) ، على  
حد تعبير ( بوترو ) Routroux . ففى الداخل ، كان الدستور الاغريقى،  
سواء كان دستورا لديمقراطية ، أو لحكومة أقلية ( أوليكارشية ) ، يخص  
ببساطة ادارة (الدولة - المدينة) ويقصرها فقط على طبقة ذات (امتيازات  
محلية ) . فكان من شبه المحال ، أن يقوم اتحاد بالمعنى الصحيح  
المتكامل ، بين المدن الاغريقية ، التى تناثرت حول حوض البحر  
المتوسط ، أو أن يقوم بينها تعاون مثمر للجميع ، يحقق للجميع هدفا  
مشتركا . فكل ( دولة - مدينة ) كانت فى قبضة فئة قليلة ، لا يتجاوز  
عددها مئات الرجال . وكان هم كل فئة من هذه الفئات ، أن تظل كل  
( دولة - مدينة ) ، منفصلة ومنعزلة عن المدن الأخرى . ولم تكن هناك  
قوة تستطيع أن توحد الاغريق ، سوى الغزو الخارجى . وحتى مثل  
هذا الغزو ، حينما تم أخيرا ، لم يكن له قيمة ، حتى بالنسبة لهم  
بالذات . وفى الخارج ، كانت هذه المدن ، للأسف ، تتحالف مع  
الأجانب ، ضد المدن الاغريقية الأخرى . فاسبطة تتحالف مع الفرس،  
وتضحى فى نفس الوقت بمصالح أيونيا ، مرضاة لحلفائها الأجانب .  
وبالمثل تتحالف أثينا نفسها مع الفرس ، عندما استحكم العداء بينها  
وبين أسبطة . ولقد استشرى هذا الوباء الاغريقى القديم ( حب  
الفرقة ) ، الى حد أن وجدنا ( اكسنوفون ) تلميذ سقراط ، ومعه شرذمة  
من أهل أسبطة ، يحاربون تحت علم الفرس ، من أجل مصلحة فارس .  
والثابت أن الفرس كانوا قد أفسدوا ضمائر الأحزاب السياسية الاغريقية،  
بسحر الذهب وبريقه ورنينه ، مما جعل المواطنين ينفضون من حول



( ايزوقراط ) الحكيم ، وهو يدعو بأقوى همة له ، وبأعلى صوته ، الى أن يتحدوا ضد الأخطار المشتركة !

وكان هذا أقصى ما أمكن للمعرفة الاغريقية أن تبدأ به وتنتهى اليه . ولم تكن له قيمة سوى المبادرة التى بادروا بها للجأبة على ما عن لهم ( بالفتحة المشددة على النون ) من أسئلة . وكانت هذه المبادرة بمثابة التحدى لأول مرة ، للعالم الذى يعيشون فيه ، ولأسلوب حياتهم فى ( المدينة - الدولة ) ، التى ولدوا فيها . وهذه المبادرة تشير لنا الى أن العقل الاغريقى بدا له أن فى مقدوره ، أن يغير الظروف التى تحيط به ، والحياة التى يعيشها منذ ماضى الزمان .

وقد يمكن أن نلتمس عذرا لهذا العقل . فقد أحاطت به من جوانب شتى ، حواجز محكمة حوله . لم يسلم منها الا فيما ندر . وكان من بين أهم هذه الحواجز والفيود ما شكل عندهم أفكارا عديدة . فأولا ، كانت فكرتهم عن جغرافية مدنهم فكرة ناقصة تافهة ، لم تتجاوز حدود مدنهم والبحر المتوسط ، أما العالم جميعه ، فلم يكن عندهم سوى مسطح لا نهاية له . وثانيا ، فكرتهم عن الآلهة المتعددين المختلفين ، الذين عجزوا عن حمايتهم . وثالثا ، فكرتهم عن القضاء والقدر . ورابعا ، فكرتهم عن القبيلة ، وقد أدانت نفسها بالانحطاط . وخامسا ، فكرتهم عن الرق . وقد كانت غالبية سكان ( الدولة - المدينة ) عبيدا ، أما القلة فكانت أحرارا . ولم يتصوروا أن الغاء الرق والقضاء عليه ، أمر ممكن وضرورى ، لأن من شأنه فى حقل السياسة ، أن يطبع ( السيد ) مالك العبيد بطابع ( الفئة الممتازة ) . والرق ، وفى حد ذاته ، يتنافى ويتجافى مع جميع المعانى السياسية والاخلاقية والانسانية ، وخاصة وأن الأرقاء ، لم يكن لهم بتاتا مكان فى الديمقراطية الاغريقية .

وكان من بين هذه الحواجز أيضا ، فكرتهم السياسية المشوشة . وكان يمكن أن تكون هذه الفكرة على درجة عالية من الأهمية ، بالنسبة لنظام ( المدينة - الدولة ) ودستورها . فهذا الدستور أناط الحكم بـقلة من الأحرار عملت لصالحها ولا سواه ، كما قلنا ، حتى غدوا « صما وعميانا » عن عدم استقرار ( دولة - المدينة ) ، وعن عدم استتاب أمنها فى «

« الداخل والخارج ، وعن ضرورة توحيدها فى وحدة فعالة » (١) .  
 ويجب ألا يغيب عنا، أن (دولة - المدينة) هذه، هى التى كانت تقوم بنفى  
 خير أبنائها وأصدقائها سياسيا . ولقد كان من شأن هذه الحواجز أيضا،  
 وهى التى قيدت العقل الاغريقى بقيودها ، أن أوضحت حاجته الى قدر  
 أكبر من امكانيات المعرفة ، وخاصة المعرفة التاريخية . فلم يكن للاغريق  
 أى قسط كبير يعول عليه ، من العلم بتاريخ البشر وماضى البشرية .  
 فكل ما كان فى متناولهم فى شتى فروع المعرفة ، وفى أحسن الظروف  
 « بضع تخمينات تتم عن طريق فكر صائب » (٢) .



أجل ، كانت هذه من أهم القيود والحواجز التى قيدت العقل  
 الاغريقى . وقد اعتمدنا فى تحديدها على المؤرخ الفذ ه . ج . ولز  
 H.G.Wells فى موسوعته التاريخية حيث يقرر خلو « عالم »  
 « أفلاطون وأرسطو و ( ايزوقراط ) ، من أى معين من المراتبات »  
 « التاريخية » (٣) ، وحيث يصور لنا فكرتين ، (فكرة العلم) ، باعتبارها  
 « أعظم الأفكار الانسانية وأسمائها (٤) » . وهذه حقيقة ، وأى حقيقة ،  
 « اذ ليس هناك قانون أو شرعة أعظم من المعرفة » ، بينما « الجهل »  
 « خراب الدول » . وثانيتهما ( فكرة التاريخ والفلسفة ) ، وقد أصبحت  
 حينذاك ذات معان سهلة ميسورة ، وأصبح نقلها أيضا الى الناس ونشرها  
 بينهم ، أمرا سهلا يسيرا . هذا ، ونجد ه . ج . ولز ، وقد اتخذ  
 ( هيرودوت ) ، و ( أرسطو ) طرازين مثاليين ( لفكرة العلم ) ، على  
 أساس أن ( كلمة العلم ) « فى أوسع معانيها تشمل التاريخ ، وتدل على »  
 « صورة للانسان واضحة ، فى علاقاته بالأشياء حوله » (٥) . ويتضح لنا

---

(١) ه . ج . ولز : معالم تاريخ الانسانية ، الترجمة العربية ، للاستاذ توفيق  
 جاويد ، المجلد الثانى ، ص ٣٢٧ .  
 (٢) نفس المصدر ص ٣٣٦ .  
 (٣) نفس المصدر ص ٣٧٦ .  
 (٤) نفس المصدر ص ٣٧٧ .  
 (٥) نفس المصدر ص ٣٧٧ .

من خلال ذلك ، أن المؤرخ الكبير انما قصد بالتاريخ ، معناه فى صورته المتميزة ، عن مجرد ( المدونات التاريخية ) ، ذات ( السمة الكهنوتية ) ، لينأى عن تلك ( التخمينات ) التى سبق اشارتنا اليها منذ هنيهة ، على الرغم من أنها كانت تتم عن « طريق فكر صائب عند الاغريق » .

ومع ذلك ، تألق الفكر الاغريقى عند كبار رجاله وقادته . الا أن ( أرسطو الواقعى ) ، نراه عند ه . ج . ولز ، وعند غيره ، سواء من زمرة المؤرخين ، أو من كوكبة النقاد والمفكرين ، فى التاريخ والفلسفة ، قد أضفى على جبين هذا التالىق الاغريقى ، مزيدا من السناء والرواء ، وذلك بالاشادة ببداهة العقل الاغريقى . ولا غرو ، فالاغريق « أهل » « ذكاء وسرعة بديهة » ، كما قال عنهم ( هيرودوت ) أبو التاريخ . ومرد هذا السناء والرواء ، انما هو ميل أرسطو الى الواقع والتجربة ، وتقريبه لفكره من التجارب والمشاهدات والتاريخ ، وانحيازه فى أوج فكره العظيم الى ( الطبيعة ) فى مقابل المظاهر والتقاليد ، ومزج البارع الاستقرأ التجريبى بالاعتبارات النظرية للمثل ( بضم الميم ) ، وإدراكه الاجتماعى الذى اكتسبه ، نتيجة لتأملاته ودراساته الاجتماعية والسياسية والبيولوجية ، وصبغه دراساته بصبغة التاريخ ، فى أحيان كثيرة ، حتى قيل ان دراساته أصبحت « دراسات تاريخية أكثر منها » « فلسفية » (١) . والأهم فى مقامنا هذا ، أن علم السياسة عنده أصبح تجريبيا ووصفيا أيضا ، ولكن بصورة غير خالصة (٢) . وفضلا عن جميع ما ذكرنا عن (أرسطو الواقعى) ، يجب ألا ننسى « قوته الخارقة » « فى التنظيم المنطقى ، الذى يطبع فلسفته فى جملتها (٣) » ، وإلى هذه القوة عنده يعزى الفضل فى قدرة أخرى له ، من حيث استطاع « أن » « يحدد الفروع الرئيسية للمعرفة العلمية تحديدا ظل قائما حتى العصور »

(١) جورج سباين : تطور الفكر السياسى ، الترجمة العربية للاستاذ حسن جلال

العروسى ، ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣٦ .

« الحديثة » . وما أوجبنا أن نعيد ذكر ، ما سبق أن أشرنا اليه اشارة سريعة ، ألا وهو توسيعه لتعريف السياسة الجديدة عنده ، لكى يحتضن ما هو تجريبى وواقعى ، والحكومات الواقعية ، والكائنة ، وعلى الأخص ( الكتاب العملى ) له ، فى فن الحكم الجديد عنده ، ليكون فى أيدي الحكام،الذين يحكمون حكما جد بعيد عن المثالية(١) . وقد يعزى الى تلك القوة الخارقة أيضا فى التنظيم المنطقى ، وهذا التوسع فى تعريف فن الحكم الجديد ، وما هو سواهما ، ما ظهر من تفرقه بين الأخلاق والسياسة ، فى بعض النواحي . والواقع أن هذا التفرق ، جاء منه دون قصد(٢) ، وإنما هو « المنحنى الجديد ، فى فن الحكم ، » « هو الذى جعله موضوعا للبحث مغايرا للبحث فى المبادئ الاخلاقية ، » « من الناحية الفردية والشخصية(٣) » . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، تلقى هذا التفرق ، غير المقصود عنده ، قد نز من قوته الخارقة فى التنظيم المنطقى(٤) ، السابقة الذكر من تونا .

وعلى كل حال ، فلا شك أن ( أرسطو الواقعى ) ، لم يتنكر لمثاله السياسى الأعلى ، وكذلك لمثله الأخرى ، حيث تسود الأخلاق فيها ، وحيث نلمس حرصه على الابقاء عليها ، كما كانت عندما وضعها من أجل الدولة . لتظل جميع هذه المثل غايات كبرى لها ، فى وجودها وتواجدها . فالدولة عنده « شئ طبيعى » أيضا ، وهذا الشئ هو الذى يهيب من داخله ووجوده ، جميع الظروف والأحوال للوصول الى أعلى مرتبة من الارتقاء الخلقى(بضم الخاء واللام) ، للفرد ، والدولة . وهكذا ، وكما سبق أن قلنا وطبقا لذلك ، يظل أرسطو نعمة غير نشاز فى سيمفونية الربط بين الأخلاق والسياسة ، عند قادة الفكر الاغريقى .



(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

## - ٣١ -

والآن ، كم يبدو لنا ، ونحن نبحت في السياسة والأخلاق ، ربطا بينهما وتوفيقا ، أو فصلا بينهما وتطليقا ، أو بين بين ، أن من الخير الذي يصح صحة الصحيح أو الأصح ، أن نتناول الموضوع ، من خلال النظريات والممارسات ، في مجرى التاريخ ، دون اهمال لما قد يصادفنا على شاطئيه متصلا بالموضوع ، وذلك على مر الأجيال ، ومع كر الغداة وممر العشى . والتاريخ عادة يتعامل مع ( أعمال ) قادة الدول ورؤسائها ، وسائر الأبطال ، وبالمثل يتعامل مع ( أفكار ) قادة الفكر ، وكبار الفلاسفة ، وأصحاب المذاهب .

وازاء ذلك ، فثمة خطوات كتبت علينا ، لنخطوها في هذا المقام . وهى أن نقوم بطى أحقاب وقرون من التاريخ ، ثم نقفز من فوق هذه اللقافة التى جاءت من طينا ( بفتح الطاء والكسرة المشددة فوق الياء ) ، لنصل من حيث نحن فى هذه العصور القديمة ، لننتهى عند ( عصر النهضة ) ، أو ( البعث الجديد ) ، لنهبط فى ايطاليا ، وعلى أرض فلورنسا ، وعلى ضفاف نهر الأرنو الجميل . وذلك ، حتى نلتقى ونطرح ، مدققا فى التاريخ أحكام بثاقب فكره ، فحص التاريخ وتمحيصه ، فكان الدارس المحقق للتاريخ ، وقد عرف خالصه وكنهه ، على شاشة السياسة والطبيعة البشرية . اما بغيتنا هنا فهى أن نضع أمام هذا المدقق المحقق ، فى زمانه ومكانه ، موضوعنا هذا ، ليحدثنا هذا المحقق المدقق ، بما رأى ، وبما تراءى له . فماذا عسى أن يجهر أو يهمس به من قول ؟ وماذا عسى أن يثير جهره بالقول أو الهمس ، من عواصف قليلة أو شتى ؟



## الفصل الثانى

### البعث الجديد





يقول ( جورج سانتيانا ) George Santyana فى أحد أناشيده :

خلق الله آدم مرتين ، مرة حين خلق آدم ، وأخرى حين خلق ( شاكسبير ) . ونفس القول ، يصدق على واحدة من روائع ( ميخائيل أنجلو ) Michael Anglo ، وهى ( لوحة الخلق الجديد ) ، على سقف ( كنيسة سستين ) Sistine Chapel بروما - لا موجود سوى الله ، والعالم وشيك الخلق . فأوجد الله الخالق النور والظلام ، والشمس والقمر ، وفصل الماء عن اليابس ، وسوى آدم ونفخ فيه من روحه . ان آدم الجديد ، له نفس صورة آدم القديم ، ولكن يفوقه نبوغا وعظمة ، ومجدا وعبقرية ، وطاقة وقدرة . وجميع هذه الامكانيات ، أبدع وأقوى مما كانت فى خلقه القديم . فالجسم بلا دثار أو ازار ، ولا حياء ولا خوف ولا خفر ، ولا جبن ولا حيطة ولا حذر ، تقطر القوة من عضلاته ، بل تكاد تتدفق . وملامح وجهه تنم بجرأة عن الفتوة والقوة . وهذا الانسان الجديد ، يسعى ما وسعه السعى ، فى حومة الكد والجد ، وقد ملأ تجويف صدره من نسيم الحرية ، وأخذ ينطلق الى آفاق الحياة ورحابها ، فازعا الى النور ، فى لهفة وشوق وظما .

وكأن الفنان الخالد ، أراد أن يصور لنا ( عصر النهضة ) ، ويكفيننا شر الضلال ، لو أردنا تعريف هذه الحركة فى التاريخ . لأن التعريف ، مهما كان الأمر ، يجعل المرء يتردى أحيانا فى حفرة الخطا المظلمة . أن النهضة لم تكن سوى حركة انطلاق ، لتجديد قوى (الكون

الأصغر ) أى الانسان ، وقد رفع الى ما يقرب من مراتب الآلهة ، للايمان بعزته وقوته ، ولايقاظ شعوره بذاته ، ولاحياء احساسه ( بالكون الأكبر ) أى الطبيعة التى يحيا فيها، بل ويحاول السيطرة عليها، لكى يذوق الجمال ما قدر له الاحساس به ، دون قيد يقيد به ، أو موجه يوجهه الى ناحية دون غيرها . وهذه الحركة لم تسكن لقرنين من الزمان . وخضعت عجلتها لمنطق الحركات فى التاريخ . فكان لها مبشرون وأنبياء ، وحراس وأمناء ، عاشوا على دفعها وحرارتها ، وسهروا العمر يحافظون على شعلتها ونورها . ولقد سرى تيارها فى شتى البقاع ( ايطاليا ، والمانيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وأسبانيا ) . وأخذ يتنقل بين شتى النواحي والأرجاء ، ثم يترك وراءه عالما جديدا ، ودنيا طريفة . ولم تكن النهضة تيارا بمعنى الكلمة ، وانما على سبيل المجاز . لقد كانت بالأحرى ، أشبه ما تكون بظاهرة من الظواهر الطبيعية ، وهى ظاهرة ( الجو ) الذى أحاط بالانسان ، فأخذ يتنفس فيه لكى يستمتع بالحياة ، ويذوق جميع طعومها بكل جرأة ، ويفهم مختلف معانيها بكل جسارة ، وينعم بما شاء أن ينعم به ، من صورها الجميلة .

وكان الدافع الى هذا ( البعث الجديد ) ، أى الميلاد الجديد ، دافعا شاملا ، سبقه وقدم له ما يشبه الكشف والتجلى - كشف العقل ، واجتلاء امكانيات الانسان . اذ كانت ( النهضة ) ، على هذا الاساس ، حالا من أحوال العقل ، أكثر من أن تكون نتائج تبلورت . وهذا هو السر ، فى أن هذا البعث ، حين تبلور فى بللورة الطقوس الجمالية ، تردى فى الهاوية ، ولقى حتفه . ولكن قبل ذلك ، كان واجبه المعقد قد كمل ، وتميزت عناصره ، ومن بينها عنصران من عناصر هذا البعث فى غرب أوروبا ، وهما التحرير والتعبير .

لقد كانت النهضة تعبيرا غير محكم ، عن صور كثيرة من صور الصدور : الاصلاح الدينى ، واحياء الفن ، والثورة على الروح المدرسى ، واتساع الأفق البشرى لتساع أفق العالم . ولو أردنا أن نرجع الأمر ، الى أسباب أخرى خارجية ، لأرجعناه الى أسباب كثيرة . فأولا ، نفق وحش الاقطاع البشع ، ثم ركله الأحرار فى النهاية . وتكسر قيد من قيود

السلطة الجبارة ، ونال الفرد حريته . واستولى الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وهرع المدرسيون الاغريق الى الغرب ، ومعهم غنائم المخطوطات ، وآيات من الفن منحوتة ، وكشفت الطباعة ، فدفعت بالكتاب الى أيدي الجماهير تتناوله وتتداوله ، وعرفت أمريكا التي أثر كشفها تأثيرا هائلا على التجارة والثروة والنقل . وهذه الأحداث التاريخية كانت بدورها ، أمارات منظورة ، لقوة دافعة ضخمة ، اندفعت من باطن الفرد وهو يؤكد ذاته ، ويؤكد الطبيعة أيضا ، ويحاول السيطرة عليها ، وهو يتلهم الى المعرفة من أجل المعرفة ، وإلى التحرر الفكرى من كابوس المنطق المدرسى العقيم ، والتمرد على غاية ( الكيمياء السحرية ) ، وهى الحصول على ( حجرالفلاسة ) .

ان ( را بليه ) على حد تعبيره . ج . ولز H.G.Wells ، انفجر كبركان من الحمم صاخب محرق ، يقدم إلينا أميره ( جراجنتوا ) Garagantua ، أى ( الطفل المارد ) ، الذى ولد فى هواء العراء ، وتحت قبة السماء مباشرة ، وأخذ يدور بأنفه فى كل اتجاه ، يشهق بعمق ويملا رثتيه من نسيم الحياة . ان ( رابليه ) يقدم لنا بذلك ، رمزا حيا واعيا ( لطفل النهضة ) ، الذى طلع على الدنيا ، وقد فك قماطه وتحرر منه ، عطشان يريد أن يطفئ ظمأه بالشرب العميق ، تواقا الى النمو والشبوب بقوة وسرعة ، كى يستطيع أن يحطم الحواجز المصطنعة ، التى حرم عليه بعض رجال الكنيسة الوثوب من فوقها ، أو مجرد الاقتراب منها أو لمسها . ولقد رغب ( طفل النهضة ) هذا ، فى أن يعيد للحواس وظائفها، اذ كان نفر من هؤلاء قد علمه دون أمانة، ولعلة فى نفسه ، أن يحتقر الحواس . لقد انكشف الجمال للانسان وتجلى ، وذاق البشر السرور واللذة ، وكأنهما لم يكونا من قبل ، أو كأنهما عادا من جديد ، بعد أن تعلم الانسان ، أن هذه الأمور ، من ألد أعداء المسيحية . وقد كانت المخطوطات التى وجدها ، والتماثيل والتحف التى عثر عليها ، مصدر الهام للانسان ، ومنبع وحى له ، فغمرته نشوة عجيبة انغمس فيها ، وسرت فى نفسه سكرة لطيفة . وفى غمار ذلك ، قدر الانسان الطبيعة ، وآمن بالبدن ، واعتبره دليلا على قوة الروح ، لا عدوا لها أو منافسا .

وهنا نصل الى العنصر الثانى من عناصر ( النهضة ) ، وهو التعبير .  
 والتعبير يلزم له ، أن يشعر الانسان بما يعبر عنه . والتعبير ، سواء  
 باللفظ والعبارة ، أو بالرسم والحجارة ، كان ساذجا فى العصور  
 الوسطى ، وكان وصفيا رمزيا ، يقيدده فى أغلب النواحي قيد العرف . ولكن  
 حين أصبح الانسان أكثر شعورا بذاته ، وأقوى اتصالا ووعيا للكون الذى  
 يعيش فيه ، أى حينما استيقظ الانسان على الشعور بالجمال ، واشتعل  
 اشغاله به وأضاء ، بحث عن التعبير فى قوالب الفكر ، أى اللغة .  
 لا اللاتينية ولا الاغريقية ، ولكن لغة الأرض التى يعيش عليها ولها ،  
 أى فى لغة بلاده ووطنه وقومه . وهذا لا يعنينا فى حد ذاته ،  
 وإنما يعنينا فحسب ، من حيث أن هذه اللغة ، قد أصبحت قالبا لصب  
 الشعور القومى فيه ، اذ بدأ الانسان يشعر هذا الشعور فى هذه الفترة  
 من التاريخ . ان ( النهضة ) ، لم يكن يقدر لها أن تكون بمعناها  
 الحقيقى ، دون قيام الحماس العقلى ، كوسيلة لنشر المعرفة . ويبدو  
 أن هذا الحماس ، هو الذى أوجد الطباعة وكشف عنها ، عندما أصبح  
 تيار هذا الحماس قويا جارفا ، وأراد أن يستقل بمجرى خاص به . ان  
 الطباعة أصبحت وسيلة من أهم وسائل الثقافة والتثقيف ، واخصاب  
 العقول واثرائها ، اذ جعلت الكتاب فى متناول أكبر عدد من الأفراد ،  
 وأطلقت الأبصار والأفكار من معاقلها ، وقضت بالآ تظل حبيسة تحتكرها  
 فئة قليلة وتتحكم فيها ، لأن الكتب أصبحت رخيصة جدا ، وذلك حينما  
 باعت ( مطبعة الدين ) Aldin Press فى فينسيا الكتاب بما  
 يساوى خمسة قروش ، أو دون ذلك ( ١٤٧٤ ) .

وهنا يتساءل المرء : هل الأفكار والرجال ، هم الذين يخلقون  
 الحركات ، أم الحركات هى التى تخلق الرجال ؟ اننى أميل الى الاجابة  
 التى تجمع بين شقى هذا التساؤل . فكل حركة لها محركون ودعاة .  
 وكل داعية يسير فى اثر داعية ، يؤثر فيه ويتأثر به ، حتى يقدر للأفراد  
 المفردة ، أن تتكتل فى جماعات صغيرة بادية الأمر ، ثم تتطور هذه  
 الجماعات الى حشود ، وما كان فرديا مفردا يصبح شاملا عاما . وحينئذ  
 يبدو لنا ، وكأن الحركات هى التى تلد الرجال . لأن مع حاجات  
 الجماعات ، يقفز من البشر أبطال يحملون المشاعل ، ويحققون هذه

الحاجات . وما أشبه الحال فى هذه الدائرة ، بالمغناطيس وبرادة الحديد . المغناطيس يـمـغـنـط كل حبة من حبات البرادة ، ثم تصبح كل حبة بدورها مغناطيسا قائما بذاته ، يؤثر فى غيره ويتأثر به .



وعلى كل حال ، فقد سرى تيار ( النهضة ) فى غرب أوروبا . ولكنه كان قد اندفع بقوة كبرى فى ايطاليا . وأصبحت هذه البلاد المعين الأول ، الذى ورد اليه الناهلون من هذا التيار . وفى كل قطر ، تشكلت النهضة بشكل خاص به ، يتلاءم مع خواصه العقلية ، وسماته الروحية والنفسية ، وظروف حياته ، وأحواله الاجتماعية . ان ( رابليه ) يحدثنا ، كيف أن الباحثين عن معبد ( باك بك ) Back Buck ، حينما عثروا عليه ، ووصلوا الى المذبح ودخلوه ، قدمت اليهم الكاهنة النبيذ ، فتناولوه شربا وغبا . وعلى الرغم من أن الشراب كان واحدا خالصا ، وله طعم واحد بطبيعته ، الا أن تذوقه تباين بتباين الشاربين واختلاف تذوقهم له ، فاختلف استمراؤهم لهذا النبيذ . وهذه الحالة نفسها تصدق كل الصدق ، على خمر ( النهضة ) ونبيذها .

ولقد اختلفت مذاقات ( النهضة ) فى ايطاليا نفسها ، تبعا للخصائص المميزة لروح كل مدينة . فكل مدينة كبيرة أو مقاطعة ، لونت ( النهضة ) وصبغت بالالوان التى تتفق مع روحها . وحسبنا اشارة موجزة ، الى الفن مثلا . فالفن الذى صدر عن كل مدينة من مدن ايطاليا البارزة ( روما ، ونابولى ، ومانتوا ، وأومبريا ، والبندقية ، وسينا ) اختلف ، على هذا الأساس ، عن فن كل مدينة سواها . الا أن روما كانت الجدول الذى تلاقت فيه وتجمعت هذه التيارات الفنية المتباينة ، فجمعتها ونقدتها ، دون أن تكون لروما منحة فنية طريفة خاصة بها . ولكى نوضح ذلك قليلا نقول : لأن كانت مانتوا Mantua وفرارا Ferrare تتبعان المذهب العقلى ، فان البندقية ونابولى كانتا وثنيتين يقدسان الطين . ولأن كانت سينا Sienna رمزية صوفية ، فان فلورنسا كانت موطن صراع عنيف بين الشك والايمان ، وبين الجمال

والموجب ، وبين العقل والنقل . فقد أقامت فلورنسا فنها المثالى ، بالتزاوج بين قداسة الجمال ، وجمال القداسة ، والوثنية والمسيحية . وقصارى القول ، عبادت فلورنسا فى محراب الفن ، وفى وقت واحد ، اله الروح السامى اللطيف ، واله البدن الفيزيقي الكثيف .

فلورنسا ! لقد كانت أولى المدن ، بعد أثينا ، فضلا على التراث الانسانى ، كما يقول ( رينان ) Renan . ففيها تسامت الطقوس الجمالية ، وازدهرت الآيات الفنية الفريدة ، التى حيرت العلماء . وذلك فى فترة كان مرجلها يغلى بحيوية فوارة ، جمعت بين ألوان الحياة المتناقضة ، التى أصبح المؤرخون يعرفونها بكلمة واحدة ، هى ( الغزارة ) . لقد أصابت فلورنسا حينذاك حمى هستيرية عجيبة ، جعلت عضلات أبنائها تنشط وتنفتل ، ونظراتهم تقوى ، وأرواحهم تدب فيها الحياة . وكانت تلك العضلات ، والنظرات ، والأرواح ، بمثابة عناصر لشخصية فلورنسا ، وعوامل تشكيل للامحها البارزة . ان فلورنسا ذات الاسم المزدهر ، ترقد وسط حوض نهر ( الأرنو ) الجميل ، وتحيط بها الحدائق ؛ وتطوقها التلال ، وتبدو من بعيد كالقلعة شاهرة السلاح ، وذلك بأبراجها التى تتوج قصورها . ان فلورنسا جمعت فى فنها المعمارى ، بين رقة ذات ذوق مرهف شفاف ، وبين قوة تصل الى حد الغرابة . وقد جمعت فى حياتها الاجتماعية ، بين البحث الجاف ، والعبث المائع . فكانت الحياة فيها فاخرة ، يتسامر القوم فيها بالشعر الرقيق ، والعشق الدافئ ، وباللغة الجميلة ، وفى نفس الوقت ، لابأس من دس السم ، والاعتيال والقتل ، كما لو كانوا حينذاك ، فى أظلم أيام العصور الوسطى .

ولم تكن فلورنسا مركز اشعاع فنى وعقلى فحسب ، بل كانت أيضا ميدانا للشحناء ، والبغضاء ، والتمزق والتفريق ، وذلك بين الأسر الكبيرة وعملائها . ولقد بلغت الفوضى السياسية ، أقصى ما بلغت اليه ، فى نهاية القرن الخامس عشر .

وحول فلورنسا ، نجد ايطاليا ، وقد بلغت من الانقسام مبلغا لم

تشهده من قبل ، وغدت مسرحا للأحداث المعقدة . ومما زادها تعقيدا ، نزول الجيوش الفرنسية فيها . فقد ملأ مسرح التاريخ الايطالى شتى الحكام المستبدين، أى الطغاة . ولم يكونوا سوى نتاج اجتماع العنف مع التجارة ، كما يقول ( فيشر ) \* . فالمدن الايطالية لم تكن تعرف سوى العنف والجموح . ولم تكن تتركب سوى متن الأثرة الفردية ، وأطماع التجارة ، ومطامع السياسة . فالحرب تشن لأتفه الأسباب ، والأحلاف تعقد حسبما يملئ شيطان المصلحة . وكانت السياسة لا يسيطر عليها سوى مبدأ التحول من الموقف الى ضده أو نقيضه ، حسب الظروف والأحوال . ومما كان يطعم الفساد فى ايطاليا ، ويجعله ينمو ويتزعرع ، ما كانت عليه الأحزاب السياسية من انحلال ، اذ كان ديدنها الفساد ، وناموسها الضلال ، وهما اثارة الفتن ، لتحرق ولا تنير ، متخذة من مصلحة الوطن والمواطنين خطبا ووقودا ، فى غير حياء أو خشية وطنية ، ودون اعتبار للمصالح العام، وبلا مراعاة لحرمة القوم أو الوطن . فما لبثت كل مدينة ، أو مقاطعة ، أن أهتز كيائها جزعا وحسرة ، ثم شوقا الى يد من حديد ، تكبح جماح الروح الحزبية ، وتصون سلامة الوطن ، وتحافظ على صناعيتها وتجارتها ، وتحيا مواتها .



أجل ، فلو بلورنا المعرفة فى هذه الفترة لكانت ( النهضة ) ، أى ( البعث الجديد ) . ولو بلورنا ( النهضة ) لكانت ايطاليا . ولو بلورنا ايطاليا لكانت فلورنسا . ولكن ماذا عساها أن تكون فلورنسا لو بلورناها بدورها ؟ لا ريب ، فى أن تصبح بلورة فلورنسا ، بروحها الذى يجمع بين الرقة والضراوة ، وبين اللطف والعنف ، سوى عبقرى جبار الرأى ، قاسى الفكر ، ثاقب النظر ، و ( شيطان ) يستمطر الأخلاقيون اللعنات على أم رأسه ، وقد جرد الأخلاق من سلطانها

---

\* هـ ١٠٠ ل . فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، الترجمة العربية ، للدكتور محمد مصطفى زيادة ، والاستاذ الباز العرينى ، والدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، ص ٤٢١ .

فى غاب السياسة ، بل جعل الاخلاق عبدة للدولة وأمة ( بفتح الالف والميم ) تاتمر بأوامرها ، مادام فى ذلك نفع للدولة أو مصلحة . فلا فلسفة للدولة سوى فلسفة واحدة ، هى ( حق الدولة ) ، علاجا وحيدا لا يطياليا ، لتدب فيها الحياة . وهذه الفلسفة انما هى الفلسفة الوحيدة الخصبة والثرية التى تحفظ بقاءها .

واذ بهذا الجبار يصرخ فى هذه الفترة ، بلغة القوة والعدد ، وينفخ فى نفير أجش كالبلوق ، وليس ناعماً كالنأى ، ويحذر من أن ( ما ينبغي أن يكون ) هراء ، وسياسة عرجاء ، وفكرة فجأة ، تفسد عقول الساسة والقادة ، ولا تدل هذه الفكرة ، أن دلت على شئ ، الا على فكر سياسى سقيم وعقيم ، ينتهى بصاحبه الى كهوف الأوهام الرطبة . اذ أن هذا الذى يجعل الدولة تقف على ساقيها ، فى معترك الصراع ، انما هو القوة والعدة ، من أجل ( الوصول ) و ( النصر ) ، و ( الحفاظ على البقاء ) ، حتى لا ترمى (بضم التاء وفتح الميم) فى أعماق الجب بين الرمم والعظام النخرة ، وقد فوتت على أنف الدولة السحري ، أن يستنشق عبير المنعة ، ونسيم القدرة ، وأريج الحرية ، لتسرى جميعها فى كيانها وبنيتها ، علاء ، وسيطرة ، وعظمة ، ومجدا . ان هذا ( الشيطان ) هو الذى بشر بشرعة ( الوسيلة ) من أجل ( الغاية ) ، وهذه الغاية واحدة وحيدة ، هى الدولة . والدولة نفسها ، لابد أن تؤمن بهذه الوسيلة وذلك الهدف ، حتى ولو وجدت الوسيلة الناجعة فى حلبة السياسة قذرة ، أو دنيئة ، أو منحطة ، أو مفترسة ضارية ، أو فتاكة وحشية ، فما عليها سوى أن تتشبث بها ، وقد استقينت بتبصر ، أنها تفتح أمامها طريقا فسيحا لمصلحة عليا ، أو مستقبل كبير زاهر مفيد ، وتضمن لوجودها مكانة قوية سامية رفيعة ، تبدو فيها معانى السبق السياسى الطليعى وحقائقه ، فى كل اتجاه ، من أجل صالحها وشعبها ، ليتحقق لها بالفعل الوجود القوى ، فى أروع الصور وألزمها ، والقدرة الحاسمة فى مواجهة العقبات والمكاره ، فى صبر ومثابرة ، وصرامة وجدية ، حتى النصر ، تحت لواء الحكمة ، وحسن التبصر ، وتقليب الأمور دائما ، غير خجلة من وسيلة أو أخرى ، تحقق لها أهدافها ، وخاصة أن الخجل أو الحياء ، كثيرا مالا يشفى الدولة من داء ، أو يضمن لها حياة أو بقاء .



## الفصل الثالث

### الشيطان وتعاليم الشيطان



ولم يكن هذا (الشیطان) سوى نموذج من النماذج الفكرية النادرة والخبيرة ، التي فصلت الأخلاق عن السياسة ، بعدما خبرت السياسة ، ولفحت وجهه بلهيبها ، وهو يعمل حول بوتقها . فعرف كيف تحرق ، وكيف تذروا الرماد ، وكيف تأكل حتى نفسها ، وكيف تتخلص من أعدائها ، وكيف تنشر نورها . وهذا الشيطان ، قد امتزجت روحه بالسياسة وانصبغت بها منذ وقت مبكر ، فدرس مظاهرها ، وعرف باطنها ، وجرب حيلها وألاعيبها ، وعين كمائنها وخنادقها ، حتى أصبحت السياسة بالنسبة له كوطن يعيش فيه ، وشاعت روحها في روحه ، وتشبع هو بقواها ، في مدها وجزرها ، فانعكس على مرآة نفسه بجلاء ، صراع القادة ، وصراع الحكام ، وصراع الأحزاب ، وصراع الدول ، فاهتز قلبه في كل حين أسفا وحزنا ، لمنظر وطنه ايطاليا ، وهي « بلا نظام »\* .

ان هذا الشيطان هو ( نيقولا ماكيافللى ) . ولد عام ١٤٦٩ ، في الفترة التي يسميها مؤرخ كبير انجليزى ، هو ( ج . أ . سيموندرز ) J.A. Symonds ، « عصر الطغاة » . واذا علمنا أن أباه كان محاميا ،

---

\* محمد مختار الزقزوقي : نيقولا ماكيافللى ، القسم الثالث ، ( نص كتاب الامير ) ، الباب السادس والعشرون

## - ٤٦ -

مكننا أن نرجع الى عامل الوراثة ، ركننا هاما من مذهبه ، وهو السعى وراء ( النصر ) وتحقيق ( الغاية ) بشتى السبل ، والالاحاح من أجل ( الوصول ) الى المبتغى من الغايات . ونحن نعمل فى ذلك على ( فردريك نيتشه ) فى القرن التاسع عشر ، وهو يصور لنا الطابع العام الذى يرثه العلماء عن آبائهم ، خصوصا اذا كان الآباء أصحاب مهنة . يقول نيتشه : « يكاد أن يكون فى مقدور المرء أن يدرك من وراء » « الطابع العقلى العام لعالم من العلماء ، ولكل عالم طابع وميل عقلى ، » « كل التاريخ السابق على وجود هذا العالم - تاريخ أسرته ، وما » « عملت به من مهن وحرف . فولد المحامى سيكون بالضرورة محاميا ، » « حتى فى بحوثه العلمية ، اذ أن غرضه الاول ، هو أن يجعل رأيه » « ونظريته ينتصران » . ونحن نضيف الى هذا الرأى ، عاملا آخر طبع تفكيره . فماكيافلى ، الذى كثيرا ما عرف مسارح السياسة وكواليسها ( دون ديكور أو مكياج ) ، وكشفت عيناه ( الواقع بكله وكييله ) ، لم يكن يغمض عينيه خوفا وقشعريرة ، فيغيب عنه ( الواقع ) ، فلا يبصره بدقة ووضوح . ومن ثم كان يسمى الأمور بمسمياتها الحقيقية الدقيقة ، دون أن يضيف عليها ما يشوب حقيقتها ، حتى ولو كانت هذه المسميات قاسية . انه ( الواقع ) الذى كان يبيغيه دائما ، ولا شئ غيره ، فى ميدان السياسة ، سواء فى ( غابة الأسد ) الوحش المفترس ، أو فى ( مغارة الثعلب ) الحيوان الماكر المراوغ . ولا مرأى فى أن من يقربون هذه ( الغابة ) أو ( تلك المغارة ) ، هم فحسب أصحاب الجرأة ، وأهل الذكاء ، لا أهل السذاجة أو الغفلة . فالغابة والمغارة لا يعرف سكانها رحمة أو شفقة ، ولا الروح الرومانتيكية الحاملة . وليس فى التعامل معهما ، سوى صور شتى من تبصر ، وانقضاض ، ومخاطرة ، وانطلاق . وقبل المغامرة لدخولهما ، لابد من أن نحسب لكل أمر حسابه ، وأن نضع لذلك خطة ماهرة حاذقة ، ذات المعية هادئة ثاقبة ، وحجر الزاوية فى كل هذا وذاك ، هو ( العقل العملى ) .

تلقت ماكيافلى حوله ، ووجد ايطاليا منقسمة الى خمس امارات ، وألفاها ميدانا للصراع بين فرنسا واسبانيا ، والامبراطور ( ماكسمليان ) le royaume des Deux Sisiles ، ومملكة الصقليتين الكبيرة

- ٤٧ -

تحت نفوذ أسرة حاكمة أجنبية ، و ( سفورزا ) الذى استدعى الفرنسيين لدخول ايطاليا ، وايطالى آخر من آل ( مديشى ) Medici ، بلغ به الانحطاط والدناءة الى حد تسليمه حصونه واستحكاماته لهؤلاء الأجانب ، ولكن غلورنسا قامت بانقلاب وطهرته . ولقد قدر لهذه الامارات أن تفزع وتطرد الفرنسيين ، وتم ذلك بمساعدة الأسبان وجنود الامبراطور . لقد كان الوطن الايطالى فريسة بالفعل لظروف قاسية ، وانحلال واضمحلال ، وشرائع قومية فاسدة ، وقيم وطنية هزيلة ، وشيع غير بناءة ، أما وجه ايطاليا فكان شاحبا باهتا . اذن ، لابد من تطهير الحرم القومى من هذه النجاسة والخبث ، ولابد من اعلان رسالة قومية جديدة ، ولابد من أن تصنع من هذه الحبات المفككة حجرا صلبا أقوى من الصوان ، ولابد من تحطيم أصنام عديدة ، ولابد من اقامة عهد ونظام جديدين ، يطهران نفوس أبناء ايطاليا مما أصيبت به من آفات وأوهام ! ولكن ما كيافللى ، وهو يحيا هذه الظروف ، لم تدعه هذه الظروف أن يفكر ، شاء أم أبى ، الا تفكيرا قوميا خالصا . وبالفعل فان تفكيره هو الذى أتى بهذا الشعار ، وهو « ايطاليا تعمل من نفسها » "Italia fara de sa" ، وكان ذلك فيما بعد فى القرن التاسع عشر ، حيث رفع زعماء ( حركة البعث الايطالى ) هذا الشعار .

والواقع ، لم يكن علاج لذلك سوى عقيدة ( تأمر ) ان توحد جميع أبواب ايطاليا فى وجهه كل من لا يكون ايطاليا ، ولا تجيز أو تسمح بأى حال ، بأن يحيا تحت سمائها من لم يرضع لبن « الذئبة » \* . ونفس هذه العقيدة ، لابد أن تخلق من العصى المتفرقة

---

(\*) اشارة الى ( رومولوس ) . وهو فى الاساطير القديمة ، مؤسس روما . وهو ابن ( مارس ) من بنت ( نوميتور ) ابن آخر ملوك ( البالونجا ) . وحين ولدت التوائم ( رومولوس ) و ( ريموس ) أمر ( اميليرس ) أخو ( نوميتور ) الأم بالقتل تقذف بالتوائم فى اليم . وحين حملهما التيار أرضعتهما ( ذئبة ) . ولما كبرا قتلا ( اميليرس ) الغاصب ، وأعادا ( نوميتور ) الى وضعه السابق ، ثم أخذ هذا فى تأسيس مدينة ( روما ) على تل ( بلاتين ) . أما ( رومولوس ) ، فقد صعد الى السماء ، فى عربة ( مارس ) ، واتخذة الرومان الها يعبدونه باسم ( كيرينوس ) .

- ٤٨ -

حزمة قوية واحدة ، لها قائد واحد قوى ذكى وزكى ، عالم بشتى الدروب ، لكى يدل ايطاليا ويرشدها ، الى الوحدة ، والقوة ، والحرية .

★ ★ ★

وأخيرا وقع اختيار ولاية الأمور فى ( الجمهورية ) على ماكيافللى ، لكى يحيا حياة تهتز بالحركة ، وتزخر بالنشاط ، فى بقاع منطقتها الحذر والحساب ، وتقدير الأمور بعد تقليبيها ، مع قوة الملاحظة . وأنه لاختيار موفق . فماكيافللى يستطيع بفطرته واكتسابه ، أن يحيا هذه الحياة . فهو صاحب دبلوماسية دقيقة ورقيقة ، لا تعرف اللحم ولا الوسن . وهو صاحب خبرة يقظة ، ويطيب له أن يهل الرموز والمعميات . وهو صاحب حاسة دقيقة جدا ، وأذنين مرهفتين تلتقط كل خبر . وهو صاحب عينين لا تنزوى عنهما ملاحظة كل أمر . هذا وماكيافللى يجيد الغوص والتسرب الى عمق الضمير والنفس ، ليكشف أسرار الرؤساء والشعوب . ونحن هنا نواجهه ماكيافللى ( الدبلوماسى ) ، الذى أوفد فى مختلف البقاع فى سفارات عديدة . وكان من بينها سفارة عام ١٥٠٢ . والى أين ؟ الى ( رومانا ) Romagna حيث شبكة السياسة الدقيقة ، وغلالتها المحبوكية ، مدا وجزرا ، وهدى وضللا ، وتقلبها فى أطوار متغيرة ، ونزعات متنافرة ، ودسائس مظفرة ، وحبائل مدبرة . انها ( رومانا ) ، حيث وجد ماكيافللى فكرته عن القائد المأمول فى صورة انسان ، فآثار ذلك عاطفة هذا ( السفير الفلورنسى ) ، والهب احساسه بهذا القائد ، بل وشعر بأن هذا القائد قد اغتصب اغتصابا اعجابه هو . انها ( رومانا ) عرين ( قيصر بورجيا ) César Borgia المروع . . !

ان قيصر هذا هو « ثور الحلبة السياسية » . وهو الذى صرع عددا لا بأس به من الطغاة الصغار ، فى بعض المناطق . وهو الذى كان يطلق العنان لفتاكته الضارية ليسوى القلاقل ، ويقضى على الفتن والدسائس ، ليستتب النظام والاستقرار ، فى ممتلكات الكنيسة ، ولحساب والده ( البابا اسكندر ) . ان الكتاب قد رسموا صورة ( قيصر بورجيا ) بأحلك

## - ٤٩ -

الألوان وأقمتها ، وأقساها وأبشعها ، ونسوا أن روح هذا القيصر ، انما نبتت من ينبوع عصره . ولم يكن فى هذا نغمة نشاز ، بقدر ما كانت صورة عبقريته التى صوروها ( وحشا ) فاق شتى الوحوش ، وشيطانا أكبر من مختلف الشياطين ، على الرغم من مظهره الجميل ، والناعم كالزند ، الا أن النار كامنة فيه ، وشعلات الزند لا تنطلق الا وقت الضرورة ، وحين يلزم الأمر .

كان قيصر بورجيا ( ولد ملك ) ، بكل ما يعنيه ( جوبينو ) Gobineau من هذه العبارة . فقيصر لم يدع أبدا فى الظل شيئا كان يمكن أن يدفعه لأعلى سلم العظمة . وهو لم يكن وليد فطرة فحسب ، أو نتاج اكتساب ودربة وكفى ، أو صورة لعصره ليس الا ، بل كان جماع هذه العوامل التى تفاعلت واتفقت ، لكى تصب شخصيته القوية ، فى نموذج وحيد قوى ، يخصه هو دون غيره ، لأنها كانت شخصية ( فرد بمفرده ) ، بكل ما تعنيه هذه العبارة . فبين ( قيصر ) وغيره حدود ، ولكنها حدود غير مشتركة ، لأن البشر جميعه ، لم يظهر منه من قبل ، أو فى حينه ( قيصر بورجيا ) ، وان كانوا جميعا ، لا يولد الواحد منهم ( ابنا لملك ) !



ولقد لاحظت فلورنسا ( قيصر ) يعلو ويعلو ، بينما عينها ترنو اليه وتراقبه . والانسان حين يرتفع بمفرده ، ويظل يرتفع ، لابد أن نجده فى لحظة ما عاليا فريدا بمفرده ، وحيدا فى قدرته . وهذا بلاشك ، يقلق خصوم ( قيصر ) ومنافسيه . ولذلك سرعان ما أرسلت فلورنسا ماكيافللى بالذات ، سفيرا لها لدى قيصر ، بينما هى تعلم ، أن قيصر يحترق الديمقراطية ، ويزدرى ( رجال المصارف ) ، و ( تجار الصوف والحرير ) ، وقد أصبحوا سادة وحكاما وقادة فى فلورنسا !

« نيقولا ماكيافللى ، سنوفدك الى فخامة ( دوق فالنتينوا ) »  
 « Duc Valantinois » ، مع وثائق الاعتماد ، وستسرع ما أمكن الى  
 هناك ! » وسرعان ما أخذ ماكيافللى يعد نفسه لمقابلة ( قيصر بورجيا ) .

ويالها من مهمة شاقة ، وعسيرة ، وشائكة ! ماكيافللى يناور ويحاوّر ( ثور حلبة الصراع السياسى ) ويفاوضه ! ويفاوض ( قيصر بورجيا ) مفاوضات ناجحة ، ولمصلحة فلورنسا ! قيصر الذى ينشأ مخابله وأنيابه فى مصر ايطاليا ! ولماكيافللى أن يختار من أساليب المبادأة ما يراه مناسبا !

وركب ماكيافللى حضانه ، وأسرع الى ( أوربينو ) Urbino حيث بلاط قيصر ، بجوه من الصمت الثقيل، الذى يصيب النفس بالقلق. وقيصر معروف بالصمت ، على عكس أبيه ، الذى كان يتكلم كثيرا ، ولكنه لا يفعل شيئا مما يقول . وصمت قيصر يجعل النفس تهزول فى الحال الى طباق الشك ! وقيصر لا يقابل السفراء الا ليلا ، وقد صفت الكائنات فى الصمت ! ويعزو بعض معاصريه ذلك ، الى الحبوب الحمراء التى انتشرت بين ملامح وجهه . وبعض آخر يعزو هذا الأمر ، الى أن قيصر مولع بالاختفاء ، فهو لا يرغب الا فى أن ينقل أسرار من صدره ، ليخفيها فى أعماق جوف ، هو جوف الليل ، وليدسها فيه ، امعانا فى ألا يعرفها أحد ، مهما حاول أن يتفرس فى وجهه، ليحيط ولو بطرف مما يخفى من عواطفه ونواياه .

وأخيرا قابل ماكيافللى قيصر ، وخرج ليسجل ما دار بينهما ولخص انطباعاته فى عبارة موجزة هى : «قيصر فريد جدا ، وغامض » « جدا ! » . وقام ماكيافللى بتمثيل ( ملهاة ) مع قيصر ، كان لها اعتبارها . ( فالسفير الفلورنسى ) لم يستطع أن ينفذ أو يحيط بنوايا قيصر . وفى النهاية غادر ( أوربينو ) كما قدم اليها ، دون أن ينجح فى تحقيق أغراض أولى الأمر فى فلورنسا . وتكررت هذه السفارة ثلاث مرات . وفى المرة الثالثة ، أقام ماكيافللى لدى قيصر ثلاثة أشهر ، قابله فيها ما يزيد على العشرين مرة . ولكن الموقف السياسى كان قد تغير، وأصبح قيصر يشك حينذاك فى رجاله وقواده ، ويحتمل أن يتخلوا عنه ! إذن ، لابد من أن يعدل قيصر موقفه من فلورنسا ، حسب منطق السياسة . قال ماكيافللى : « ان الناجح من الأفراد ، من كان أسلوبه فى العمل »



« والتصرف ، يتفق مع روح العصر ومستلزماته . ومن يخيب ، هو »  
« بالمثل ، ذلك الذى يتصرف ، بطريقة تخالف هذه الروح ! » (١) .

وهكذا ، أصبح قيصر بطلا عند ماكيافللى . ولكن هذا البطل قائد لا ذمة له ، على الرغم من أنه قوى فى كل شىء - قوى فى شخصيته ، وقوى صلب فى آرائه ، وقوى فى دهائه ومكره ، وصبره لا ينفد . وكانت جميع هذه القدرات عنده بلا حدود ! ولقد أقشعر ماكيافللى من قوة إعجابه بقيصر . وأحس بينه وبين نفسه ، بأن رجلا من هذا الطراز يستطيع أن يخلص إيطاليا ! وقد كان لماكيافللى تقرير عنوانه : «وصف»  
« للطريقة التى استخدمها » الدوق فالنتين » ( قيصر بورجيا ) ، لقتل فيتيلوتسو فيتلى . الخ « (٢) ، وذهب النقد الى أن هذا التقرير ، ما هو الا هيكل مذهب ماكيافللى وفكره . وبالأحرى هو هيكل » كتاب الأمير « .

وفى عام ١٥٠٣ يلقى البابا ( اسكندر السادس ) ربه . ويوفد ماكيافللى الى ( المجمع الكنسى ) ، وينتخب ( الكاردينال دى لاروفير ) Cardinal de la Rovère باسم ( يوليوس الثانى ) Jules II . وكان ( قيصر بورجيا ) ، من سرير المرض ، قد أیده وباعه فى مقابل وعد من البابا بأن يبقيه فى أملاكه . ولكن البابا لم يف بوعده . فكان اندحار ( بطل ماكيافللى ) ! ولماذا ؟ لقد أخطأ هذا ( البطل ) فى هذا الشأن ، « اذ قد نسى أنه بالأمس ، أهان ( الكاردينال دى لاروفير ) . ومن هنا ، كان لابد أن يكون بعيد النظر ، فلا ينتخب هذا الكاردينال للبابوية ، حتى لا يسئ الى نفسه اساءة يلام ( قيصر ) عليها ، وحتى لا يكون فى ذلك قصير النظر ! والصحيح أن كان الواجب عليه وقتذاك ، الا ينتخب كاردينالا قد أساء اليه بالأمس ، وأن يحسب حسابا لما قد يقوم

---

(١) المصدر السابق ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) ، الباب الخامس

والعشرون

2. "Description de la façon employée par le Duc Valantinois (César Borgla) pour tuer Viteloza Vitelli ....etc."

به ( دى لا روفير ) لو تربع على كرسى البابوية ! «لأن الكراهية ، «  
« أو الخوف ، يدفعان الرجال الى الأذى » (١) ، «ومن يظن أن المنفعة»  
« الحديثة ، تمحو أثر الاساءة القديمة من نفوس العظماء ، يخطىء »  
« خطأ كبيرا » (٢) ولهذا أخطأ الدوق فى هذا الاختيار ، وكان هذا سبب  
« هلاكه فى النهاية » (٣) ، وهذا هو « اللوم الوحيد » (٤) الذى يوجه  
الى قيصر بورجيا !

أجل ، لقد كان أعجاب ماكيفاللى ( بقيصر بورجيا ) عنيفا . فقد  
استهواه منه القائد الرئيس ، الذى انقض كالغول على أعدائه يتخلص  
منهم ، ويقطع كل ما يصلهم بالحياة وانوجود . وهو الذى جعل الأمن  
يستتب فى ربوع بلد مزقت جسده ذئاب الأحزاب ، وهتكت عرضه ،  
ودنست أرضه ، واغتصبت حقوقه . ولقد انطبعت هذه المعانى فى  
نفس ماكيفاللى وتكاملت ، فى شكل صورة (البطل) الذى يلزم لاييطاليا،  
حتى يبتز ماضيها الفاسد من تاريخها، ويعوضها عما فاتها ، ويخلصها  
من الذلة والفوضى والفساد ، وقد أجاد هذا البطل فن الحرب والنصر  
والظفر ، وصنعة الارتقاء والوصول ، وحقق منطق تبرير ( الوسيلة )  
بالغاية ومذهب ( حق الدولة ) ، وقد أصبحت هذه جميعا عنده ، الخير  
السياسى الأسمى ولا سواه . وأخيرا صاغ ماكيفاللى هذه المعانى ، فى  
فى شكل كتيب ، يكون فى متناول من يأنس فى نفسه رئاسة الدولة ،  
أو بالأحرى فى متناول منشاء نظام جديد ، ليرجع اليه ويطلع على روح  
السياسة ومادتها ، وأساليب الغلبة فى حلبتها ، ووسائل فن الحكم  
والمحافظة عليه ، وأساليب صيانة أمن الدولة وسلامتها، كما هى لغة العصر  
الحديث . وبين هذه الأساليب ، تحتل الحيلة والدهاء والمكر ، والقوة  
والضراوة، مكانا بارزا . اذن لامناص هنا سوى الفصل بين الأخلاق والسياسة .

---

(١) محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيفاللى ، القسم الثالث ( نص كتاب

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر

ولا غاية من هذا الفصل بينهما ، سوى تخليص ايطاليا من البرابرة !  
ويطلعنا على ذلك ، الباب الأخير من هذا الكتيب ، وهو الباب السادس  
والعشرون ، وعنوانه : ( حض على تخليص ايطاليا من البرابرة ) \* .

أجل ، تخليص ايطاليا من البرابرة، ومن خبث (بفتح الخاء والباء)  
الأجانب ونجاستهم ، ومن الضعف والفساد والذل ، والتخلص من الجنود  
المأجورة ونفاقهم ، والتنسيق بين الشعب وقواته المسلحة !

ان الدفاع عن الوطن عرضا وأرضا ، لابد أن تتولاه عناصر الوطن  
الجوهرية الوحيدة ، أى أبناؤه . فهؤلاء هم الذين لا ينفصلون عنه ،  
الا اذا انفصل النبات عن التربة التى يزرع فيها . فالمكان الذى تزرع فيه  
الشجرة ملك لها بالضرورة ، وواجبها الأول هو الدفاع عنه دوما ، وليس  
مجرد دفاع عنه ضد غيرها فحسب ، بل وضد الكون جميعه ، لو هبت  
عليه عاصفة ، أو وقع عليه اعتداء ، اذن ، لابد من الاستئناء عن  
حزم الحطب اليابسة الجافة ، التى لا أثر فيها لعصارة حية استمدتها من  
تربة ايطاليا ، فليس لها البتة جذور عميقة فى أرضها ، ولا صلة لها  
أبدا بما ينبت فى تربتها . فلا جنود مرتزقة ، ولا عساكر مأجورة ،  
والدفاع مهمة أصحاب الأرض والعرض . ولا صلة بين الدين والسياسة !  
ولا علاقة بين السياسة والأخلاق ! ولا بأس من أن يكون الدين والأخلاق  
وسيلتين من وسائل السياسة ، ما حققا لها غاية أو مصلحة ! «وما أكثر»  
« ثناء الناس على الأمير حين يحفظ العهد ، ويحيا مستقيما أمينا ، »  
«بلاخداع أو خبث . ولكن التجربة فى أيامنا، تدل على أن أولئك الأمراء،»  
« الذين أتوا أعمالا عظيمة ، هم الذين لم يراعوا الوفاء الا قليلا ، »  
« وهم الذين استطاعوا أن يشوشوا العقول بالمكر، وهم من تمت لهم الغلبة»  
« على هؤلاء الذين أتخذوا الأمانة قاعدا لهم » \* . « ولذا يجب »  
« على الحاكم العاقل ، ألا يحفظ عهدا يكون الوفاء به ضد مصلحته ، »  
« وحين تنتهى الأسباب التى جعلته يرتبط به . ان هذا المبدأ قد يكون»

---

\* نفس المصدر ، القسم الثالث (نص كتاب الأمير ) ، الباب السادس والعشرون

« شرا ، لو كان جميع البشر خيرين ، ولكن لما كانوا جميعا أشرارا ،  
 « فلن يراعوا وفاءهم معك ، فأنت لذلك فى حل من أن تحفظ عهدك »  
 « معهم . ان الحاكم الذى رغب فى أن يظهر عذرا مموها لعدم وفائه »  
 « بوعده ، لم يخفق أبدا فى أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك . ( ١ ) »  
 « لأن الانسان اذا نظر نظرة صحيحة إلى الأمور ، فانه يجد أن بعضها ،  
 « الذى يبدو فضائل قد يرمينا فى التهلكة لو سرنا عليه ، وبعضها »  
 « الآخر الذى يبدو رذائل ، ينجم عنه سلامة للانسان أكبر وهناة »  
 « أعظم » ( ٢ ) . و « لذا يتحتم على الأمير ، الذى يبغى المحافظة على »  
 « نفسه ، أن يعرف كيف لا يكون خيرا ، وكيف يستخدم هذه المعرفة ، »  
 « وكيف لا يستخدمها تبعا للضرورة » ( ٣ ) . « ولذا من يترك ما يفعل »  
 « بالفعل ، الى ما ينبغى أن يفعل ، سوف يعلم ، أنه يسعى الى »  
 « هتفه دون بقائه . ان المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل شيء ، »  
 « سوف يحزن بين الاشرار ، وهم كثيرون جدا » ( ٤ ) .



وفى النهاية ، فاضت روح ماكيافلى ، واختفى جسده . ولكن  
 ترك ماكيافلى آثاره الفكرية . وأصبحت هذه الآثار موضوعات لدراسات  
 شتى ، دارت بين لوم وتجريح ، ثم اجلال وتقدير . ولاقت الكثير من  
 القسوة فى نقدها ، وانصبت اللعنات المحمومة كالقرب ( بكسر  
 القاف وفتح الراء ) على رأس صاحبها . فهو صاحب «كتاب الأمير» ، حيث  
 فصل بين الأخلاق والسياسة ، وبين السياسة والدين ! وكتابه هذا هو «الوصايا  
 العشرة مقلوبة» ( ٥ ) ، وهو «تعاليم الشيطان» ( ٦ ) . ونفس هذا الكتاب ،  
 جعل اسم صاحبه يدرج فى كل لغة للدلالة على «الشيطان» نفسه ، وأصبح

- 
- (١) نفس المصدر ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) ، الباب الثامن عشر  
 (٢) نفس المصدر ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) الباب الخامس عشر  
 (٣) نفس المصدر  
 (٤) نفس المصدر

5. The Ten Commandments Reversed  
 6. The Devil's Catechism

« الشيطان نفسه » هو « نيك العجوز » (\* Old Nick . ولم يكن سبب ذلك سوى أن « نيقولا » هو اسم « ماكيافللى » ! ولكن من حسن حظ ماكيافللى ، أن أصبح فكره من جديد ، موضوعا لمناقشات ودراسات وبحوث شتى عميقة ، خصصت وكرست له . ومن العجيب أنها انتهت جميعا برد الاعتبار اليه ، وخاصة فى العصر الحديث ، حيث ظهرت للدول أشكال جديدة فى القرن العشرين ، وأصبحنا فى حاجة ملحة تماما الى دراسة ( كتاب الأمير ) هذا ، للبحث عن حلول لبعض مشاكل العصر الرئيسية ، وخاصة الفصل بين الأخلاق والسياسة ، وحدود قوة الدولة ، وفن الحكم والسياسة ، واستراتيجا السيادة والسيطرة وأساليبها . فلنحاول الآن ، أن نعرض نقد كوكبة الناقدين لماكيافللى ، ومواقف غيرهم من جماعة الحكام والرؤساء والقادة منه . ويجب أن نلاحظ ، أن هذا العرض نفسه ، هو بيان فى نفس الوقت لمواقف جميع هؤلاء بدورهم من مشكلة الفصل بين الأخلاق والسياسة ، أو الصلة بينهما ، وهذا هو موضوع كتابنا .



ان المعاصرين لماكيافللى لم ينظروا اليه الا من خلال ( السفير الفلورنسى ) ، وهو يعمل فى ( الجمهورية ) حينذاك ، وقد أحب عمله ، وتفانى فى أدائه ، حتى أبرز ما كان يحزره من الحرص على ممارسة واجبه ابرازا دقيقا رقيقا ، لا تشويه شائبة ، من تقصير أو اهمال أو تسيب . فقد كان أولو الأمر فى فلورنسا يعتبرونه الموظف الصالح والمناسب فى موقعه ، والذي يمكنهم أن يثقلوا كاهله بالمهام الكبرى ، والتي فى مقدوره أن يقوم بها ويؤديها على خير الوجوه . فهو مفاوض ماهر ومناور حاذق ، وهو محدث خصب الفكر ، وهو كاتب لامع .

ولم يكن سوى القليل جدا من معاصريه ، هو الذى قرأ ( كتاب الأمير ) الذى لم ينشر الا بعد وفاته . ولكن سرعان ما أصبح اسم

---

\* نفس المصدر ، القسم الاول ( التقدمة ) ص ٦٥

ماكيافللى مضغة فى الأفواه ملبخة بالعار . وسر ذلك ، هو هذا الفصل الجريء بين الأخلاق والسياسة فى هذا الكتيب . فأجمع أهل فلورنسا فى منتصف القرن السادس عشر على أن ( كتاب الأمير ) كتاب بغيز مرذول ، يوحى بالاستبداد . وبالمثل وقف أهل روما من هذا الكتاب نفس الموقف . وجدير بالذكر ، أن البابا ( كليمنت السابع ) Clement VII ( ١٥٢٢ - ١٥٣٤ ) قد أجاز نشر الكتاب وسمح به . ولكن قسيسا انجليزيا ، هو الكاردينال بولوس Cardinal Polus كان أول رجل من رجال الكنيسة يحمل على الكتاب وصاحبه حملة شعواء ، ويفتح عليه نيرانه ، لأنه كتاب خطير . وكان ذلك فى مؤلف لهذا الكاردينال عن وحدة الكنيسة ، حيث عالج فيه ماكيافللى وتناول كما يتناول تماما الشيطان ذاته . وهنا استيقظت البابوية بثقلها فزعة مذعورة ، فأمر البابا ( بول الرابع ) بوضع كتب ماكيافللى فى ( القائمة السوداء ) ، وحرّم نشرها ، وصدق على هذا الأمر ( مجلس الثلاثين ) .

ولم يكن حظ ماكيافللى عند البروتستانت أسعد منه عند الكاثوليك . فالبروتستانت ، وقد رغبوا فى توجيه ضربة قاضية الى الكاثوليك ، استعانوا بفكر ماكيافللى نفسه ، من حيث غيروا بعض الأوضاع بعض التغيير . وكتب أحد أتباع مذهب ( كالفن ) فى لوزان ، وهو ( جانتليه ) Gentillet عام ١٥٧٦ ، مؤلفا فى ألف صفحة عنوانه « المقال فى طريقة الحكم الصالح .. ضد نيقولا ماكيافللى الفلورنسى » \* . وخطب فى كتابه هذا خطبا بين ماكيافللى و ( كاترين دى مديتشى ) Catherine de Medici ، وسانت بارتلمى Saint-Barthélemy ، وروما ، والبابوية ، والايطاليين عموما . ولقد ترجم هذا الكتاب الى عدة لغات ، ولاقى رواجاً عظيماً ، مما أضفى الشهرة بالشعر على ماكيافللى على نطاق واسع وبألوان قاتمة وحالكة . فهو « شيطان » « الأمراء الفاسقين » ، سواء كانوا من المسيحيين أو الأتراك . وهو « علة الشر فى أوروبا » . وهو « سر عدم وفاء البشر وخبتهم » .

---

\* Discours sur le moyen de bien gouverner, contre Nicolas Machiavel, Florentin

وحرق ( الجزويت ) صورة ماكيافللى فى ميدان ( أنجلوشتات ) فى بافاريا ، وعليها العبارة : « رجل مكر غدار ، وصاحب الأفكار الجهنمية الممتاز ، ونصير الشيطان » . وفى فرنسا ، أعلنوا عليه حربا صليبية شعواء ، ووجهوا اليه الطعنات الرسولية الحمقاء ، ووصفه ( بوسفان ) Possevin بقوله : « خلبوص فاجر ، يدس السم » . ومما يثير الدهشة ، أن عيني ( بوسفان ) لم تريا قط ، سطور هذا الكتاب !

وبينما كانت هذه الثورة الصاخبة المحرقة ، تندلع من باطن هؤلاء ، كان أصحاب السلطة ، وأهل النفوذ ، والقادة والرؤساء ، فى شتى بقاع الأرض ، هنا وهناك ، عاكفين باستمرار على أفكار ماكيافللى كطعام لهم ، وغذاء لنفوسهم ، وقد توفر كل منهم تماما على فهمها وهضمها ، وراء ستار الخلوة ، وتحت قباء العزلة ، كلما واتتهم الفرص والمناسبات ، وفى أوقات فراغهم ، ليجدوا عند ماكيافللى المخرج من الصعاب والمآزق السياسية ، التى كانت تعترض سبيلهم . وما أكثر هؤلاء ! ولكن نكتفى بأن نذكر منهم ، ( شارل الخامس ) ، و ( كاترين دى مديتشى ) ، و ( هنرى الثالث ) ، والبابا ( سكستس الخامس ) Sixte V . وهذا الأخير ، قد أمعن وأسرف فى ذلك ، فهو الذى غاص فى أعماق ( كتاب الأمير ) وبين شتى دقائقه ، وحتى ما بين سطوره ، وهو عطشان ملهوف يروى ظمأه منه ، وفى النهاية لخصه بنفسه !



والحقيقة ، أن ماكيافللى ، لا يزال حتى الآن يثير النفور والاشمئزاز والفرع . فهو الذى يصدق عليه قول ( نيتشه ) عن نفسه ، حين احس بأنه قد أصبح ( عارفا لذاته البشرية ، وجلادا للبشر ) . اذ هو ماكيافللى الذى قدر له أن ينفذ الى صميم هندسة الطبيعة البشرية وماداتها من طين وصلصال ودم لونه واحد فى كل مكان ، ويصل الى قوانين تشبه قوانين نيوتن ، نخضع لها جميعا نحن البشر ، وتسخرنا وتحكمنا . فالانسان الحيوان السياسى حيوان مفترس ، مصلحته سنام شيمه وخصاله ، ولا يتوانى فى الفرصة المواتية ، أو التى يجعلها هو مواتية على منجلة « طبيعته التى

لا تزال فجة غريرة » ، عن اقتناصها وحطفها بخفة ، ولا بأس فى ذلك من العنف والقوة ما أسعفاه ، ولا غبار أبدا على الحيلة والوسيلة ما أنصفاه ، ليحقق مصلحته ومبتغاه ! أما الأخلاق ، ساعتئذ ، انما يعتبرها بمثابة جناحى ( انكار ) المصقتين بالشمع ، والذى سرعان ما يذوب فى أشعة الشمس ، وهو يعلو ويقرب منها ، بينما هو يريد الهروب من حيث هو فى أخطود فى ( جزيرة كريت ) ! وسرعان ما ينفصل الجناحان ! ان اقتناص المصلحة عند ( الحيوان السياسى ) فى هذا الموقف عادة لا يركن الى الأخلاق ، وانما ينطلق على صاروخ المبادئ السياسية ، ومنها ( أفعل ثم برر ) ، واذا فعلت فانكر ) ، و ( أن تفرق لتسود أنت ) ، وغير ذلك الكثير !

ان ماكيافلى قد جرؤ بأمانة ووعى ، وعلم وخبرة ، على أن يقطف ويتناول ثمرة شجرة المعرفة فى السياسة وفن الحكم ، فأبصر بدقة عورة بنى جنسه ، ولم يخجل من تصويرها ، ثم قام بتحرير كتيب عنها . ولكن بنى جنسه ، على الرغم من تاريخهم الذى يعجزون عن اخفاء حقائقه ومساوئه ، حكموا عليه فى ثورة الغضب بالطرد والحرمان من فردوس رضاهم ، بينما عجزوا تماما ، وأولا وأخيرا ، عن تكذيبه بالتخلى عن طبيعتهم فى السياسة . والغريب أن بنى جنسه ، على الرغم من أن ماكيافلى شاهد عدل من بينهم على هذه الطبيعة ، وهو الخبير بها ، وهو الباحث والدارس للتاريخ على مستوى عال من الدقة ، لم يقفوا منه عند هذا الحد ، وانما أخذوا يتبارون فى شن الحملات الطاحنة عليه . وكان من أشرسها ، حملة رجال الكنيسة ، ولا أقول رجال الدين . والأكثر غرابة ، أنهم انطلقوا كالصواريخ قبل اختراع الصواريخ ، يسلبونه محاسن نفسه ، ويعيرونه مساوئ غيره ، وهى مساوئهم هم بالذات كساسة أولا وأخيرا !



وعلى كل حال ، فانه ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ظهرت جماعات المدافعين عن ماكيافلى ، الذين أخذوا يدافعون عن مبادئه ، والدراسات العلمية النزيهة ، على موائد البحث العلمى



الموضوعى البحث تحل محل اللعنات المشبوبة . فلنحاول أن نعرض هذا الأمر ، لنتبين فى يقين علمى ، كيف كان ذلك ، وكيف أفضى ذلك الى رد الاعتبار الى ماكيافللى ، والى ظهور ( الأنبياء غير العزل ) فى القرن العشرين ، ولنبدأ بحملة رجال الكنيسة .



وهنا نتساءل ، هل كانت هذه الحملة حملة دينية رسولية خالصة حقاً ، أم دفاعاً من رجال الكنيسة عن أنفسهم ؟ اذ كان البابا والكنيسة هما ظلاً ( بكسر الظاء وفتح اللام وتشديدها ) الله فى الأرض فى العصور الوسطى . أما الانسان عندهم فهو دودة صغيرة حقيرة ، وله بدن هو معقل لروحه . ودنيا الانسان لوعة ودمعة ، وحسرة وبكاء وشقاء ، وهى تبعد ما بين الانسان وربه . ومناهج الحياة بدورها ، طرق خطيرة واسعة تؤدى بالانسان الى الخطيئة . والدنيا ملهاة للبشر عن غايته الأولى فى الحياة وهى خلاص الروح ، وهذا هو هم الانسان الوحيد . والفنون شر ، والسرور كغاية فى الحياة كمين للروح ! وكان من أثر ذلك على السياسة ، أنه لم يعد لها واجب ، كما هو نظرية ( القديس توماس ) ، سوى كشف النظام الذى يحقق خلاص الروح !

وكان ماكيافللى قد رفض هذه النظرات وأخذ يحطمها ، وهو يعلن أن الانسان فى الأرض غاية ، وعلاقته بانداده من المواطنين من أهم الغايات . ولا بد لهذه الغاية ألا تكون بعيدة عنه بعد النجوم ، أو سرا غامضاً من عالم الأسرار . ولا بد من أن تكون الغاية هنا على قدر عزم الانسان . ولا بد من إثراء شخصية المواطن وحياته ، وليس افقارهما واجدابهما . ولا بد من تربية ملكات الانسان ، وليس اضعافها أو اعدامها . ولا بد من تطعيم الحياة بالنشاط والعمل ما أتيح لنا ذلك ، حتى تصبح الحياة فى جملتها مسرحية زاخرة بشتى القوى التى أودعها الله فى كيان الانسان ، الذى يسعى ويجتهد . اذ الانسان ليس له إلا ما سعى ، حتى لا يحيا هواناً ، وكأنه لم يحظ بصنعة الخالق القوى القادر الحكيم ، وهو الذى دفعه الى عالم بركته فى حركته ، وهى العالم ليبنى الناس من

فردوسه خير الثمار ، ومن بينها الذكر والامتياز ، والمجد والكمال . وهذه الثمار لا نراها عادة الا فى أعلى فروع شجرة الحياة ، ولا نقطفها الا حينما نكون عمالقة لا اقزاما ، وأقوياء لا ضعفاء . ولكن المسيحية كما سبق ماكيافللى ( نيتشه ) فى ذلك ، هى كما صورها دين الضعفاء العاجز عن أن يضمن للمراكز الموجهة ( بكسر الجيم المشددة ) انتصارا فى حرب أو معركة ، أو قضاء على فتنة أو مؤامرة . وهكذا صور ماكيافللى قبل نيتشه ، الفضائل المسيحية «بالألاعيب التى تجعل من الضعف فضيلة » .

اذن ، كان لابد من أن تقوم الكنيسة بهجوم ضد ماكيافللى وتصادر كتبه . اذ هو الذى بادر بتجريد الحملة على رجال الكنيسة ، وخاصة أنه هو الذى يحملهم مسؤولية ضعف ايطاليا ، فى أوقات كان فى مقدورهم توحيدها . ولكن الكنيسة ، على العكس ، كانت تتصدى لمن يحاول ذلك ، وكانت تتيح للأجانب أن ينتهكوا حرمة الأرض وقدااسة العرض . فتارة كان يدوس هذه الحرمة وتلك القداسة الفرنسيون ، وتارة كان يدوسها الأسبان ، وتارة نالته كان يدوسها الألمان . ومما يبكى الأحرار ، أن موقفها هذا كان يختفى وراءه باستمرار هدف للكنيسة وحيد ، وهو فى كل مرة مصلحتها الخاصة ! ولم يكن ماكيافللى ليطبق صبرا ، فسخر علانية وصاح مع كل وطنى فى ايطاليا وقال : « ندين اذن نحن الايطاليين ، » « الى كنيسة روما وقساوستها ، بما أصبحنا فيه من سوء وعدم التدين . » « ومع ذلك ، مازلنا ندين لها بدين أعظم ، سوف يكون علة دمارنا ، » « وهو أنها جعلت بلادنا ، ولا تزال ، منقسمة غير متحدة . ويستحيل » « يقينا على بلد أن يتحد ويكون سعيدا ، الا اذا دان بالولاء » « لحكومة واحدة ، سواء كانت جمهورية أو ملكية ، كما هو الحال فى » « فرنسا وأسبانيا . ان الكنيسة هى العلة الأولى ، دون سواها ، لحالة » « ايطاليا التى تختلف عن حالة فرنسا وأسبانيا فى ألا يحكمها رئيس » « جمهورية واحد ، أو ملك واحد . . . ولما لم تكن الكنيسة ، اذن ، » « على درجة من القوة لأن تكون قادرة على حكم جميع ايطاليا ، أو » « تسمح لأية قوة أخرى أن تقوم بذلك ، ظلت الكنيسة دوما السبب فى » « عدم تمكن ايطاليا من الاتحاد ، فى ظل حكومة واحدة ، وأن »

« تظل يحكمها عدد من الأمراء والحكام ، كانوا الأسباب العديدة »  
 « لانقسامها ، وهياؤها لها عوامل الضعف الشديد ، حتى غدت إيطاليا »  
 « فريسة ، لا للبرابرة الأقوياء فحسب ، بل وفريسة لكل من أراد أن »  
 « يعتدى عليها » (١) .

ومن العجيب، أن ماكيافلي، لم يكن يحتقر الدين، بل على العكس هو الذى قرر القوانين علجا لشئون البشر وصلاحهم، وبين بوضوح الا أثر للقوانين بدون دين، «لأن الدين الذى جاء به (نوما) Numa فى روما ، »  
 « كان أول العوامل لثراء تلك المدينة . لأن هذا الدين ، هو الذى أتى »  
 « بالقوانين الصالحة ، والقوانين الصالحة هى التى تجلب الحظ »  
 « السعيد ، والحظ السعيد هو علة النجاح فى جميع الأعمال » (٢) .  
 وأعجب من ذلك ، تلك العبارات الدينية الحارة ، التى جاءت ، حتى فى أكثر كتبه اثاره ، وهو ( كتاب الأمير ) . ومنها حديثه عن (موسى) «  
 وهو يتحدث عن أولئك الذى حكموا بفضل قدراتهم ، وليس بفضل الحظ» (٣)، اذ يقول : وينبغى علينا ، ألا نتخذ ( موسى ) كمقياس لغيره ، « لا لشيء سوى أنه رسول الله » ، « الذى حمل رسالة مولاه » ،  
 « وعمل بما أمره الله به » . ومع ذلك يظل (موسى) « جديرا بالاعجاب ، »  
 « ولو لسبب واحد ، هو أنه كان أهلا لأن يصطفيه الله ليكون »  
 « كلمه » (٤) . هذا وهو يعتبر الامارات الكنسية هى الامارات الوحيدة السعيدة الآمنة ، التى تعيش فى سلام وأمن ، والله قد شرفها بحفظه . وهو الذى امتنع عن الحديث عنها ، واعتبر رفعتها ترجع الى أسباب أعلى من مستوى العقل البشرى (٥) .

وفضلا عن ذلك ، فماكيافلي فى كتابه ( المطارحات . Discourses ، يخصص خمسة أبواب كاملة ومنتالية ، لبيان أهمية الدين

1. Machiavel : Discourses, XII
2. Ibid.

(٢) انظر معنى ( القدرة ) ومعنى ( الحظ ) عند ماكيافلي ، فى القسم الخامس من كتابنا عنه

- (٤) نفس المصدر ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) ، الباب السادس
- (٥) نفس المصدر ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) ، الباب الحادى عشر

القصوى في الدولة، وفائدته الكبيرة ، وجدواها الواسعة . وأول هذه الأبواب الباب الحادى عشر ، وعنوانه « فى دين الدولة » ، حيث يجعل تقوى الله دافعا قويا يدفع المواطنين الى خدمة الدولة ، فتأثيره أكبر بالفعل من تأثير الخوف من الحاكم . ويستشهد فى هذا الشأن بالرومان الذين كان المواطن عندهم يخشى عدم مراعاة الوفاء أكثر من خشية مخالفة القوانين . اذ كان الرومانى يخشى جبروت الله أكثر من خوفه من طائفة القانون . كما كان الرومان يستخدمون الدين فى قيادة الجيوش ، وتوحيد الشعب ، والحفاظ على قيادات الجيوش من الفساد لتظل صالحة . فهو القائل : « من الصعب تكوين الجيوش حيث ينعدم » «الدين، ومراعاته هى سر عظمة الجمهوريات، وإهماله هو علة دمارها» . ومن يريد الاستزادة فى هذا الموضوع، فعليه أن يرجع الى الأبواب ( ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ) من ( المطارحات ) لماكيافلى .

هذا ، ولا يفوتنا أن نشير الى أن ثمة شراحا لماكيافلى ، مثل (فليس الديريزيو) Felice Alderisio ، صوروا ماكيافلى مسيحيا ورعا تقيا ، اعتمادا منهم على خطاب لماكيافلى الى بعض أصدقائه ، يحضهم فيه على التقوى والورع ، ويعظمهم الموعظة الحسنة . وعلى كل حال ، فحجة هؤلاء لم تصل الى حد محو الانطباعات السيئة التى خلفها ( كتاب الأمير ) وما ترتب عليه .



ولم يكن للأخلاقيين أن يهناؤا بالا حين فصل ماكيافلى فصلا تاما بين الأخلاق والسياسة . وسرعان ما استشاطوا غضبا ، وحملوا عليه حملة أخرى . فلننظر فى دعواهم ضد ماكيافلى ، من خلال أحدث ما وصل اليه البحث العلمى الموضوعى فى طبيعة الدولة .

ان الدولة ، وبمعنى من المعانى ، هى « المجتمع نفسه ، باعتباره » « وحدة سياسية ، ادارية ، قانونية »\* . ولكى تقوم هذه الوحدة ، لابد

\*Duguit : Manuel de Droit Public, I, 190

من أن تتركز ( سيادة ) المواطنين وتتمركز فى تعاليم معينة . والدولة غالبا هى هذه التعاليم نفسها، فهى «المراكز الموجهة والواعية للجماعة» (١) . ولما كانت ( السيادة ) ، هى أولى خصائص هذه الجماعة ، فان طبيعة الدولة من طبيعة المجتمع . ولتفسير ذلك ، نجد أن الظواهر الاجتماعية ، لها خواص ( نوعية خاصة بها ) *sui generis* بالضرورة . وهذه الضرورة هى التى تجعلنا نتخيل أنه ليس من الممكن أن تحل « حياة الجماعة » فى مكان آخر غير شعور الفرد ، لأن المجتمع ليس مجرد « مجموع من الأفراد » ، مع أن وجودهم ضرورى لوجود المجتمع ، « والا بدت هذه » « الظواهر معلقة فى الهواء ، أو سابحة فى الفضاء » (٢) .

ولكى نقرب أكثر لتوضيح هذه الحقيقة نقول : ان الظواهر الاجتماعية هنا كالظواهر الطبيعية . « فاذا تفاعلت بعض العناصر فيما بينها ، فنشأ عن اتحادها بعض الظواهر الجديدة » « فيجب علينا أن نقول بأن هذه الظواهر الأخيرة ، لا توجد فى كل » « عنصر من تلك العناصر على حدة ، بل توجد فى الكل ، الذى نشأ بسبب » « اتحادها » فقط . اذ هى لا توجد فى العناصر التى هى بمثابة أجزاء لهذا الاتحاد . « وعلى ذلك ، لا توجد سيولة الماء أو خواصه ، غذائية » « كانت أو غير غذائية ، فى أى من الأكسجين أو الهيدروجين » « على حدة ، وانما توجد فى المادة التى تنشأ بسبب اتحاد هذين » « الغازين » (٣) . وبالمثل ، فان الجماعة تتكون من أفراد ، وليست مجرد رص الأفراد سويا فى مجموعة واحدة . ولكنها ( كائن جديد ) (من نوع جديد) ، يختلف عن الأفراد ، وعقليته تختلف أيضا عن عقلية الأفراد ، وبالتالي تكون قوانين الجماعة غير قوانين الأفراد .

ولما كانت الدولة ، كما سبق القول ، هى ( المجتمع نفسه ) .

#### 1. Ibid

(٢) اميل دوركايم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، الترجمة العربية ، للدكتور

محمود قاسم ، والدكتور السيد محمد بدوى ، ص ١٣

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤ ، ص ١٥

« باعتباره وحدة سياسية ، ادارية ، قانونية » ، وطبيعتها من طبيعة المجتمع ، وهى أعلى جماعة بشرية كما افترض الاغريق ، بل هى أكثر التعاليم الاجتماعية ضرورة لحماية البشر وسلامته ، فينبغى أن تظل على مستوى خاص بها ، أعلى من كل المستويات الأخرى ، وأن تظل هى والتزاماتها عالية علوا كبيرا فوق التزامات الأفراد . ومن ثم ، فلا مناص من أن يكون فن السياسة بطبيعته فنا قائما بذاته ، عاليا على كل فن سواه . ولا مفر أيضا من أن يكون الخير الأسمى فى السياسة ، غير الخير الأسمى فى الاخلاق ، لأن الاخلاق وجدت للأفراد ، وخير السياسة الأسمى ليس بخير فردى ، اذ هو سلامة الجماعة ككل لا يتجزأ ، وهذه السلامة ينبغى ألا تكون وسيلة لغايات أخرى سواها .

ان الاخلاق الفردية ، مع ضرورتها ولزومها للأفراد ، ليست حالها بالنسبة للفرد هى نفس الحال بالنسبة للدولة ، لأن للدولة ، كما سبق القول ، طبيعة تختلف عن طبيعة الفرد . ولذا كان للدولة منطق خاص ، وحقوق وواجبات خاصة . أليس من حق الدولة الاعدام والقصاص ؟ وهل الدولة تقوم باعدام القاتل بغير حق بقصد الانتقام ، أم المحافظة على سلامة الجماعة ؟ اذا كانت غاية الدولة هى الغرض الاول ، فان الدولة تدوس الاخلاق بغير وجه حق عامدة متعمدة ، ويكون هذا منها بمثابة فساد لا مبرر له . أما اذا كانت الغاية هى الغرض الثانى ، فان هذا من حق الدولة ، على أساس أن «حياة الجماعة» خير وأبقى من حياة الفرد ، ولا بأس من تجريده من حياته ، مادام حقه هذا قد أصبح يتعارض مع « حق الجماعة » فى الحياة . اذن هذه الجماعة ، لا ينبغى للأخلاقيين أن يطالبوا بأن تقف على المستوى نفسه الذى يقف عليه الفرد . فمن حق الدولة فحسب ، أن تأتى أعمالا محظورة على الفرد ، باعتباره فردا عاديا ، لأن الغاية هنا ، وكما قلنا ، هى ( سلامة الجماعة ) ، ومنطقها « الفرد للمجموع » . وهل يمكن أن ننكر ، أو نتناسى ، أن خيانة فرد عادى لآخر ، ماهى الا مجرد خيانة فردية عادية ، أما خيانة فرد للدولة فهى (خيانة عظمى) ، وجزاؤها الاعدام ، بالصورة التى تقررها بالفعل شتى الدول ؟

وطالما صحت هذه الأسانيد ، التى سقناها من تونا ، فلا مبرر لدعوى الأخلاقيين فى حملتهم على ماكيافلى ، اذ هذه الأسانيد هى بوضوح الدعامات نفسها التى وضعها ماكيافلى وأرسى عليها مذهبه ، من حيث الفصل بين الأخلاق والسياسة بجرأة ، بيد أنه أراد أن يجيء هذا الفصل بناء هادفا . فهو لم يذهب الى أبعد من أن تحرص الدولة على الالتزام الجازم والحاسم ، بالألا تنقيد فى حراسة نفسها وأمنها وسلامتها ، وحراسة المصلحة العامة لها ، وتأمين جميع هذه الضروريات ، بأية أخلاق فردية لزيد أو عمرو من الناس ، لأن حقوق الدولة وواجباتها فى هذا السبيل ، لا تدخل فى دائرة هذه الأخلاق ، وعلى حد تعبير نيتشه ، فهى حقوق وواجبات ليست لها طبيعة الخير ، ولا طبيعة الشر ، ولا تنتسب لأى منهما .

حقا ، اننا جميعا نعجز عن أن ننكر أن سلطان الضمير أجدى على الناس من أى سلطان لقانون ، وأن الأخلاق هى القانون الأكبر . ومع ذلك فلا نستطيع ، ولا يستطيع أخلاقى حكيم ، أوتى خير الحكمة الكبير والنبيل ، أن يرفض من مركز حكمته ، اعفاء الدولة من قواعد الأخلاق الفردية ، كما سبق أن بينا . ولا جدال بتاتا فى أن الدولة التى تربط بين أبنائها بروابط الأخلاق ، من واجب وفضيلة ، وشرف وعدالة ، وصدق ووفاء ، وأمانة ونبالة ورحمة ، وتضامن وتكافل ، وحس وتضحية ، وتوفيق فى أن تتخلل بالفعل هذه المعانى السامية والفضائل العالية شعاب قلوب أبنائها ، وأن تسرى هذه الفضائل فى هذه القلوب مرسى الدم فى الانسان - هذه الدولة انما هى التى تبنى وتشيد ، وتصعد وتمجد ، ويرجى من أبنائها الخير كل الخير ، سواء لهم هم بالذات كإفراد ، أو لهم كأمة ، أو لهم كدولة ، ولن تدمى أية أشواك لأبنائها هؤلاء يوما ما أبدان بعضهم بعضا . فلا يكون شأنهم هنا شأن القنافذ حين يلتصق بعضها ببعض فتدمى أبدان بعضهم بعضا . ويلاحظ أنه بغير هذا الرباط الخلقى المتين تتحول الدولة الى مجرد (ديدبان) أو (جلاد) ، يساق سوقا وكرها ، الى منطق استخدام القوة باسم الضرورة ، حتى تقطع الدولة السبيل على من تسول له نفسه المناوأة . الكذب شر ورذيلة ، ولكن هل يظل كذلك ، حين تضطر الدولة اليه ، ممثلة فى رئيسها ، لكى ينقذ

أُمته بأسرها ، ويحافظ على سلامتها ، وهذه السلامة هى واجبه الأول والآخر ؟ وعدم الوفاء بالوعد شر ، ولكن ، هل يظل ذلك كذلك ، حين تضطر اليه الدولة ، وتلغى مثلا اتفاقا لم يعد تنفيذه يفي بمصلحتها ؟

ان ( الماكيافللية ) ليست ( غاية ) ، وانما هى ( منهج ) . وعندما قال ماكيافللى ، بأن ( الغاية تبرر الوسيلة ) ، لم يكن يدعو الى ان تستخدم ( الوسيلة ) استخدامنا للقمة الخبز وشربة الماء فى حياتنا الفردية اليومية ، اذ هو لم يكن يقصد البتة سوى « حق الدولة » ، وهى فى حومة السياسة ، أو بالأحرى فى غاب السياسة . لأن الدولة لابد لها عملا بأحكام الضرورة ، شاعت أم أبت ، أن تعرف جيدا ، كيف تسلك كحيوان الغابة أحيانا ، اذ « على الحاكم أن يحاكي الثعلب ويقلد » « الأسد ، لأن الأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ ، والثعلب » « لا يقدر على أن يدافع عن نفسه ضد الذئاب » . لذلك يجب على الدولة أن تكون « ثعلبا لتعرف الفخاخ » ، وأن تكون « ليثا لتخيف الذئاب » (١) . ان الحكماء القدامى ، كانوا يوحون بذلك دائما لرئيس الدولة ليرسل أولاده أولا الى ( كيرون ) Chiron لتنشئتهم وتربيتهم بهذه الصورة . وهذا المعلم كان شبيها ( بابى الهول ) الرابض على سفح هضبة الأهرام عندنا ، وكان نصفه بشرى ونصفه الآخر حيوانى (٢) .

اذن ، ماكيافللى لم يكن يدعو الى التحلل من الأخلاق ، وخاصة أنه عاش حياته ، بين جدران داره ومنزله ، وبين زوجته وأولاده ، ملتزما بحدود الفضيلة والخلق الكريم . ولم يعرف عنه أن تخلى يوما عن مكارم الأخلاق ، على درب من دروب حياته . فقد أخلص ( الكاتب الفلورنسى ) فى القيام بالولاء لواجباته فى عمله العام ، وفى حياته الخاصة ، سواء بالنسبة للوفاء لزوجته ، أو للمبر الصادق والتربية الخفية لأولاده . وثمة وثائق عديدة تشهد بذلك ، وهى رسائله التى جمعها الدارسون ،

(١) محمد مختار الزقزوقى : نيقولا ماكيافللى ، القسم الثالث ( نعى كتاب

الامير ) ، الباب الثامن عشر

(٢) المصدر السابق



ووجدوها جميعا تنطق نطقا مبينا بقوة خلقه ، ورقة قلبه .  
وقد عرف بذلك أيضا بين أصدقائه ، فكان نعم الصديق الوفى المخلص ،  
بل وكان يسمو بصداقته الى علية الوفاء الروحى ، الذى لا يقوم  
ولا يقترب أبدا مما قد يشوب الصداقة ، حتى لو كان هذا مصلحة  
شخصية له .

وماذا يقول قائل لو عرف أيضا أنه أبى فى عزة وشموخ ،  
أن يبيع قلمه كما جور فى عصره ، على الرغم من  
رقة حاله وحاجته ؟ لقد رفض ذلك جميعه ، ولم يسلك سلوك معاصر  
من معاصريه ، هو ( بيير لاريتان ) Pierre L'Aritan ، صاحب  
السخافات المشهورة فى تلك الفترة التاريخية . ويلاحظ فيها ، أن  
الخلق الكريم حينذاك كان عملة نادرة ، لانتشار الفساد والافساد والرشوة ،  
على نطاق واسع بين العاملين فى الدولة . « لقد أشاع عنه أعداء له فى »  
« فلورنسا ، استعداداه لأن يرتشى من البابا الجديد (يوليوس الثانى) ، »  
« فى سفاراته الى روما ، بغية أن يخدم البابا لدى ( المجلس ) »  
« فى فلورنسا ، أكثر من خدمة ( المجلس ) لدى البابا » . ويقول  
( جاني ) ( ١ ) Janvi : « ان الاشاعة ضعيفة ، ومشكوك فى صحتها ، »  
« والشاهد على ذلك فقره وعوزة » .

وماذا نقول ، لو عرفنا أن ماكيافلى لم يكن يتملق ( الى  
مدينتى ) ، كما يبدو من ظاهر اهدائه ( كتاب الأمير ) الى  
( لورنتسو دى مدينتى ) . فواقع الأمر وحقيقته ، أن هذا الاهداء ،  
وكذلك اهداء كتابيه ( تاريخ فلورنسا ) ( ٢ ) ، و ( المقال فى اصلاح دولة  
فلورنسا ) ( ٣ ) اليهم ، كان تقليدا من تقاليد عصره المألوفة والمعروفة فى فلورنسا ،  
جاء فى صورة مرسية عادية . يقول ( جاني ) : « كان ينقص ماكيافلى »  
« استعداد حقيقى للنفاق . . . فهو الذى لم يكن من اليسير عليه ، أن »

- 
1. Ettore Janni : Machiavelli
  2. Storie Florntine
  3. Discours sur la reforme de l'Etat de Florence

« يمدح أصحاب السلطان : وهؤلاء لم يكونوا يلمسون فيه طبيعة العبيد . »  
 « والعبيد كثيرون فى قصور الملكية ، وحكومة الأقلية ، وفى »  
 « ديمقراطية الامس ، وفى ديمقراطية اليوم ، وفى ديمقراطية الغد » (١) .

بقى أن نقول : ان سائلا سأل ماكيافلى ذات يوم ، فى (محاورات  
 فن الحرب ) قائلا : ماهى الأمور القديمة ، التى ترغب دائما فى  
 تعظيمها ، واعلاء شأنها ؟ فأجاب : ( تكريم الفضيلة ، والمكافأة عليها ،  
 واحترام العادات العسكرية ، والنظام ، والتزام المواطنين بالتحاب فيما  
 بينهم ، دون أن نحتقر الفقر ) . فما معنى ذلك ؟ ألا يدل هذا  
 دلالة قاطعة ناصعة ، على أنه لم يكن يدعو الى الانحلال الاخلاقى ؟  
 ويجب أن نضيف الى ذلك قولاً له آخر فى ( المقال فى اصلاح دولة  
 فلورنسا ) هو : ( اننى أعتقد أن أعظم خير نستطيع القيام به ، )  
 ( وبنال رضا الله فى أعلى درجاته ، هو ما يقدمه الفرد لوطنه ) . وقد  
 ورد فى خطاب له فى ١٦ أبريل عام ١٥٢٧ ، أى فى مدى شهرين قبل  
 وفاته ، قوله : « اننى أحب السيد جويشاردينى (٢) ، ولكن حبى لروحى  
 دون حبى لبلادى » . وهذه الفقرة مقتبسة من خطاب لماكيافلى الى  
 فرنسيسكو فيتورى . ان ( الوطنى العظيم كما كان يلقبه ، ) ( بنتو  
 موسولينى ) الزعيم الايطالى ، عشق وطنه . ورغم ان العشق دوامة حب  
 قد تتلف النفس ، الا أننا نجد أن عشق وطنى لبلاده هو قمة من قمم  
 الايمان . اذن فقول ( حبى لروحى دون حبى لبلدى ) انما هو شهقة محب  
 يفنى ليبقى محبوبه . وهذا ما تسفر عنه قراءة الباب السادس والعشرين  
 من (كتاب الأمير) (٣) ، حيث الفصل التام بين الاخلاق والسياسة ، وحيث  
 تكاد تسمو معانى هذا الباب بكل نفس تعشق وطنها ، مع عاطفة ماكيافلى  
 وروحه ، وهو يصلى فى خشوع ودموع ، شاكيا باكيا ، يرجو من الله ،

#### 1. Ettori Janni : Machiavelli.

(٢) مؤرخ ايطالى وصديق لماكيافلى

(٣) محمد مختار الزقزوقى : ماكيافلى ، القسم الثالث ، ( نص كتاب الأمير ) ،

الباب السادس والعشرون

أن يخلص إيطاليا وهى «بلا رئيس ولا نظام ، مقهورة منتهية ، ممزقة كل «  
 « ممزق » ، ومغلوبة على أمرها » ، « تنتظر من يأسو جراحها ، «  
 « يضع حدا لاغتصاب لمبارديا ، والجشع والأسلاب فى مملكة نابولى «  
 « وتوسكانيا ، ويبرىء إيطاليا من تلك الجروح ، التى طال «  
 « تقيحها » . ولكن خاب أمل ماكيافللى فى حينه ولم يتحقق الا فى  
 القرن التاسع عشر ، على يد زعماء ( البعث الايطالى ) Resorgimento  
 وفى ذلك كان الفضل لماكيافللى أيضا .

وحين ننشد العدالة فى تقييم ماكيافللى ، من حيث الدور الذى قام  
 به فى جراءة هادفة ، واستدلال واسع النطاق فى مجرى التاريخ ، وفى  
 حومة السياسة ، لابد من ان نوجه اللوم الى ماكيافللى ، لاتخاذ ( قيصر  
 بورجيا ) بطلا لكتابه ( الأمير ) ، ورفع من شأنه واعلاء أساليبه . فالباب  
 السابع من ( كتاب الأمير ) ، يحوى نصوصا تجعلنا ندير وجوهنا  
 ونخفيها اشمئزا وخجلا ، ولا تعطينا البتة ولو فرصة نحيلة للدفاع  
 عنه ضد من قاموا بالحملات والمطاحنات ضده . ولكن لا تستقيم عدالتنا  
 فى الحكم ضده ، أو له ، الا بالربط بين جريمته هذه والدوافع اليها ،  
 وما أكثر الحالات التى تتحول فيها أحيانا الجريمة ذاتها الى بطولة ،  
 والرديلة الى فضيلة !

ان بطل ماكيافللى دوخ أعداءه بكل وسيلة حتى الجريمة ، وكان  
 لا يتوانى عن افتراس السلطان واغتصابه على متن ما استطاع من شرور  
 وآثام . ولكن ألا نستطيع ، على هذا الأساس ، أن نعذر ماكيافللى ؟ ان  
 بطل «السفير الفلورنسى» كان يرنو الى أحد أمرين ، فاما أن يحتل مكانة  
 ( القيصر ) ، أو يورى فى تراب قبر . وهو الذى داس على فكرة  
 الجنود المأجورة وسحقها بنعاله ، وياثر بتشكيل قواته المسلحة الوطنية .  
 وعندما أنيطت بماكيافللى مهام الدفاع عن حدود فلورنسا ، دبلوماسيا  
 وعسكريا ، قرر ماكيافللى هذه الفكرة نفسها لحراسة أرض إيطاليا وعرضها ،

---

\* محمد مختار الرقوى . ماكيافللى ، القسم الثالث ( نص كتاب الأمير ) ،  
 الباب السادس والعشرون

سنين عديدة دون الاعتماد على الجنود المرتزقة علة خرابها الوحيدة .  
فالجند المرتزقة « هم الذين ساقوا ايطاليا الى العبودية ، »  
وانزلوها الى الحضيض» (١) . بينما ( قيصر بورجيا ) « حين عول »  
« على نفسه ، واعتمد على قواته . . كانت شهرته فى ازدياد مستمر ، »  
« ولم تبلغ أبدا أعلى درجة لها ، الا حينما أصبح تماما سيد »  
« قواته » (٢) .



وهكذا كانت هذه الحملات أهم المطاحنات ضد ماكيافللى . ولكن  
الا يمكن أن نستطيع له عذرا ؟ ان حب الوطن حين يصبح عند أبنائه ثورة  
عشق أمر طبيعى، اذ أرواحهم يجب ألا يشغلها عنه خلد، وأن تثور لكرامته  
ثورة لاتعرف الحدود . وماذا كان فى وطنه ايطاليا حينذاك ؟ ايطاليا تدوس  
سيادتها وشرفها شتى النعال ، من فرنسية ، وسويسرية ، وأسبانية .  
ولكن ماكيافللى ( الوطنى العظيم ) و ( السفير الفلورنسى ) ، لم يطق  
صبرا ، وانقلب لهول المأساة المروعة فظا شرسا فى فكره، وكان عليه ، باسم  
الضرورة التى تملى على الانسان دون هوادة ألا يؤخر أحكامها فى التو  
واللحظة ، ألا يقف فقط عند هذا الحد، بل ويتجاوز ذلك الى أشد قسوة  
وشراسة ليبتز فوراً الرؤوس ، ويجز الرقاب، تلبيبة لأقسى الضرورات، وهى  
سيادة الوطن وسلامته ، فمن يلبي مجرد دعوة الى وليمة للذئاب ، لابد  
له من أن يصحب معه كلبه ، كما يقول المثل الألمانى ! ويجب أن يلاحظ،  
أن المفكر وليد عصره . والقرنان الخامس عشر والسادس عشر لم يكن  
يشتمز الناس فيهما فى ايطاليا من الضراوة كأسلوب فعال فى ميدان  
السياسة . لقد وصل هذا الأمر بالناس حينذاك ، الى أن الخيانة نفسها  
أصبحت سلاحا فى حلبة الحيوانات السياسية . اذن فقد كان طابع عصر  
ماكيافللى عدم الوفاء بالوعد . فملك فرنسا وقتذاك كان غدارا غير وفى  
و ( ليون العاشر ) Leon X كان خداعا غدارا ، يتحالف فى ١٧ يناير  
١٥١٩ مع ( شارل ) ملك أسبانيا ، وفى بحر ثلاثة أيام سوييا بيرم

(١) المصدر السابق ، القسم الثالث ( نص كتاب الامير ) ، الباب الثانى عشر .

(٢) المصدر السابق

معاهدة سرية مع ملك فرنسا ! وكان هذا هو الجو الذى عاش فيه  
ماكيافللى فى فلورنسا ، وهى حينذاك تؤمن بالخنجر مبضعا حاسما  
فى العمليات السياسية ، وبالسّم دواء ناجعا للتخلص من الخصوم !

وجدير بالذكر ، أن أحد شراح ( كتاب الأمير ) لماكيافللى حيث نجد  
أقوى آيات الفصل البين بين الأخلاق والسياسة يقول فى الموضوع :  
ان ماكيافللى ، حين كتب هذا الكتيب ، حض على تخليص  
ايطاليا من البرابرة ( الأجانب ) وتوحيدها ، لم تكن  
رسالته تربية حمل وديع ساذج ، يقدم نفسه لقمة سائغة للمسابع .  
وانما كان واجبه العظيم أقسى من ذلك وأعنف ، اذ هو اعداد « مخلص  
لايطاليا » اعدادا سياسيا بكل الامكانيات العملية ، حتى  
يستطيع أن يؤمن طريقه تماما فى غاب السياسة الكثيف ، غير هباب  
ولا وجل ، ويصيرا حريصا ، لكى لا يفاجأ لحظة حين يجد نفسه ،  
فيما هو أقل من غمضة العين وانتباهتها ، أسيرا فى شبكة ، أو فريسة  
لمخلب أو ناب . ان ماكيافللى قد فصل فصلا كاملا بين الأخلاق والسياسة ،  
على هدى نجم التاريخ البشرى كما سجله على نفسه بالذات الانسان ( الحيوان  
السياسى بطبعه ) ، ومن منطلق ظروف ايطاليا الملحة القاسية ، وبدءا من  
منطق الضرورة وتحكمه المستبد الطاغى ، وقانون الصراع السياسى الذى  
غايته النصر والغلبة فقط . وغير خاف أن وطيس الصراع كان حاميا حموا  
قاسيا . لقد قصد ماكيافللى ، ( أن يحذر عصره من أخطار الحكم الضعيف ) \* .  
فحكومة ضعيفة ، لا تحمى ايطاليا من شر المعتدين ، وشر الطامعين ،  
وشر المتآمرين ، وشر الخونة والمستغلين ، وتعجز عن تحقيق غاية  
السياسة ، وهى أولا وأخير سلامة الدولة ، واسعاد شعبها فى نهاية  
المطاف .

---

(\*) هارولد نيكولسون : الدبلوماسية ، الترجمة للعربية ، لمحمد مختار الزقزوقى



## الفصل الرابع

### من التشهير الى التقدير





فصل ماكيافللى بين الأخلاق والسياسة ، وهوجم على نحو ما بينا .  
ولكن نقده أخذ يتطور من اللعنات والمطاحنات الضارية ، الى الدراسات  
الموضوعية ، وأخيرا رد اليه اعتباره . ويمكن القول بأن هذا قد ظهر  
فى ( عصر التنوير ) Aufklärung فى القرن الثامن عشر ، عندما  
اشتد الحماس فى الايمان بالعقل ، والكفر بحق الملوك المقدس ، وتحرر  
الدول من هيمنة رجال الدين ، وليس الدين بالذات . وحينذاك أخذ  
ماكيافللى ينتقل من حضيض المنبوذين ، الى علياء العباقرة المفكرين ،  
وفى النهاية قدر حق قدره ، فتنقل رفاته الى ( كنيسة الصليب المقدس )  
Santa - Croche ( بانثيون فلورنسا ) ، وكتبه تظهر وتنتشر ، فى  
طباعات عديدة جديدة فى شتى عواصم أوروبا . فنجد  
فى فرنسا مثلا ، ( جيروديه ) Guiradet ينشر ترجمة كاملة لمؤلفات  
ماكيافللى عام ١٧٩٩ ، وفيها يفسح أشرف مكان ومكانة لوطنية ( ابن  
فلورنسا ) ليتبوأهما باستحقاق . ونجد ( جان جاك روسو )  
J.J. Rousseau يقلد ماكيافللى عقود الثناء . والغريب أن يكون الدافع  
( لروسو ) الى هذا هو ( كتاب الأمير ) بالذات ، اذ ان ( روسو )  
قد اعتبره خير العظات للأمم ، وانجيل أنصار النظام الجمهورى .

ولكن كانت هناك نعمة نشاز ضد ( الكاتب الفلورنسى ) ، ظاهرها  
الطعن فى ماكيافللى ، وباطنها اعلاء شأن ماكيافللى . فقد  
كتب العاهل البروسى العظيم ( فردريك الثانى ) كتابا ، ضد أستاذه

الروحي ماكيافلى ، عنوانه ( ضد ماكيافلى ) Anti - Machiavel ونشره هذا الحاكم الوراثى ، تحت اشراف ( فولتير ) • ولكن متى كتب هذا الكتاب ، ثم متى نشره ؟ لقد تمت الكتابة وهو ينتظر ارتقاء العرش ! ولكن حين ارتقى كرسى الحكم ، وترجع فيه تماما ، سرعان ما منع نشر هذا الكتاب ! وهكذا أثبت ( فردريك الثانى ) ، وهو المعروف بأنه كان ، وظل دائما ، أخلص تلاميذ ماكيافلى وأوفاهم لأستاذه ، حتى فاق ( ريشليو ) فى هذه التلمذة • و ( ريشليو ) هذا هو الذى هدم نفوذ البروتستانت فى بقية أنحاء أوروبا ، من أجل هدف واحد ولا سواه ، هو ( شرف فرنسا القومى ) ، أما المصالح الكاثوليكية فليس لها بتاتا أن تعلو أو تعدل مصالح وطنه ! وحتى يحبك فردريك ماكيافليته ويغطيها ويخفيها ، وحتى لا يسبقه أى نجيب من تلاميذ ماكيافلى فى هذا الشأن ويبزه ، وبينما هو ينتظر ارتقاء العرش كما سبق القول ، دأب على أن يصف أستاذه ماكيافلى فى كتابه ( ضد ماكيافلى ) تارة ( بالحقير اللئيم ) ، وتارة أخرى ( بالرجل غير الأمين ) • ويلاحظ أنه لم يصدر هذا الكتاب ، كنوع من التسلية وشغل وقت فراغ ، وانما كان يرنو الى كرسى الحكم وينتظره !

لقد كان ( فردريك ) هذا أكثر الحكام العظام ممارسة للمبادئ الماكيافلية • ونستشهد فى ذلك بمثال واحد من تاريخه العظيم • فهو الذى استولى على سيليزيا ، بالرغم من اعتراف أبيه بوراثته ( مارياتريزا ) • وتم استيلاؤه عليها وابتسامه ( ثعلب ماكيافلى ) تفتت على ثغره ، بعدما جعل من نفسه فى هذا الأمر ( أسد ماكيافلى ) ! وقال فى هذا الشأن مبررا هذا الاستيلاء : « ان المحلفين سوف يصلون الى أسباب عملى هذا ! » • فضلا عن ذلك ، فقد ظل بالفعل تلميذا مخلصا وفيا ذكيا لأستاذه ماكيافلى • وتظهرنا على ذلك أقواله فى مناسبات عديدة • ومنها قوله : الحرب والسلام هما مجرد وجهين متعاقبين للصراع البشرى الذى لا ينقطع • والدبلوماسية بدون جيوش موسيقى بغير آلات • وهذه الأقوال ، انما جاءت منه بوحي من ماكيافلى ، وانبتقت من فكره الذى كان يشرق وظل يشرق بهذا الوحي • وبذلك يكون

(فردريك) ، قد سبق (كلاوسفيتز) Clauswitz ، حين أعلن الأخير بعد ذلك ، أن السياسة هي مواصلة الحرب ، ولكن مع اختلاف الوسائل .

وكم يشهد سجل ( فردريك الأكبر ) ، بمواكبته دائما روحا. وعملا لمبادئ أستاذه ماكيافللي ، فوصل به الأمر الى حد أن جعل من نفسه خادم الدولة حين قال : « أنا أول خادم للدولة » . ولم تصدر منه هذه العبارة كمجرد تعبير عن واقع حكمه ، بل كحقيقة حكمه ، ومن ثم كان يعطى تعليماته المشددة للبروسيين قائلا : ( ينبغي لبروسيا ، ألا تضحي بفدية تفتديه بها من الأسر ، لو وقع أسيرا ! ) . وهكذا جعل من ( بروسيا ) دينا ، ومن أداء الواجب نحوها آيات ، ومن التضحيات في سبيلها صلوات ، ليستدر بذلك أمرا واحدا ووحيدا ، هو أن يكون موضع رضا بروسيا . وفي جميع هذه الأمور ، كان حريصا على أن تظل الهوية قائمة بين الأخلاق والسياسة ، حتى قال (فولتير) عنه في ذلك بلهجة ساخرة في مذكراته بينما هو يعتبر إياه أنجب تلاميذ ماكيافللي النجباء : « لو كان لماكيافللي تلميذ من بين الأمراء ، فلربما كانت أول وصية » يوصيه ماكيافللي بها هي أن يكتب كتابا ( ضد ماكيافللي ) ! » .

وفي فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ، وهو عصر الفومية الرومانتيكية ، نجد فلسفة ( هيجل ) تنحو وتذهب الى أن الدولة هي الآلة التي بها يحقق الله ارادته ( فوق التاريخ ، والآخرى خلال التاريخ ) . واتجهت هذه الفلسفة الى وضع القوى التي تشكل ( عالم الانسان ) فوق طاقة البشر . وأدى التفاعل بين هذه الفكرة التي تعتبر الدولة قسوة الية وسلطة عليا منظمة ، وبين فكرة الأمة باعتبارها هوية روحية واحدة ذات جذور عميقة في أعماق الشعب البعيدة ، أدى هذا التفاعل بينهما الى ظهور فكرة ( الدولة القومية ) . وسرعان ما اهتزت هذه الفترة بأفكار ماكيافللي القومية في ( كتاب الأمير ) ، الى حد أن ( القومية ) بتيارها الجارف ، استطاعت أن تجرد فكرة ( أسرة الشعوب ) من الوقوف على ساقيها . لقد تم لهذا القرن اكتشاف ( ماكيافللي القومى ) ، ( وماكيافللي المحرر ) ، ( وماكيافللي الديموقراطى ! ) .

وفى الفترة التى تلت ( حروب نابليون ) ، سلط رجال الفكر فى ألمانيا بحوثهم الطريفة والمكثفة التضخمة على ماكيافللى . وكانت النتيجة سيل ضخ من الدراسات أخذ يتدفق . ومن باكورة هذه الدراسات دراسة ( فيشته ) Fichte لماكيافللى ، كجزء من كتابه ( خطاب الى الشعب الألماني ) Address to the German Nation . ولكن يجب أن نلاحظ أن ( هيجل ) هو الذى كاد أن يصل بفلسفة ماكيافللى وأفكاره الى حد الموافقة الكاملة على ما انتهى اليه ( ابن فلورنسا ) . وانه ( هيجل ) هو الذى رد على سخط الأخلاقيين على ماكيافللى وغضبهم ، وعلى رفضهم الخصومة التى أبرزها بين الواقعى والمثالى ، كما سبق البيان . إذ ( هيجل ) هو الذى أنكر وجود هذه الخصومة ، وأنكر الفصل بين الأخلاق والسياسة . ولنا أن نتساءل : وكيف تم ذلك ؟ والجواب ، أن ( هيجل ) فى ( فلسفة القانون ) The Philosophy of Law ، ذهب الى أن ( الدولة ) ، هى الفكرة الأخلاقية الملموسة ، وهى غاية فى حد ذاتها . وليس للدولة من واجب أعلى من المحافظة على بقائها . لأن ( الواقعى ) هو ( الحقيقى ) وهو ( العقلى ) . و ( العقلى ) هو ( الحقيقى ) و ( الواقعى ) . وهنا نجد أنفسنا أمام ( نظرية (اسبينوزا) فى الحلول ) ، وقد كيفت تكييفاً سياسياً . قال ( هيجل ) : أن الدولة تركيب روحى ، وأعلى تجسيم للعقل . وتربط بين أجزائها غريزة النظام المتأصلة فيها . والدولة سيدة نفسها . وهى كذلك فى علاقاتها مع الدول الأخرى . وعلى ذلك فالقانون الدولى ، ليس بعقد حقيقى ، إذ لا دولة ملزمة بغير ذلك ، قانونياً أو أخلاقياً . ولا تحل الخلافات الخطيرة من غير حرب . فالحرب ليست شراً ، وليست خيراً ، ولكنها شئ طبيعى له فائدة ، إذ هى تمظهر طبيعى . والدولة حين تقرر الحرب ، يجب ألا تنظر بعين الاعتبار الا الى مصلحتها . وهكذا سار ( هيجل ) فى اثر ماكيافاللى وتابعه ، ودعا الى الدولة معبودا ، وجاء بشتى الطقوس لتمجيدها . ومما يزيد الصلة بين (ماكيافللى) (وهيجل) وضوحاً، قول (هيجل) : أن مجرى التاريخ ، ينحرف عن جادة الفضيلة والعدالة !

وكان (رانكه) Ranke بالمثل ، وهو من أساطين المؤرخين الكبار الألمان، ومن أبرز من اهتموا بماكيافللى وهو يبحث عن حل لمشكلة

المانيا الأولى والكبرى ، وهى الوحد القومية . ولقد اعتبر ( رانكه ) صاحب ( كتاب الأمير ) هو مؤسس المنهج التاريخى الحديث ، وهو الذى أرسى أيضا قواعد التحليل التاريخى الحديث . واعتبر ( رانكه ) ماكيافللى الشجاع الذى فسر تفسيراً صريحاً صحيحاً داء ايطاليا الذى كاد ان يفتك بها . وهو الذى قرر ببسالة ووضوح دون جبن أو حياء ، الدواء الفعال لما أصابها ، اذ هو ماكيافللى الذى كانت لديه « الشجاعة التى تصف السم دواء » . وقد أدخل ( رانكه ) ( وصفات ماكيافللى الخطيرة ) ، فى باب ( القتل من باب الرحمة ) ، أى الرحمة فى صورة قتل . ولم يفت هذا المؤرخ الألمانى الكبير أن يشهد بأن ماكيافللى قد افترى عليه كثيراً . ويرد ( رانكه ) ذلك ويرجعه الى أن من هاجموه لم يقرعوه . فماكيافللى عنده ( الكاتب العالى القدر ) ، ( ولم يكن شريراً باز معنى من المعانى ) .

ومن المواقف التى جاءت شبيهة بموقف ( هيجل ) من ماكيافللى ، موقف ( ترايتشكى ) Treitchke . ففى محاضراته التى ألهاها فى ( هيدلبرج ) Heidelberg ، وفى ( برلين ) ، وذلك فى القسم الخاص بالعلاقة بين الدولة والقانون الأخلاقى ، يسلم بأن ظهور المسيحية قد جلب معه مشكلة لم يكن للقدامى عهد بها . ثم يشهد ويعلن عن فضل ماكيافللى وقدرته حين جعل الدولة تنهض لتقف على ساقها ، وليس على سيقان غيرها ، ويخلصها من نير الكنيسة . فماكيافللى ، عند ( ترايتشكى ) ، هو الذى أعلن لأول مرة فى التاريخ بأن الدولة قوة . ولكن نراه يعيب على ماكيافللى ، أنه لم يبرهن على ضرورة أن يسوغ الحاكم حكمه عن طريق السعى من أجل مصلحة الحكوميين ، وذلك حين يتولى الحاكم السلطة ويقبض عليها . كما يعيب على ماكيافللى أيضا اعجابه الشديد ( بقيصر بورجيا ) .

قال ( ترايتشكى ) : « ان واجب محافظة الدولة على سلطانها واجب عظيم ، لا تقارن عظمته بأية عظمة أخرى . ولكن أغراض الدولة »  
« لابد أن تكون أخلاقية ، خشية أن تناقض الدولة طبيعتها . وكل »  
« حكم أخلاقى يصدره المؤرخ ، لابد أن يقوم على أساس افتراض أن »

« الدولة قوة ملزمة بالحفاظ على نفسها ، فى الداخل والخارج » . ان هدف (ترايتشكى) فى ذلك واضح تماما . ومع ذلك ، فثمة اختلاف بينه وبين ماكيافللى، ومحل هذا الاختلاف هو الوسائل لا الغايات . فرسالة هذا المؤرخ الألماني الكبير ، هى العظمة الروحية والأخلاقية للدول الكبيرة القوية . لأن الدولة الصغيرة لا تاريخ لها ، اذ هى عاجزة عن حماية نفسها . ان الدولة فوق أفرادها وتعلو عليهم . ولا توجد الدولة الا لى تحقق مثلا أعلى للسعادة الفردية ، ولاتستطيع الدولة تحقيق ذلك ، الا اذا كانت قوية ، وفى غنى عن الاستفتاء أو التساؤل عن موافقة مواطنيها على أعمالها ، اذ هى الحارسة للتراث القومى ، وهى الوصية على الأجيال المقبلة . ويستمر ( ترايتشكى ) قائلا : ان الدولة ، غير ملزمة بأى ولاء لسلطة خارجة عنها . ان القانون الدولى مجرد عبارات ، ولا صرح لعدالة يستطيع أن يحكم بين الجماعات ذات السيادة . ان المعاهدات قيود للدولة تقيد بها نفسها بنفسها حرة مختارة ، ولا تستطيع أية دولة كائنة من كانت أن تقيد حرية دولة أخرى فى هذا المجال . وواجب الدولة ، أن تكون تماما على أهبة الاستعداد للحرب . والحرب صحيحة وسليمة ، حين نخوضها من أجل الشرف ، أو من أجل مصلحة قومية . وهى وسيلة من وسائل التهذيب والارتقاء . وهى ليست بالضرورة شرا ، اذ هى آلة الدولة ، ومدرسة الوطنية ، لأن الأمة لا تتحد اتحادا روحيا صادقا الا فى الحرب من أجل الوطن وأرض الآباء والأجداد . ان الحرب هى الدواء الوحيد للشعب المريض . وانها المثالية التى تبغى الحرب ، أما المادية فهى التى ترفضها . ان الحلم بسلم دائم ، يدل على جيل راكد ومنحل فاسد ، اذ الصراع هو قانون الحياة . « ان الأمل فى القضاء على الحرب ، ليس مجرد هراء ، ولكنه يتنافى » « مع الأخلاق أيضا . ان اختفاء الحرب ، سوف يحيل الأرض الى » « معبد كبير للإنانية » . ونحن هنا بازاء عبارة ( مولتكي ) Moltke المشهورة ، وهى : « السلم الدائم حلم ، وحتى ليس بحلم جميل ! » ولا غرو فى ذلك ، فماهية الدولة ، عند (ترايتشكى) هى القوة أولا ، والقوة ثانيا ، والقوة ثالثا .

ولقد قيل فى التقارب الفكرى بين ( ترايتشكى ) وماكيافللى :

## - ٥١ -

لو فرضنا أن كان (ترايتشكى) (إيطاليا) يعيش فى القرن السادس عشر ، وماكيافلى (ألمانيا) يعيش فى القرن التاسع عشر ، فهل كان يقول كل منهما ما قاله الآخر ، ودون اختلاف بينهما ؟ لقد نظر ماكيافلى الى إيطاليا ، ونظر (ترايتشكى) الى ألمانيا ، وما أرق الفارق بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر !



وفى إيطاليا ، نجد ( مازينى ) **Mazzini** يصيح : « اتركوا المجال للشباب » و « ضعوه على رأس الثورة ، وافهموهم أن عليهم » « واجبا نبيلًا يجب أن يؤدوه ، واذكوا فى نفوسهم شعلة الحماسة ، » « وأقنعوهم بقدرتهم ، ثم اقذفوا بهم فى وجه النمسيين » . ونلفاه يشير بالوحدة التى «عُدت انجيل الأمة ، وإيطاليا جمهورية غير مجزأة» . « وكفيلة بالغاء كل الامتيازات » . ونسمع فى إيطاليا أيضا عبارة تعلن : « لا يمكن التفاهم مع الرهبان » ، ونشيدا ينادى : « الى السلاح يا إيطاليا الى السلاح فقد بزغ فجرك » . ونقرأ كتابات ( داتسيجليو ) **D'Azeglio** تحض الجيل الايطالى على الرجولة ، وهجر الغوانى ، والتفرغ لاحياء الوطن ! وحينذاك لم يكن يغيب عن الأذان صيحات ( جيسى ) **Giusti** تقول : « يا حبذا مقبرة كريمة تجعل الأحياء يختبطون بها » ، ولتنطلق هذه الصيحات فى كبرياء فى وجه «كل من يصور إيطاليا ميتا لن يصحوا » . أما (كافور) **Cavour** فكان يحذر من الانسياق مع نيار لا يلائم الظروف ويعلم : « الى الحرب . . . الى الحرب بلا تريت » ، ويصيح فى ساعات الضيق والقلق ، وهو يضع إيطاليا على الخريطة ، قائلا : « ما أنذلنا ، اذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل » « الوطن ! » . وهكذا نجد ( كافور ) وزعماء ( البعث الايطالى ) ، يمارسون رسالتهم بوحى من ماكيافلى ، وهم يؤمنون به كرسول للوحدة الإيطالية ، ويحلمون بكيان قومى واحد لإيطاليا ، حتى يستعيدوا ماضيها العريق يوم كانت روما سيدة العالم ، وهم متلهفون فى حرارة ويتطلعون الى أن ينصهروا فى سبيكة ايطالية واحدة - ( البيمونتى ) المجتهد الرزين ، و ( الفينتنسى ) أو ( النابولى ) اللذان يمثلان العامل العاطل

الخليع ، و ( التوسكاني ) الذكي اللطيف ، و ( الصقلي ) السفاك حديدى المزاج . وذلك جميعه حتى يجدهوا أنف من كانوا يشيعون أن الايطاليين لا يجمعهم أصل واحد مشترك . إذ أن الدم الجرمانى هو دم أهل الشمال ، والدم العربى أو النورماندى أو الأسبانى ، قد يكون له أثر فى سكان صقلية . أما الدم الايطالى أو الأترسكى القديم النقى ، فلم يعد له أثر بتاتا خالصا ، وانما نجد مجرد آثار له غير نقيه فى توسكانيا ، وبعض المناطق الوسطى . ولكن على الرغم من ذلك واختلاف اللهجات الايطالية ، فاللغة واحدة ، وذكرى الماضى المجيد واحدة ، والحلم بالمدينة الخالدة أى ( روما ) واحد ، والأدب المشترك واحد ، والجميع عن بكره أبيهم يفخرون بولدى فلورنسا : ( دانتي ) Dante ، و ( ماكيافللى ) .

وعندما استدعى زعماء ( البعث الايطالى ) ماكيافللى ، استدعوه « كعظيم لم يفهم ، وقد عانى العذاب من أجل حرية الوطن ، حين « أبصره يحتضر ويموت » . « فجعل من نفسه ، وهو جالس على جثة « وطنه ، مؤرخا لأسباب هلاكه وموته » . ووجد هؤلاء الزعماء فى المؤرخ الفلورنسى هذا الذى « وصف الوحدة القومية ، كانجع دواء « لجميع آلام ايطاليا » (\*) . يالماكيافللى الوطنى التمس فى زمنه ، وذلك على حد عبارة ( تومازىنى ) Tommazzini عام ١٨٨٣ ! لقد فتش الألمان والايطاليون بين آثار ( الكاتب الفلورنسى ) عما كانوا يحتاجون اليه فى حركات التحرير ، ووجدوا عنده مبتغاهم ، من مبادئ التكتل والاتحاد ، وانتهاز الفرص والمناسبات . أما الألمان ، فقد أخذوا عنه فكرة ( حق الدولة ) Staatraison ، وفكره ( السياسة الواقعية ) Realpolitik . وأحست ايطاليا احساسا عميقا بفضل تفكيره الواقعى العملى الثاقب ، وسرعان ما احتلقت بذكره احتفالا قوميا كبيرا ، فوضعت فلورنسا بالذات لوحة على قبره ، ونقشت عليها العبارة : « لا مديح يليق بقدر مثل هذا الاسم العظيم ! » .

والواقع ، وكما يرى بعض النقاد ، أن هذه الهالة الرومانتيكية التى

---

\* Mazzini : Aux Jeunes d'Italie.



وضـعها زعماء ( البعث الايطالى ) حول ماكيافللى ، حالت فى حقيقة الأمر بينهم وبين فهمه من شتى الوجوه . ولكن لهم العذر فى ذلك ، اذ هذا ليس واجب من يسعون ويمضون مباشرة الى صنع التاريخ وخلقه ، وانما هو واجب أهل الفكر وقادته ، الذين يعيشون فى أبراج التأمّلات . فلنحاول أن ننظر فى بعض هذه التأمّلات والدراسات العلمية، والتي أسهمت بلا شك فى رد الاعتبار الى ماكيافللى ، ومهدت له الطريق فى العصور الحديثة .



وأولى هذه الدراسات ، كانت دراسة ( سانكتس ) Sanctis الشاملة\* وهو من أوائل النقاد الايطاليين فى منتصف القرن التاسع عشر ، وصاحب (تاريخ الأدب الايطالى). ولقد شغل حديثه عن ماكيافللى فى هذا الكتاب جزءا كبيرا منه ، اذ قام صاحبه بتحليل ماكيافللى وشرحه ، بعقل منهجى حديث ، وقدمه للقراء فى صور متعددة ، ما بين ( ماكيافللى الانسان ) ، ( وماكيافللى الوطنى ) ، و ( ماكيافللى المؤرخ ) و ( ماكيافللى الفيلسوف السياسى ) و ( ماكيافللى الشاعر ) و ( ماكيافللى الكاتب الساخر ) . وكان من نتيجة هذه الدراسة ، أن شكلت دعامة عريضة قوية ، لما سوف يكون فيما بعد من تقدير ماكيافللى حق قدره .

ومن هذه الدراسات دراستان ضخمتان ، واحدة ( لتومازىنى ) . وهى دراسة واعية واسعة غزيرة المادة تجعل القارئ لها يضل الطريق بعض الشيء الى درجة قد ينسى فيها الفكرة الأصلية ، وذلك لتفاصيلها الكثيرة . أما الدراسة الأخرى فهى كتاب ( فيلارى ) Villari ، وهو مؤلف شيق لطيف ، أخف من الكتاب السابق الذكر ، الا أن تشابك التفاصيل تكاد أن تنسينا أنفسنا ونحن بينها . ومع ذلك ، نجد ( فيلارى ) يعترف ( للدبلوماسى الفلورنسى ) « بعاطفة » « وبطولة » ، ترد اليه الاعتبار، وترفع من شأنه ، على الرغم من «

« اصرار ( فيلارى ) على أن فى ماكيافللى شيئاً ما ، » يثير الرعب ، «  
» ويبعث على الفزع ! » .

وفى انجلترا نجد السياسى الكبير والمؤرخ الحجة (ماكولى) Macaulay يبحث فى ماكيافللى ، ويربط بينه وبين الزمن الذى عاش فيه . وعلى هذا الأساس ، يبرئه مما لحق به من تهم ولعنات دارت حول فصله الاخلاق عن السياسة ، ودعت الكثير الى أن يصوروه كافرا بالأخلاق . يقول ماكولى : ان ماكيافللى ، كان يعيش بلاده ويعبدها ، وأبصر معبوده مهددا باستمرار ويدنسه الأجانب على الدوام ، وينهبه الغزاة والبنغاة ، والأجانب ، والجنود المعتدون الذين لا هم لهم سوى أن يجدوا فى كل أرض تطوها أقدامهم ما يحلو لهم من اللذات ، وخصوصا السبايا الفاتنات ، ليشربوا كؤوس جمالهن الايطالى، ويرشفون رحيق زهراته ، باسم حق الغالب ، وبمقتضى شريعة الغزو والنصر ! وقد كانت ايطاليا بالفعل تسبح فى بحور الجمال الباهرة الأخاذة ، وانشغلت بذلك عن الدفاع عن الوطن ، وكان قد قبض لها انتصارات فنية وعقلية عظيمة ، اذ أن أمراءها كانوا يحتقرون قوة الجند البدنية ، وهم بالذات لم يكونوا جنودا وقوادا ، بل كانوا تماما عشاق جمال ، وفرسان جدل . واذا كان ذلك كذلك ، فما وجه العجب ، حين حركت ماكيافللى آلام وطنه وجروحه ، وقد تبلورت وتركزت عنده فى صورة تطلع عارم ملهوف الى «مخلص لايطاليا» ( بضم الميم وفتح الخاء وكسر اللام وتشديدها ) ، لينتشلها ويخلصها بالأساليب والأدلة التى صاغها ، وهو يقرأ تاريخ البشر ويدقق فيه ، حتى ينقذ أبناء بلاده من ركل قدم لجندي غاشم ، أو من لكمات لأيدى المعتدين ؟ وكيف كان لهم أن ينازلوا جيوش المعتدين ، دون أن يسلطوا عليهم على الأقل قدرات ذكائهم فى صورة مكر ودهاء ؟ لماذا نصيح بأن السياسة الماكرة تمرغ فى الوحل قداسة الاخلاق ، بينما لانصيح هذه الصيحة وقد دفعت بندقية غاشمة فى يد جندي معتد غاشم مواطننا أعزل فى عقر داره ؟ ولماذا نلوم هذا المواطن الأعزل وهو المعتدى عليه ، حينما لا يفى بوعده وهو يقصد تخليص بلاده ثم نحكم عليه بأنه كفر بالأخلاق ؟ ومما يدعو للحيرة والحسرة والأسى المرير ، أننا فى نفس الوقت ، نغضض العين عن المعتدى الأثيم ، وكأنه هو الذى لم يدس على الاخلاق والفضائل !

هذا موجز دفاع (ماكوولى) عن ماكيافللى . ومن طبائع الأمور ، أن نجد هذا الدفاع ينحو ويمهد السبيل لرد الاعتبار لماكيافللى ، لكى لا يظل يفرغ الناس بقناعه الشيطانى ومن ثم لا يعود رسول الشر ، أو أستاذ الكذب والغدر ، بينما هو لم يكن كذلك . وانما كان مساقا بدافع حماية وطنه ، وبدافع الاهتمام به ، وبدافع توفير أسباب القوة والخلبة والنصر له ، على أساس سياسة واقعية فعالة قسوية التأثير ، استقاها بصورها الجزئية والكلية ، وفنها وأسلوبها ، من تاريخ البشر السياسى بالذات !

وحين نودع مقالة ( ماكوولى ) هذه ، نلقى مؤرخا انجليزيا كبيرا ، هو ( آكتون ) Acton ينادى فى انجلترا بدوره ، مع المنادين فى ألمانيا ، بماكيافللى مؤسسا للتحليل التاريخى . ويعد ( آكتون ) هذا فى نفس الوقت ، الشارح لماكيافللى الذى يعول عليه . فلقد تناول هذا المؤرخ مؤلفات ماكيافللى بالدراسة ، فى المقدمة العلمية العميقة والمحصنة ، لطبعة ( بيرد ) Burd ( لكتاب الأمير ) حيث قال عن ماكيافللى : ( انه كل التاريخ الأخير ) . وقد علق ( آكتون ) هنا تعليقات شتى جذابة ، تحتوى على نصوص كثيرة ، اقتبسها من كبار الكتاب ، وكبار الساسة ، فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة . ولا ريب أن هذه التعليقات ، بنصوصها التى اقتبسها ( آكتون ) ، قد دلت بما لا يدع مجالا للشك ، على قوة تسلط ماكيافللى على العقل الأوروبى فى هذه الفترة . هذا ، ولم يفت هذا المؤرخ الكبير ، أن يوضح تمام التوضيح ، أن ماكيافللى كان المعين الذى استقى منه المسئولون عن مذابح الحروب الدينية ووردوا اليه .



وفى القرن العشرين ، قرن العماء القومى ، ازداد الاهتمام بماكيافللى . فذهب كثير من النقاد والشرح والمفكرين ، الى حد أن اعتبروه أول من فكر تفكيراً حديثاً . اذ أنه لم يؤمن بالتقدم أبداً ، وشأنه فى ذلك شأن العديد من المفكرين المحدثين . وهذا من ناحية سلبية . أما من الناحية الايجابية ، فهو الذى آمن بالقومية والمنهج

العلمى ، على الرغم من أن ايمانه بهذا المنهج لم يتجاوز مرحلة التخلص من الافكار السابقة أثناء البحث والتفكير . وقد يعزى هذا الاهتمام ، الى الشبه الكبير بين مشاكل القرن العشرين وبين مشاكل عصر ماكيافللى . اذ نجد أن رجل هذا القرن يرغب فى السلام لنفسه ولدولته ، أما ماكيافللى فكان يرغب فى السلام فى دائرة مدينته ووطنه فقط . اذ لم يتأت لذلك العصر قوة حاكم من حكامه يفرض بها الوحدة القومية على ايطاليا . وانها هذه الوحدة هى التى كانت قد وقرت فى قلب ماكيافللى ، وصدقته أعماله وكتابات ، فكانت همه ليل نهار . وبالمثل كان هم القرن العشرين بالفعل القومية والوحدة القومية ، وظهور الدول القومية على خريطة العالم . ويلاحظ أيضا أن هذه الدول نفسها ، عندما عانت عناء شديدا من عدم الاستقرار ، اتضح الاهتمام بماكيافللى على نطاق واسع ، فأصبح مادة للدراسة الهادفة ، فى معسكر المثاليين ، وفى معسكر المغامرين السياسيين على السواء .

والحقيقة التى لا مرأى فيها ، أنه مهما كانت مثلنا العليا فى السياسة واضحة ، وذات مبادئ أخلاقية واضحة ، فلا غنى لنا عن قراءة ( كتاب الأمير ) ، حيث فصل صاحبه فصلا كاملا حاسما بين الأخلاق والسياسة . وذلك يؤكد لنا تماما أن الحاكم وهو يسوس الدولة لا يمكنه دائما أن يطبق القانون الأخلاقى تطبيق الفرد العادى لهذا القانون ، وهو يحرس بقاءها ومصحتها ، اذ فن الحكم ، على حد تعبير ( نيتشه ) ، لا هو من الخير ، ولا هو من الشر .

ولقد أجاب على هذه المواقف العويصة ( ماينكى ) Meinecke ويمكن اعتبار اجابته هذه حلا لها ، ودفاعا عن ماكيافللى . وقد وردت هذه الاجابات ، فى مقالة ( ماينكه ) عن ( فكرة حق الدولة ) Die Idee Staatraison . وهذه المقالة قد ازدهمت بطابور نظيم من الحجج لبعض الثقة من أصحاب الشهرة المدوية . وهؤلاء يرفضون الملامح الفظة لمذهب ماكيافللى ، بينما يسلمون بأن الأخلاق العامة غير الأخلاق الفردية ، والاثنان ليسا بالشئ الواحد عندهم . فلماذا ؟ والجواب : لا مفر للحاكم ، حين يواجه ( طوارئ عليا ) ، من

أن يلجأ وهو بين مطرقتها وسندانها ، الى المناهج والطرق والحلول ( الاستثنائية ) . وعلى جناحى هذه الحقيقة ، يكون ما كياقللى قد قدم لنا ، بفصله بين الاخلاق والسياسة ، الدواء الناجع والمؤثر والفعال لذلك ، على الرغم من أن هذا الدواء لا يفيد ولا يشفى أحيانا كثيرة ، لو استخدم استخدامنا للخبز والماء فى حياتنا اليومية ، وكما سبق القول .

ذهب ( ماينكى ) الى أن ( حق الدولة ) *raison d'état* هو هذا ( الأمر ) الذى يملى على الحاكم فى هذا الموقف وأمثاله ، ما ينبغى أن يقوم به ، لى يحافظ على الدولة ومصحتها سليمة وقوية . فالسعى وراء القوة أو وراء التملك غرائز أولية ، والأخرى أن نقول انها غرائز حيوانية . وهى قوية فى الفرد ، وقوية فى الجماعة . ولكنها تتجاوز عند الانسان دائرة حاجاته المادية . لأن دائرة الأفق تتسع كلما ارتفع الانسان وهو يتدرج الى أعلى سلم الكائنات . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان الانسان كلما صعد على سلم الحضارة ، ونظم حياته الاجتماعية ، يصبح من واجبه أن يحسب حسابا للأخلاق ، وأن يحسب حسابا للقانون ، ولكنه يجد بين ( السلطة ) *Kratos* وبين ( الأخلاق ) *Ethos* ، قنطرة هـى ( حق الدولة ) أى ( حاجاتها ) . وهذه القنطرة تجمع بين ( الواقعى ) و ( المثالى ) ، وبين ( الغريزى ) و ( العقلى ) ، وبين ( الطبيعى ) و ( الروحى ) ، بيد أن الهدف فى النهاية ( أخلاقى ) ، وهو صلاح الدولة وبقاؤها وسعادتها ، بينما وسائل الوصول الى هذا الهدف وتحقيقه كثيرا ما تكون وسائل بدائية وحشية ، فتتأرجح طاعة الحاكم لـ ( حق الدولة ) بين الظلام والنور ، بينما هو بطموحه ومطامعه مشدود دائما شدا محكما بظروف المحكومين ، وغالبا مايكون هو نفسه قد أعد حساباته من حيث تدعيم ذاته بالقوة والنفوذ . وهكذا نجد هوة اختلاف سحيقة عميقة بين الدولة وبين جميع أنظمتها الأخرى قاطبة . وفى الوقت نفسه نجد أن هذه النظم بدورها تنحو عادة نحو قيم سامية تلتزم الدولة بالعمل بها ، لكنها تضطر فى بعض الظروف ، الى حلول لا مفر لها من أن تقوم بها فى بعض المواقف ، تصنع من مادة الخطأ . وهذا الموقف فى حقيقته يشكل وجها من أوجه التاريخ أو أوجه السياسة ، الشديد القبح والمثير للأسى والمرارة ، ويجعل ( تخليق )

moralisation تخليقا كلياً شاملاً خالصاً نقياً ، ضرباً من ضروب المستحيل ، وتجعل أيضاً التزام الدولة بالعمل دائماً طبقاً للقانون الذى ترعاه هى ، وتحرسه وتطبقه هى ، وتنفذه هى ، أمراً عسيراً غير ممكن . اذن فما أشبه الدولة فى هذا المقام بالحيوانات البرمائية . فهذه الحيوانات تعيش على اليابس والبر من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى الماء والبحر . وكذا الدولة نجدها تحيا فى وقت واحد فى عالم (الطبيعة) وفى عالم (الأخلاق) . والصراع بين العالمين صراع أزلى أبدي ، ولا أدرى من ( بفتح الميم وسكون النون ) من هذين المتحاربين سيكتب له النصر ، ومتى يكون ذلك ، وأين مرسى ذلك ، ومتى يقع ذلك ويكون منتهاه ! فهذا علمه فحسب عند ربى فقط ، ومن ثم فليس لى أو لغيرى علم به بتاتا حتى أذكره !



وحين نشرف على ختام هذا الفصل ، لابد لنا من أن نقوم بكرة سريعة لنوجز ما سبق أن سردناه ونقول : ان ماكيافللى لم يأت بأفكاره على أجنحة عقله فحسب وتفكيره الشخصى ، أو خياله وتوهمه ، أو عواطفه ومزاجه ، أو انفلتاته وشطحاته ، أو هواه وما سواه ، وإنما رجع ماكيافللى الى التاريخ ، وهو السياسى الخبير ، وهو الوطنى العظيم ، وهو المؤرخ المدقق ، وهو الكاتب الأمين ، وهو الذى قصد « التاريخ العام وهو الحكمة العامة » ، واستقرأه وأنطقه بتمحيص دقيق وعناية فائقة ، فى شتى أبعاده واغواره . ثم سجل أسرارته وحقائقه على شاشة الفكر العلمى عارية بلا دثار أو أزار ، أو على الأقل بورقة التوت كستار . فصورها لنا بريشته البساعة كما هى تماماً دون ( ماكياج ) أو ( رتوش ) ، بعدما لمس حقيقة ما شاهده فى متحف التاريخ برمته ، ووجدته لم يعط أبداً حـق الحياة والوجود ، « الا للحياة » « القوية الكامنة ، المستيقنة من ذاتها ، وضـحى » « دائماً بالحقيقة والعدالة ، من أجل القوة والجنس ، وقضى بالاعدام » « على هؤلاء الذين جعلوا الحقائق فوق الأفعال ، والعدالة فوق القوة . » \*

---

\* الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر ، قوى التاريخ .

وهذا هو ماكان عند تلاميذه من (الأنبياء غير العزل) منذ بدأت السياسة، وهذا ماسوف نراه عندالساسة من مريدىماكيافلى وتلاميذهمحتى الآن.اذن لم يكن أمام ماكيافلى ، وهو يكشف الغطاء عن تاريخ البشر بحذافيره ،ويميط اللثام عن فن السياسة فى حقيقته كما مارسه فى الواقع (الحيوان السياسى بطبعه ) ، سوى أن يكون شاهدا أميناً على هذه الممارسة .

الا أن ماكيافلى لم يقف عند هذا الحد ، وانما جعل من نفسه ناصحا وداعية للانسان الى أن يثق فى ذاته ونفسه ، فيعطى القيم البشرية مكان الصدارة بين شتى القيم ، بعد تخليصها وتنقيتها من شوائب أفكار العصور الوسطى ، كفكرة القدر مثلا ، وأن يجتذب الانسان للسياسة استقلالها من تلابيب الاخلاق الفردية ، وأن يفصل التدبير السياسى فصلا كاملا عن جميع التدابير الأخرى . وعلى ذلك برز ماكيافلى بصورة فذة ، بين أساطين الفكر ورواده الأوائل فى عصر النهضة ، وهو لا يؤمن بهذا ( الخير الأسمى ) أو (الفردوس) الأعلى ، الا فى صورة ( دولة ذات سيادة ) يلعب فيها الدين دوره ، اذ هو الذى يأتى بالقوانين الصالحة . وهذه القوانين هى التى تأتى بالحظ السعيد . والحظ السعيد هو عله النجاح فى جميع الأعمال . فالدين عنده هو الذى يحفظ قيادات الجيوش من الفساد لتظل صالحة ، ويوحد بين أبناء الشعب الواحد\* .

وهكذا كان ماكيافلى ابن ( عصر النهضة ) البار ، وذلك فى دعوته الى تحرير الانسان اله الأرض من كل قيد كبله به الشياطين لمصلحة أنفسهم . لقد كان ابنا بارا لهذا العصر ، فى كلبيته الهادئة ، وفى نزعتة العملية ، وفى ذريعتة الواقعية . وهنا نتساءل : أليست هذه الخواص بدورها خصائص التفكير الحديث الى حد كبير؟ أليس ماكيافلى هو الذى قضى على الأفكار الكاثوليكية السياسية ؟ بلى . فهو الذى أعلن أن للدولة هوية طبيعية . وهذه الهوية تظهر وتوجد بين مجموعة من القوى الطبيعية الأخرى . ولابد لرجل الحكم أن يحيد علما بها ، ويعمل لها الحساب الدقيق، وذلك فى الصراع العنيف فى عالم السياسة . وأليست هذه الأفكار الأولى التى أرساها

## - ٩٠ -

ماكيافللى هى الدعامة الأولى التى يقيم عليها قادة الفكر السياسى الحديث فلسفاتهم السياسية ؟ قد يكون ثمة اختلاف كبير بين ماكيافللى وبين بعض هؤلاء الذين جعلوا العامل الاقتصادى أول العوامل تأثيرا وسيطرة فى الالتزامات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . ولكن ( ابن فلورنسا ) وهؤلاء ، على اتفاق فى تفسير الدولة تفسيراً بشرياً ، وفى قياس الأحداث وتقييمها بمقاييس بشرية . أليست هذه من أولى الأفكار التى يجب ألا تغيب أو تفوت على رجل السياسة فى مواقف شتى فى حومة السياسة ؟

ومن ناحية أخرى ، كان ماكيافللى (الوطنى العظيم) ، قد هام بفكرة ( السيادة ) ، وفكرة ( القومية ) ، ورفض المعنى الاقطاعى لهما ، وأسكن فى مكانهما سلطة مركزية قوية ذات سيادة . أليست هذه بمثابة قطب الرحى فى تفكير المفكرين المحدثين ؟ فهذا ( بودان ) Bodin ، وكذلك ( هوبز ) Hobbes ، يكرسان تفكيرهما من أجل تعريف السيادة . وهذا بالمثل أيضاً (لوك) وغيره يهتمون أيما اهتمام بالمشاكل التى يثيرها هذا التعريف . ولماذا ؟ لأن ( السيادة ) هى المشكلة الأولى بين مشاكل العصر الحديث . وهكذا تبرز أمامنا صلات قوية واضحة بين ماكيافللى والقرن العشرين .

وفضلاً عن ذلك ، فلم يكن هناك ، من سبق ماكيافللى فى تقنين ( القوة ) وتقديرها وبيان فاعليتها وتأثيرها فى التدبير السياسى ، حتى لقب ( بأبى القوة ) ، وحتى قيل ان ماكيافللى وقف من ( القوة ) موقف ( هارفى ) Harvey فى ( الكهرياء ) ، فكلاهما أخضع للبحث العلمى الدقيق ما اعترف بوجوده .

هذا ، ومنذ ما يزيد على المائة عام ، نجد اللورد ( جراى ) Lord Grey ، وهو أسطىن من أساطين السياسة الانجليزية ، وكان من أشدهم اصراراً على التمسك بالأخلاق يقول : ( ان سياسات الدول الكبرى مستحيل أن تسير وفقاً لقواعد الأخلاق ) . وروى عن ( السير ونستون تشرشل ) Sir Winston Churchill ، حين قرأ الكلمات المحفورة على



## - ٩١ -

قبر تقول : « هنا يرقد السياسى العظيم والرجل الصادق » ، أسرع ليقول فى دهشة : « هذه أول مرة أرى رجلين مدفونين فى تابوت واحد ! » . ان ( المراكز الموجهة ( بكسر الجيم ( للجماعة ) ، مضطرة رضيت أم أبت ، الى أن تتحرك بشرط أن تكون بوصلتها (بضم الباء) ونجمها الهادى ( النظرة الواقعية ) ، وفقا لما رأى مكيافللى فى بطون التاريخ وأحشائه . فالشر خالد . والشر لا يقضى عليه بغير الشر ، ولا مانع من أن يكون (الشر المضاد) أقل الشرين . وهذا هو الفن الماكيافللى الأصيل . فكم من رئيس أو حاكم ، حين تؤدي به سقطة فى حياته قد تأكد له أن سر فشله وسقطته نسيانه أو تناسيه أو اغفاله ، أو أنه لم يعمل حسابا لحد هام خطير من حدود المعادلة السياسية ، ألا وهو حد ( الوقائع ) العديدة التى تحرك الصراع البشرى والسياسى ، سواء سلكيا أو لاسلكيا ، ان صح هذا التعبير ، أى فى ظاهر هذا الصراع أو خفاياه ، وهنا يعذر العذر كله لمكيافللى وتلاميذه الذين يتشبثون بأفكار ( ابن فلورنسا ) ويتخذونها وقاية لهم وعلاج ، حتى يكونوا أكثر استعدادا لمنازلة من يتصدى لهم ، فلا تضيع منهم فرصة لا يستغلونها حتى ولو كانت وسيلة قذره مرة المذاق ولكنها تحقق لهم الانتصار على مطاعم متآمر ، أو حليف مكر ، أو عدو خفى ، أو خصم مبين . ان ماكيافللى قد اشفق على رئيس الدولة أو الحاكم ، فنصحه بأن يكون قويا بتبصر ، حتى ولو كانت الوسيلة مكرة ولكنها حلوة المذاق كقطرة عسل تصيد ذبابا أكثر مما تصيده مبادئ دستور الأخلاق لو طبقها . و (ابن فلورنسا) يحذر الرؤساء والحكام من (التردد) على الرغم من أنه قد يكون أفضل فى مواقف عصبية تعن وتستجد بالنسبة للرؤساء والحكام . وعلى كل حال ، فان وضع الأحداث هو الذى يهيئ للحكام والرؤساء الامكانيات التى يمكنهم الاستفادة منها ، عن طريق أسلوبهم ، وذلك ليصلوا الى الغايات المنشودة .

والآن لم يعد يبقى سوى أن نفسح المجال لكى نتوج أقوالنا بحديث المؤرخ الكبير ( ماکوولى ) ليقول قوله فى ماكيافللى ، وليكون قوله هذا القول الفصل . وهذا المؤرخ ( ماکوولى ) بدوره يقول فيه ( صمويل

سمائلز ( Samuel Smiles ) فى كتابه ( الرجال الذين لا يمكن شراؤهم ) \*  
 ( كان قبل كل شىء نزيها ) ، و ( هو الذى لم يستطع أحد أن يشتري )  
 ( ضميره ، مهما بلغ الثمن ) ، على حد قول ( سدنى سميث ) ، فلا الألقاب ،  
 ( ولا النياشين ، كان لها البتة تأثير عليه ) . ( وهو الذى لا يرقى اليه )  
 ( فساد ) . ( وكان يحب بلاده حبا صادقا أمينا ، صحيحا أصيلا . فلم تستطع )  
 ( الدنيا أن ترشوه حتى يهمل مصالح وطنه ! ) .

وماذا عسى أن يحدثنا به ( ماكاولى ) هـذا عن ماكيافللى ؟  
 والجواب : لقد قدر ( ماكاولى ) ماكيافللى فقال فيه : انه ( أول مشرع )  
 ( واع يبرز قوى حية معينة فى العالم الحاضر . ولم ينقص من سلطانه )  
 ( الدين ، أو التنوير التقدمى ، أو يقظة الرأى العام الدائمة . فالقضايا )  
 ( التى لا تزال سائدة ، والمذاهب التى تظهر فى السياسة ، وفى )  
 ( الفلسفة ، وفى العلم ، انما هى تجدد سلطانه ) .

---

\* Samuel Smiles : Men who cannot be bought

## الفصل الخامس

« الأخلاق تكفي نفسها بنفسها »



وفى القرن الثامن عشر ، وسط عواصف الشك ، وأعاصير النقد ،  
 قد يهتز الايمان بالاصول والمبادئ . ولكن عناية الله كانت قد قيضت  
 للفكر والايمان والأخلاق والانسان ، حكيما من أكبر الفلاسفة المحدثين ،  
 وقمة من أعلى قمم التنوير ، ومفكرا من أوفر المفكرين حظا فى حرية  
 الرأى ونزاهته ، ومواطننا من أكثر مواطنى مدينته ( كونزبرج )  
**Konigsberg** ممارسة للنظام ، مما جعل الشاعر الألماني ( هينرش  
 هاينى **Heinrich Heine** يصور لنا هذه الحقيقة قائلا : « لست أظن  
 » أن الساعة الضخمة فى أعلى برج الكاتدرائية ، كانت تؤدى عملها  
 » اليومى بشكل أدق وأكثر نظاما من مواطنها ( عمناويل كانت )  
**Emanuel Kant** . لقد كان جيرانه يعرفون أن الساعة قاربت منتصف  
 الرابعة ، وهو يغادر داره ، وعصاه فى يده ، مرتديا معطفه الرمادى  
 متجها الى ( نزهة اليزفون ) ( ١ ) ، الذى أصبح فيما بعد يعرف  
 باسم ( كانت ) ، أو باسم ( نزهة الفيلسوف ) ، وذلك تكريما لشخصه  
 وتخليدا لذكراه ( ١ ) . ويعزو البعض شهرته بالنظام وممارسته له ، الى  
 اعجابه بالرومان فى مراعاتهم للنظام والتزامهم بالواجب ، فالنظام  
 جزء لا يتجزأ من التقدم .

ومما لا شك فيه ، وكما سنرى فيما بعد ، أن نجد بين من تحدثوا  
 فى الأخلاق على مستوى فكرى عال وعميق ، من يفوق (كانت) أو يعادله

فى كتاباته الاخلاقية . فهو الذى عرف أن خير ما يجب أن نطبعه فى عقل الانسان ، وما ينبغى أن ندمغ به شغاف قلبه وارادته ، هو الاخلاق . وكم كان ( كانت ) أخلاقيا فى شخصه وسلوكه ، ومريدا من مريديها بالفعل ، حى وهو لا يتحدث عنها مباشرة . وظل كذلك وهو يعالج مشاكل الانسان والانسانية ، والسياسة ، والنظام الجمهورى والنظام الملكى الدستورى ، والسلام العالمى ، ونبذ الحروب ! وماذا كان يرجو ويأمل ؟ انها الأخلاق يريد أن يجعلها أظهر حاجة للانسان من أجل كماله البشرى . وثمة حقيقة كبرى لابد من أن نقتنع بها ، ألا وهى: أننا لو انتزعنا الاثار بمختلف عواطفه السمحة الخيرة من حياتنا نحن البشر لغابت عنا الأخلاق ، فهى التى ترشد الحكام والمحكومين على السواء ، رغم أن الأخلاق ( لا تحكم ) ، وانما هى السياسة وحدها التى تحكم وتدير . بيد أن الأخلاق هى التى تزود الحكام بشتى المبادئ والعقائد والمذاهب ، التى يمكن أن يستخدموها فى تنظيم العلاقات بين الناس من أجل سعادة مجتمع سليم كريم ، ليحقق ذلك لجميع طاعة القانون والحرية والرضا . وجميع هذه الأمور تشكل حاجات أخلاقية للأفراد والجماعات ، وفى الوقت نفسه تحدد سمات الدولة التى تتمشى مع كرامة الانسان وعزة المواطنين . انه ( كانت ) الذى لم يمل أبدا من الاشادة بالأخلاق وجدواها، من أجل كمال الانسان فى شتى مساعيه فى الحياة .

فهو الذى اعتبر الأخلاق خير ذخيرة وافية للانسان « تكفى نفسها بنفسها(٢) » و « تقود حتما الى الدين »(٣) ، والدين بدوره « يقوم فى معرفة كل واجباتنا من حيث هى أوامر الهية »(٤) ، وهو « الايمان الذى يجعل الجوهرى فى كل عبادة الله يقوم فى أخلاقية الانسان »(٥) ، وقد « قهر الانسان نفسه ، ونظم سلوكه وأحكمه ، لا بقصد فائدة » ، وانما طاعة للقانون الأخلاقى . هذا ، ويقول (كانت) ان « الله هو الحاكم الأخلاقى فى العالم » ، والشعب ليس « سوى شعب الله الخاضع للفضيلة » ، مما جعل الباحثين فى ( كانت ) يعتبرون الدين نفسه عنده هو « دين أخلاقى » (٦) . ولا غرابة ، إذ أن ( كانت ) هو صاحب

## - ٩٧ -

العبارة المعروفة التى تقول : « شيئان يملأنى اعجابا ، السماء ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الأخلاقى فى نفسى » .

وهذه العبارة هى التى نقشها أهل مدينته على قبره ، يوم خرجوا يحملون نعشه الى مقره الأخير ، وأعلنوا الحداد العام يوم وفاته . فهو صاحب عبقرية حتمت على المؤرخين أن يجعلوا صاحبها حدا من حدود تأريخ ( بفتح التاء وسكون الهمزة ) الفكر العالمى الحديث، عندما اصطلحوا على تقسيم التاريخ الفكرى الى فترتين 'الأولى ( ما قبل كانت ) ، والأخرى ( ما بعد كانت ) . وهو الذى عاش موسوما بالشرف والاستقامة والنزاهة ، وكان يحلو له دائما أن يردد قول ( جوفينال Juvenal : « ليس أشد على النفس ، من أن تطأىء رأسها للعار والخزى ، وأن يدفعها حب التمسك بالحياة ، الى فقدان أسباب الحياة » . وكانت نفسه الكبيرة تفيض شفقة وألما ، وهو يرى العبيد فى بعض نواحي بروسيا . وعلى كل حال ، فقد كان من بين الذين بادروا بالغاء الرق فى شرق بروسيا جوقة من تلاميذه القدامى (٧) . ولا عجب ، فلابد أن كان أساتذهم قد حدثهم على أن «الانسان قيمة وغاية، وينبغى أن يعيش ويحيا حياته ، باعتباره حيا صاحب حياة ، وسيد نفسه » فهو « الناطق باسم القانون الأخلاقى » (٨) .



وكان (كانت) كان على موعد مع القدر ، عندما خصه فى طفولته بأمه هذه . فلقد كانت له بالفعل أفضل حرفا استقر فى قلبه جاء خيرا من ألف حرف فى الكتب . فهى التى بثت فى نفسه معانى الجمال فى الكون ، ومعانى الجمال فى الطبيعة ، وذلك فى السنوات الثلاث عشرة الأولى من عمره وحتى وفاتها . وأنى (بفتح النون وتشديدها) كان يمكن أن يستقر فى قلب الطفل (كانت) حرف خير من أمه ، ومبادئ نظام التعليم فى بروسيا فى هذه الفترة آسنة فاسدة ، بعيدة كل البعد عن فن التربية ، وهذا هو الفن الذى « لا يصير الانسان انسانا (حقا) الا به » (٨) ، اذ « الانسان هو ما تصنع منه التربية » (٩) ؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان النظام البروسى بعيدا عن التهذيب أيضا ، والتهذيب هو

« السعى الى منع الحيوانية من أن تكون خسارة للانسانية ، سواء فى الانسان المفرد ، أو فى الانسان الاجتماعى ، وهو « لا يقوم الا فى كبح التوحش » (١٠) .

ويطلعنالكثير ، على غثاءة نظام التعليم البروسى فى القرن الثامن عشر . فأولاً يحدثنا ( فردريش ديتس ) Fr. Dittes فى مؤلفه فى هذا الموضوع (١٨٧١) قائلاً : « فى كل مكان تقريباً كان المعلمون يعينون من بين الخدم ، والصناع الفاسدين ، والجنود المسرحين ، والطلاب المنحطين ، وبالجملة من بين أناس أخلاقهم مشبوهة ، وتربيتهم مشكوك فيها . . . وسلطتهم هزيلة . . . وفى كثير من البلاد كان معظم الأطفال ، خصوصاً البنات ، لا يتلقون أى تعليم » (١١) . ولئن كان هذا النظام قد شهد أفضاءاً مثل ( لسنج ) Lessing و ( رابنر ) Rabener و ( جللرت ) Gellert ، الا أن نبوغهم لا يمكن أن نرده الى هذا النظام فقط الا فى قليل جداً ، اذ الثابت أن نبوغهم هذا يعزى الى ما كانوا يقومون به من قراءة حرة واطلاع خارج قاعات الدراسة . وهذا هو تعليل ( أ. بنلوش ) A. Pinloch ، وهو تعليل مقنع . اذ أن هناك شاهداً من ذاك العصر يقول فى هذا الشأن : « ان المعلمين أنفسهم كانوا لا يعرفون كيف يعلمون (بضم الياء وتشديد اللام وكسرهما) : لقد كانوا مجرد مدربين لببغاوات يعلمون الأولاد أشياء لا يفهمها هؤلاء » (١٢) ، وثانياً ، يجب أن نعلم أن ( العلم والتربية ) لم تكن غير أمور ناسوبية قليلة الأهمية ملحقة باللاهوت مضافاً له « (١٣) . وثالثاً ، « كان المعلمون سطحيين ، جهلاء لا يحسنون لغتهم القومية ، غير مندفعين فى الحضور ، لا يراعون الضمير ، ولا يحضرون الدروس (بتشديد الضاد وكسرهما) ، ولا يصححون الواجبات » (١٤) . ورابعاً ، فقد أخذ على المعلمين وقتذاك « افتقارهم الى الضمير ، والمهابة ، وكراهيتهم لكل محاولة للإصلاح » ، على حد قول ( مللر ) Miller . وهو يعلل ذلك « بقلة اعتبار المعلمين ، وانعدام المراقبة على المدارس » . وخامساً ، فقد نادى ( كانت ) نفسه بالإصلاح ذلك قائلاً : « ان معاهد التعليم والتربية معظمها ردىء . . . » « ولابد من اعادة تشكيل المدارس من جديد ، ان شئنا أن نؤمل فى « أن يخرج فيها شيء حسن . فالمعلمون أنفسهم فى حاجة الى تلقى »



« ثقافة جديدة » (١٥) . ولذلك وغير ذلك ، غدت المدارس فى ظل هذا النظام « المؤسسات المضحكة » التى نادى ( روسو ) نفسه بالغائها ، وخصوصا وأنها أصبحت فى الواقع ساحة « للمشاجرات بين المعلمين » أنفسهم، وبلغ ضعف التلاميذ مبلغا سيئا للغاية، حتى جأ رجال الجامعات بمر الشكوى من هذا الضعف المخزى والمزدرى . ومثال ذلك شكوى جامعة يينا Jena للحاكم نفسه . فكان من الطبيعى ، وعلى حد قول وكيل لمدرسة ثانوية وقتذاك، أن أصبح التلاميذ «ثيرانا ، وغوغاء ، وأبناء « شياطين ، ووحوشا ، وجواميس ، وأفظاظا ، وأفاع (١٦) ، « وأوغلوا فى الفساد ، من سكر ( بضم السين وسكون الكاف ) ، وعريضة » وصخب فى الليل ، واثارة الشغب فى الكنيسة أثناء الشعائر الدينية، « والتشاجر فى الشوارع ، والساحات العامة . وكان هؤلاء يحملون « سيوفا على جوانبهم » .

ومن هنا كثرت بينهم «المبارزات بالسيف» (١٧) . فلم يكن أمام بروسيا سوى أن تتصدى لهذه الطنامة القومية الكبرى الخطيرة، كيلا تخسر نفسها ، وحتى تحمى نفسها من غوائل كثيرة ، وتتيح لنفسها توفير متطلبات فوزها بصولجان المجد والرفعة . فشرعت دون تأجيل أو تسويف أو إبطاء ، تمشى أولى الخطوات التى لا مناص منها نحو التقدم ، ألا وهى خطوة اصلاح نظام التعليم ، وفتح شتى النوافذ والمسالك لنشر العلم، مما ترتب عليه احتلالها قمما رفيعة عزيزة بين دول أوروبا ، فى الثقافة والموسيقى . وكان رفع مستوى المعلم علميا ثقافيا وماديا وكرامته واعتباره ، ليصبح بالفعل القدوة الصالحة والأسوة الحسنة، حجر الزاوية فى هذا الاصلاح للتعليم ونشر العلم. ومن صور هذا الاصلاح كان وضع التعليم العام على أسس صحيحة مفيدة ، والاكتثار من عدد الجامعات وشغلها بكبار الأساتذة النابهين ، والبحوث والرسالات والدراسات العلمية المتخصصة ، وفتح جميع الأبواب على مصاريحها للقراءة للجميع لتكون على مستوى ما عرف به الألمانى من تفوقه المتميز فى كثرة الاطلاع وجديته ، والاكتثار من عدد المدارس. وفى عام ١٧٥٠ قاموا باعداد المعلم فأنشأوا مدرسة المعلمين فى برلين . وفى عام ١٧٥٢ منعوا تعيين معلمين من بين الجنود المشوهين فى الحروب كتعويض لهم .

## - ١٠٠ -

وفى عام ١٧٦٣ أصدروا ( لائحة هيك ) للتعليم الاجبارى ٠٠٠٠ الخ . وكان من أهم ما ترتب على هذا الاصلاح للتعليم ونشر العلم ، قوة الاقتصاد عندهم ، فلم يعد لاقتصادهم ند فى قوته فى شتى أنحاء أوروبا . فالمال ، كما حدثنا ( كانت ) « هو أقوى ما تملكه الدولة من وسائل العمل » . فهو ضرورة وأى ضرورة تأتى فى طليعة عوامل القوة المتعددة بالنسبة لدولة من الدول فى معركتيها التقليديتين اللتين تتعاقبان فى حياة الدول تعاقب الليل والنهار ، وهما معركة السلام ومعركة الحرب ، والواحدة منهما مولجة فى الأخرى . فنجحوا فى اغتنام ما وسعهم من غنائم كبيرة وعديدة وضرورية ومفيدة فى معركة السلام ، بفضل هذا الاصلاح للتعليم ، وذاك النشر للعلم . ومن الطبيعى أن كل ما تصيبه الدولة من قوة فى أى ناحية من مرافقها لا يصير له سوى التجمع فى النهاية فى بؤرة استعداد الدولة للدفاع عن نفسها وصد العدوان عليها ، وهى تقف يقظة على أهبة هذا الاستعداد باستمرار ، اذا لزم الحرب كضرورة ذات جدوى . فالقوة مطلب سياسى له وجوه عديدة . وكل وجه منها لابد ان يكون بدوره قويا ، فالمدخل الواسع والعريض ، والذى لا ينتهى ويؤدى حتما ومباشرة الى شتى أوجه القوة لأى دولة ، هو قوة العلم وصلاحية التعليم . اذ « ليس ثمة قانون أو شرعة أعظم من المعرفة شأنا » ، و « الجهل خراب الدول » . ان انتشار العلم ، والصحة العملية المتوخاة من التعليم ، تتم على متن نجاح المعلم بمختلف مستوياته فى رسالته ، وهى صناعة الأجيال أخطر الصناعات ، ومن ثم كانت هذه الصناعة أو الرسالة قوة سياسة ضخمة ضاربة . ولكن كم هى صعبة وشاقة ، ولا نظير لها فى ذلك سوى فن السياسة نفسه وأساليب حكم الناس . وموجز القول ، ( فالعلم والمال ) معا هما الأسس والأساس لبناء الدول ، ومن المستحيل أن يكون هذا الأس أو ذاك الأساس ، هو ( الجهل والاقلال ) ، أو واحد منهما .

ان القوة ، بايجاز مقتضب ، هى ماهية الدولة ، بكل ما فى هذه العبارة من معنى . فاذا دخلنا معبد التاريخ المقدس ، والأقدام منا حافية ، وندنو منه بينما هو يدنى مجلسنا ، ونجلس معه فى خشوع ووقار ، وقد أصبح هو نفسه كاهنا تطهر وارثدى أرديته البيضاء ،

## - ١٠١ -

ليسمعنا ما هى حقيقة القوة منذ بدأ ( الحيوان السياسى ) أى الانسان ، سياسة كل أمس وهى تاريخ كل غد ، وباعتبار التاريخ كبير معلمى البشر الخالد ، وخير الرواة الأمناء الصادقين له ، والاسطين العملاق الخبير بطبيعة هذا ( الحيوان السياسى ) ، فلن يقول لنا ولو بصوت خافت وعاتب وحيى ، على الرغم من صوته الجهورى الذى فى مقدوره أن يسمع العالم بأسره ، : « يا قوم ألم تقرأوا على باب معبدى هذا لافتة تقول للبشر عامة : « ويل للضعيف ؟ » . يا قوم ان طبيعة البشر لاتزال فجة غريزة منصرفة عن ( الايثار ) ، وتؤدى التحية فى كل حين للقوة فقط ، ومن ثم فأننى أتلقى بنيران تعسف الانسان ، ولا أقوى الا على الاذعان لطبيعته التى مازالت معتلة فأطيعه فيما أمرنى به ، فلا أفتح صفحة فى سفرى ( بكسر السين ) المقدس ، أو أقلد قلادة من قلاداتى الخالدة ، الا للدولة التى تملأ مكانتها اليوم بالقوة التى تحمى أجيالها الحاضرة،وغدا،وبعد غد،وبطبيعة الحال،فهذه الدولة نفسهاهى التى ستظل تحمى أجيالها المقبلة بهذه القوة نفسها،اذ هى التى ستصبح الوصيةعلى هذه الأجيال التى لم تر النور بعد .

اذن،فكم أصابت بروسيا وقد استحثت أولى الخطأ للسير على درب الرفعة والمجد بالتصدى بقوة وجدية لهذه الطامة القومية الكبرى ، وهى اصلاح نظام التعليم ونشر العلم فيها . أليس التعليم والعلم معا هما وضع حد لفترة تأخر وبداية فترة تحضر ؟ وأليس من شمائلهما الطيبة أنهما يوافيانا بالجميل من الزهر والحلو من الثمر ؟ بلى . ان التعليم بحق هو أهم فصول رواية تقدم الدولة . ومعركته غير المحدودة من أقدم المعارك ، والانتصار فيها لو قورن بالانتصار فى مختلف المعارك الأخرى للدولة من شأنه أن يبين فى الحال للرأى قوة دفع التعليم الضخمة الشاملة لمختلف القوى والقدرات والامكانيات الأخرى فى دولة أو أمة ، ويبقى عليها فتية لا تشيب ، وقوية لا تنعدم ولا تغيب . فيغدو الفرد فى الدولة والمجتمع شبيها أو ندا أو مثيلا للنحلة ، وهى فى صميمها ليست بحشرة صغيرة حقيرة ، وانما هى معلم صالح وقودة صالحة وأسوة حسنة لمن يبصر أو يتبصر . فهى دبيب لا يكل ولا يمل من الحركة والنشاط،تجمع أفضلها فى ملكة النبات من رحيق زهر أو نوار ، ثم تقدمه مرة أخرى الى أندادها،

## - ١٠٢ -

أو أفراد البشر عامة ، طعاما وغذاء أو دواء . وهكذا تقضى حياتها ترف لى تؤدى واجبها الذى خلقت من أجله وأنيط بها ، مع حرصها الشديد من أن تمسها قذارة أو نجاسة . وان مسها من هذه أو تلك ولو فتيل نحيل ، فانها تقضى على نفسها بنفسها فى التو واللحظة ودون مباحة ، باللاعودة الى الخلية ، فهى كنها ووطنها الذى يجب أن يظل نظيفا كريما .

وطالما أن المعروف أننا من على ضفاف النيل الخالد قد علمنا العالم وهو لا يزال يحبو (حضارة المحراث) أى (حضارة الثورة الخضراء) ، فيمكن لنا أن نقول بلغة هذه الحضارة ان التعليم هو فلاحه المجتمع ، وشأنه فى ذلك شأن فلاحه الأرض والنبات ، فهو الذى يجعل تربية المجتمع بيئة ثقافية حضارية منيرة ومستنيرة ، فتصبح خير مشتهى عند الحاكم والمحكوم على السواء ، مما ييسر المواءمة بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة ، ويكفل للأفراد والجماعات على اختلافهم طاعة القانون ، ومراعاة الآداب العامة والخلق الكريم . ليس المعلم الصالح ، وهو القدوة الصالحة والأسوة الحسنة ، هو المضغة فى جسم الأمة أو الدولة ، والمضغة هى القلب ، وهذه المضغة هى التى اذا صلحت صلح الجسم ، واذا فسدت فسد الجسم برمته ؟



أدركت بروسيا أهمية هذه المتطلبات وجدواها ذات النطاق الواسع ، فوفرتها لنفسها وحققتها على ضفاف مجرى حياتها . وتبعاً لذلك أخذت تباعا تقطف من قطوفها الدانية وقد أصبحت بين يديها وفى متناولها بيسر ، بعدما قطعت رحلة الألف ميل بالخطوة الأولى وهى اصلاح التعليم ونشر العلم حسب ما سبق من قولنا . وكان من أهم ما ترتب على ذلك وأخطره وأخصبه تواجد الاقتصاد القومى القوى ، والجيش المدرب والمدمج والعمرم ، والذى قادته عبقریات عسكرية بروسية من أمثال ( مولتكى ) Moltke ، فى ظل قيادة سياسية فذة عقدت لمارد دبلوماسى كان فنانا سياسيا أبعد أفانين السياسة ، وأجساد أساليب الدهاء ، وبرع فى صنع شباك ( بكسر الشين ) الاحلاف ، وبز تماما كل نظيره له فى انتحال أدق الذرائع لتبرير حروبه . فكان رجل دولة أبرز الكثير من حذقه فى ارتداء أردية السياسة القدرة من أجل بلاده . وقد صرح

ذات يوم بذلك على مسمع من (ترايتشكى) وهو معه قائلا له : « يجب أن نعترف بأن ملابسنا لم تكن على الدوام أنظف الملابس ! » ومن عساه أن يكون هذا المارد القائد أو القائد المارد ؟ انه ( بسمارك ) وكفى . وانها الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ التى خاضها من أجل الامبراطورية الألمانية ، والوحدة الألمانية ، هى التى أظهرتنا بوضوح - دون زخرف من زخارف السياسة التى تفوق ألوان الفيسفاء أو زخارف الزجاج الملون ، أو ألوان ذيل الطاووس التى يسحر بها أنثاه - على ما كان الألمان قد حققوه بالفعل بفضل المعلم الصالح والقُدوة الصالحة ، وما أدركه العلم والعلماء والمعلم حينذاك ، من تقدير وتشجيع ، حتى أصبح المعلم والعلم عندهم بالفعل واسطة عقد التقدم والنصر على صدر المانيا ، فلم يعد المعلم مجرد رائد معركة التنوير والاستنارة وكفى ، وانما أصبح أيضا السر الدفين والخطر للانتصار فى الحروب واحراز النصر فى المعارك !

وهذه هى الحقيقة التى كشف لنا عنها وللعالم فى نهاية هذه الحرب التى انتصرت فيها ألمانيا على فرنسا ، أسطين من أكبر أساطين العسكرية الألمانية حين سمع القائد الفرنسى المهزوم يقول ، وهو يقف بجانب القائد الألمانى ، ويمر أمامهما الجيش الألمانى وهالات النصر تتوج هامات أفراداه : «حقا، لقد هزم الجيش الألمانى الجيش الفرنسى!» ولكن ما طرقت كلمات القائد الفرنسى مسمع هذا الأسطين العسكرى الألمانى ، الا وانطلق كمَدفع من مدافع ( مولتكى ) التى ذاع صيتها فى الأوساط العسكرية الأوروبية حينذاك يقول : « لم يهزم الجيش الألمانى الجيش » « الفرنسى وانما المعلم الألمانى هو الذى هزم المعلم الفرنسى » . فكان هذا الأسطين تبعا لمأثورته هذه ، خير من أنبأنا بهذا السر الخطير ، فعدا (جهيزة) التى قطعت قول كل خطيب ، و (جهينة) التى عندها النبأ اليقين! ولا غرابة، فما أعظم شأن التعليم وانتشار العلم فى بناء عظمة الأمم، فهما الطاقة التى تقوى الدول وتوطدها ، فلا تفتقر دققة ، أو ثائية ، أو ثالثة ، عن ملء مكانتها ، وشغلها بكل نفيس من نفائس المجد والرفعة ما أمكن . وأقول ما أمكن ، لأن السياسة فن صعب الا أنها هى ( فن الممكن ) لافن المستحيل .

## - ١٠٤ -

أجل ، العلم والمعلم والتعليم ، هي أكفأ الآليات لدولة لكي تملأ مكانتها ، وتدجج نفسها بأقوى الأسلحة المتعددة ، ومنها قوة جيش مظفر . وهذا ما ترتب عليه تقدم التعليم في ألمانيا وانتشار العلم ، وسبقها في فروع الصناعات الكيماوية والصناعات الكهربائية ، والتنظيم والتخطيط ، وزيادة كميات الفحم الحجري فصارت أضعاف ما كانت عليه . كما زادت كميات الحديد المستخرج من لوكسمبورج واللورين . وطورت منطقة وستفاليا لتضارع نظيرتها في هذا الشأن في إنجلترا . وضاعفت إنتاجها من الحديد والصلب . ونوعت حرف أبنائها ، ووسعت نطاق صناعاتها البحرية ، فأكثر من عدد سفنها في المحيط الهندي وموانئ أفريقيا . وازادت من حمولة السفن التجارية عندها بين عامي ١٨٧٠ - ١٨٩٠ حتى صارت سبعة أمثال ما كانت عليه من قبل . الخ . هذا ، وكان ذلك يتم بينما الموسيقى الألمانية تشنف آذان هواتها ومحبيها في أوروبا ، من خلال موسيقى (فاجنر) Wagner وكل (أوبرا) جاءت بها عبقريته الموسيقية في احتفالات بيرويت Bayreuth الموسيقية . فموسيقى ألمانيا كانت قد عرفت كل مكان في أوروبا ، وغدت أجور سماعها أرخص في ألمانيا منها في فرنسا ، وتملأ جو ألمانيا بصورة أوسع منها في إنجلترا . والحقيقة أن موسيقى ألمانيا أصبحت في ألمانيا أشجى منها في أي جهة أخرى ، ما خلا فيينا .

وعلى ذلك ، فلما كانت الدولة ، باعتبارها « الشيء العظيم الأوحده » (١٨) ، الذي يشغل أعلى وظيفة اجتماعية « تمثل الفكرة العامة في المجتمع » (١٩) ، وهي التي تقرر « بعض المبادئ العامة التي يسلم الناس بها كافة » ، و « نظام التعليم هو الذي يكفل الجزء الجوهرى في الدولة الصالحة » (٢٠) ، ويسلم الناس جميعا به ، وخصوصا أنه « الوسيلة الايجابية التي يستطيع بها الحاكم تكييف الطبيعة البشرية على النحو «الكفيل بايجاد دولة متجانسة» (٢١) ، اذ هو « درب أعداد النشء على « الولاء الروحى الشامل الذى يحق للدولة أن تتطلبه » (٢٢) ، وذلك « من أجل توفير أقصى قدر مستطاع من الوحدة داخل الدولة » (٢٣) ، هذا « ومشكلة الدولة الفاضلة ومشكلة الرجل الفاضل ليسا الا وجهين « لموضوع واحد ، والاجابة عن أحدهما يجب أن تكون فى آن واحد «

« اجابة عن الآخر » (٢٤)، والدولة فى صميمها ( منظمة تعليمية ) ١ ،  
هذا من جهة ...

ومن جهة ثانية ، فلما كانت الشعوب فى جملتها معتلة ، والطبيعة  
البشرية معتلة ، وهذه الطبيعة « تتطور دون أن تتغير » ، وغرائز  
( الأثرة ) أقوى من غرائز ( الايثار ) ، « والأثرة تشوه طبيعة أعظم  
الاستعدادات وتشل حركتها » ، بينما الايثار اذا توفر فى المجتمع ،  
يبنى بالطمأنينة والمودة والرضا والحب ، ( بيوت الحياة  
السعيدة ) ، كما أننا نجد أن « السعادة الوحيدة التى تتفق مع  
طبيعة الانسان توجد فى الاخلاص وانحب » (٢٥) ، والفرد أو الجماعة  
عادة لا يسأم الواحد منهما من الحب ...

ومن جهة ثالثة ، فلما كان الذكاء لا غنى عنه فى حياة الفرد  
والجماعة ، من حيث ضرورته فى بناء الرجل الصالح والدولة الصالحة  
... ولما كان ما يصنعه العقل المستنير بالعلم والمعلم القدوة الصالحة  
والأسوة الحسنة ، من أقوى القوى السياسية فى مجتمع دولة أو أمة من  
الأمم ، « وذلك لقدرة الذكاء الواسعة فى حل مشاكل المجتمع ، بشرط أن  
يصلح تعليمها ، وأن تستطيع فى يسر أن تتبين حل الصعوبات التى  
تعترضها وتواجه الشدائد عند قيامها » (٢٦) . هذا ، ولا يخفى أن  
« الذكاء ( أداة عامة ) يمتد استخدامها الى مالا نهاية له » (٢٧) ،  
والتقدم العقلى أوسع نطاقا من جميع أنواع التقدم الأخرى المادية ...

فاذا كانت هذه المقدمات جميعها كذلك ، وعلى الرغم من ذلك ، وفضلا  
عن ذلك ، فاذن ، لا مندوحة فى أن نسلم بأن التقدم الخلقى ، والذى يجىء  
مع انتشار العلم والتعليم ، وهو فى الوقت نفسه أول ما يصطف فيه المعلم ونظام التعليم  
باعتباره واجبا لهما تستهدفه العملية التعليمية ، اذ هو أكثر أنواع التقدم  
أهمية ، وذلك لدوره الهام فى سعادة الفرد والجماعة ... وخاصة وأنه ثبت  
أنه ليس ثمة « تفوق عقلى يعادل فى قيمته التفوق فى الخير  
والشجاعة » (٢٨) . اذن ، « فلو كنا عقلاء لوجب علينا أن نتجه كل  
« جهودنا الى هذه الناحية ، ولوجب على الأقل أن نتذكر دائما » أن انواع

## - ١٠٦ -

« التقدم الأخرى ليست سوى مجرد وسائل ، وأننا نرغب فيها على »  
 « اعتبار أنها وسائل » أما التقدم الخلقى فهو غاية فى حد ذاته « (٢٩) ، »  
 اذ هو منتهى غايات المعلم والتعليم ، وهو السيد الوحيد لجميع أنواع  
 التقدم الأخرى ، وأكبر كفيل يحقق طاعة القانون باعتباره الأخلاق  
 الصغرى ، وطاعة الأخلاق باعتبارها القانون الأكبر . على الرغم من  
 أن التقدم الخلقى أصعب أنواع التقدم من حيث السيطرة عليه .

وصفوة القول فيمكن بنظام تعليمى ممتاز أو جيد تحقيق كل تقدم .  
 « أما ان أهمل التعليم ، فان أى عمل آخر تؤديه الدولة يكون غير ذى »  
 « شأن » (٣٠) ، اذ « آفة الدول خطأ نظمها التعليمية » (٣١) ، كما  
 أظهرت التجارب من قديم الزمان .



وهنا نعود الى ( كانت ) . وقد يتراءى للبعض أننا قد استطرنا  
 بلا مسوغ الى أهمية التعليم والعلم الكبرى ، بينما كنا نتحدث عن تكوين  
 ( كانت ) الروحى بدءا من ميلاده وطفولته المبكرة ، فى وقت ارتدى  
 نظام التعليم فى بروسيا أقدر الأردية ، الى حد أن وصم واقعه بشتى  
 الوصوم ذات الألوان القذرة الحالكة ، وبات غثا غثاء مشينة مزدرة ،  
 فغدا طامة قومية كبرى ، وأضحى اصلاحه أعقد من ذنب الضب . وقد  
 يكون هذا الذى تراءى للبعض صحيحا من ناحية الشكل والظاهر فقط ،  
 اذ كان همنا الكبير والأصيل هو الوصول الى تلك الماثورة  
 التى جاءت على لسان ذلك الاسططين العسكرى البروسى  
 الخبير ، لتوضح لنا الحقيقة فى شأن التعليم البروسى وقد أصلح نظامه ،  
 واتضح لهم ولغيرهم أنه الآلية السحرية فى بناء الأمم وعظمتها فى  
 السلم والحرب على السواء . فلولا اصلاح التعليم فى بروسيا والوصول  
 بصانع الأجيال الى أن يكون فى جوهره ضميرا وقدوة صالحة وأسوة  
 حسنة ، ولولا فتح جميع نوافذ بروسيا للعلم ، ما كان لبروسيا هذا الجيش  
 العرمرم . وما كان لهذا الجيش هذا النصر العظيم على جيوش فرنسا .  
 وما كان لبروسيا على لسان ( بسمارك ) فى الصلح بين فرنسا وبروسيا  
 فى فرانكفورت ( ١٠ مايو ١٨٧٠ ) أن يقطع ( الألزاس ) Alzase  
 وجزءا كبير من ( اللورين ) Lorraine من فرنسا . والأدهى والأمر ،



ما كان لبسمارك أن يشترط على فرنسا ، أن « تطيب ( بضم التاء وفتح الطاء وكسر الياء وتشديدها ) خاطر الجيش البروسى بأن يحتل باريس ! » ، كما يحدثنا ( فيشر ) فى كتابه : ( تاريخ أوروبا الحديث ) . هذا ، وماكان لبسمارك أيضا أن يعلن قبل اسنسلام باريس بعشرة أيام ، قيام الامبراطورية الألمانية فى ١٨ يناير ١٨٧١ ، ( من قاعة المرايا بقصر فرساي فى باريس نفسها ) ، والتي كان لويس الرابع عشر ، قد نقش فيها شعاره الذى يقول : *Nec Pluribus Imper* ، أى « شمس لا تدانيتها شمس مجتمعة ! » .



وحين نستأنف العود الى ( كانت ) لنستعرض لوحاته فى مرسومه الفكرى التى رسمها بريشة فكر متميز دقيق وألوان خالصة نقول : كتب ( كانت ) فى الميتافيزيقا وأجاب فى كتابه ( نقد العقل الخالص ) عما يمكن أن ( نعرفه ) . وكتب فى الأخلاق فى كتابه ( نقد العقل العملى ) وأشباهه فى الموضوع وأجاب عما يمكن أن ( نعمله ) ونؤمن به وحيث رأى ألا قيام للأخلاق الا على هدى العقل وحده ، فهو مصدر الالتزام الخلقى ومن ثم أضفى على الأخلاق الصفة الارادية العقلية ، وجعل القيمة الاخلاقية للفعل عنده تكمن فى الارادة والعقل . ويلاحظ أن العقل عنده « لا يعترف بقاى آخر غير العقل نفسه » ( ٣٢ ) . فهو عنده « الكفيل بأن يوصلنا الى « المعرفة الصحيحة التى تظهرنا على حقيقة الأشياء فى ذاتها ، بينما « ادراك الحس لا يكفل سوى ادراك الظواهر فحسب على طريقتنا « الخاصة » . وانه « العقل هو الذى يجب تحكيمه فى جميع أعمالنا » . وعلى ذلك جاء ( كانت ) فى الأخلاق بـ ( الواجب ) و « الارادة الصالحة » و ( الأمر المطلق ) . . . الخ . وفى السياسة قدم لنا ( الحرية ) و ( العدل ) و ( النظام الجمهورى والملكية الدستورية ) و ( الجمهورية العالمية ) و ( تحالف الشعوب ) و ( السلام الدائم ) ، من أجل ( الانسانية ) كقيم وغايات نهائية . وجميع هذه الأفكار دمغها بالعقل فى شتى آثاره ، سواء فى ( نقد العقل الخالص ) ( ١٧٨١ ) ، أو فى ( تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ) ( ١٧٨٥ ) ، أو فى ( نقد العقل العملى ) ( ١٧٨٨ ) ، أو فى رسالته ( مشروع السلام الدائم ) ( ١٧٩٥ ) . . . الخ . ومن ( نقد

## - ١٠٨ -

العقل الخالص ( نز دستور الأخلاق وانبثق ، فصاغ ( كانت ) قانونه الأخلاقى .

فما هو هذا القانون ؟ ان المبدأ الأخلاقى عند ( كانت ) هو ( الارادة الصالحة ) . أما القدرات الأخرى من ذكاء ، أو ثروة ، أو جاه ، أو خلاف ذلك ، فلا تدخل تحت سماء ( الخير ) ، فهذه أمور لا تحدد طريقة استخدامها ، فهي مجرد وسائل قد تتخذها ( الارادة ) لتحقيق غايات غير أخلاقية ، فجوهر ( الأخلاقية ) هو ( الارادة الصالحة ) ، وهى فى حد ذاتها وحقيقتها ( الخير ) ، حتى لو عجزت عن تحقيق قصدها . فالمطلوب فى حرم الأخلاق ، أن يبذل الانسان منتهى جهده الى حد الا يبقى فيه منزع لتحقيق ( الارادة الصالحة ) الخير والخلق الكريم .

وما ( الارادة الصالحة ) ؟ هى الرغبة الخالصة فى العمل طيبا ( للواجب ) دون أن تكون هناك غاية أخرى ، حتى ولو كانت هذه الغاية فائدة تجنى أو نفع يبتغى ، فكلا النفع والفائدة فى هذا الشأن غير أخلاقى عند ( كانت ) . و ( الارادة الصالحة ) لا تظهر نقية خالصة الا اذا حدث صراع بينها وبين الغرائز الفطرية والميول الطبيعية ، ووجدنا ( الارادة الصالحة ) تصر على ( الواجب ) والقيام به ، احتراما لهذا ( القانون كغاية ) . وانه العقل وحده هو الباعث الى هذا الاحترام . فبالنفس كثيرا ما تميل الى احترام كبير ( بكسر الراء وتنوينها ) وتوقيره ، وقد أصبح ( بالفضيلة ) مثالا لاحترام ( هذا القانون ) .

وهل هناك ( قانون ) ؟ ان جميع ما فى الطبيعة يخضع لقانون أو قوانين تعمل بموجبها . والانسان وحده ودون غيره هو الذى اختص بالعقل ، فهو وحده صاحب هذا ( العقل ) وصاحب ( الارادة ) ، وله ( قانون ) . ولما كان الانسان أسير دوافع حبسية فى نفسه ، وهى تتعارض مع هذا ( القانون ) فلا بد من أن يكون هذا ( القانون ) ( أمرا ) ، بل و ( أمرا مطلقا ) ، وأن ينطوى على ( كلية القانون بصفة عامة ) ، والعمل به كضرورة ، وأن يطابق هذا العمل القاعدة الأخلاقية .

والقانون بدوره لا يكون قانونا دون أن يكون ( شاملا ) و (كلية) .  
وتبعاً لذلك يجب أن يكون ( الأمر المطلق ) ( كلية ) ، وأن تأتمر  
( الإرادة الصالحة ) بأمره . وبناءً على ذلك نجد ( الأمر المطلق )  
يقول لنا أولاً : ( اعمل دائماً بحيث يكون في مقدورك أن تجعل من  
قاعدة عملك ( قانوناً كلياً ) للطبيعة ) . وثانياً : ( اعمل دائماً بحيث  
تعامل الإنسانية في شخصك وفي أشخاص الآخرين كغاية وليس كمجرد  
واسطة ) . وثالثاً : ( اعمل دائماً بحيث تكون إرادتك ، باعتبارك كائناً  
ناطقاً ، الإرادة المشرعة الكلية ) (٣٣) . وموجز ذلك : أنه ينبغي بذل  
( نعمل ) كما لو كان الفرد منا ( مشرعاً للقانون ) ( بضم الميم وفتح  
الشين وكسر الراء مع نشديدها ) ، دون أن يكون للعمل غاية أخرى  
سوى ( الإنسانية ) ، وألا يكون وسيلة لقانون يفرض على الفرد من خارج  
ذاته . فالإنسان هو الذي يجب أن ( يشرع ) القانون . ( ولا شك أنه  
ما من إنسان فإن نطق بكلمة أعظم من هذه الكلمة التي يقولها  
( كانت ) ، وتعبّر عن مضمون فلسفته كلها ، ألا وهي « حدد لنفسك  
بنفسك » ) (٣٤) . وجدّير بالذكر أن الشاعر الألماني الكبير ( شيللر ) في  
مقاله الشهير عن ( الرقة والكرامة ) أخذ على ( كانت ) ما في فكرة  
( الواجب ) عنده من صلابة وقسوة . قال ( شيللر ) : ( إن فكرة الواجب  
في فلسفة ( كانت ) الأخلاقية ، تتميز بصلابة تفرع منها العواطف الرقيقة ،  
وقد تغرى في سهولة ضعف الفهم ، إلى أن يبحثوا عن الكمال الخلقى  
في زهد الرهبان ) (٣٥) . وهذه الفكرة نفسها كانت موضع نقد  
( شوبنهاور ) لها .



ومما سبق ، فلا مندوحة في أن نتنبأ بأن ( كانت ) وهو يعالج  
موضوع السياسة سينحى إلى ( تخليقها ) moralisation ، وهذا أمر غير  
مستغرب ، فـ ( كانت ) هو الذي امتلأت نفسه بـ ( القانون الأخلاقى ) ،  
وهو الذي جعل من الفرد في حرم الأخلاق ( مشرعاً ) لنفسه ،  
وهو يحيا حياته .

أليس ( كانت ) هو الذي خف في أواخر حياته قبل وفاته عام

١٨٠٤ ليضع كتيبه ( مشروع للسلام الدائم ) ويوضح فيه مع بعض التفصيل ، ما كان قد رآه فى كتابه ( المبدأ الطبيعى للنظام السياسى ، باعتباره متصلا بفكره تاريخ سياسى عالمى ) ؟ ( ٣٦ ) .

أما فى الكتاب الأخير السالف الذكر ، فنجد أنه يتجه الى الطبيعة ليفسر نهجها فى تطوير حياة البشر ، اعتمدا على ما فى فطرة الانسان من صفات غير اجتماعية وعلى الرغم منها ، بينما الانسان ينشد التقدم على منوال الكفاح باعتباره رفيق التقدم . فهو يرى أن هذه الصفات لابد من وجودها فى فطرة الانسان ، اذ لو غابت هذه الصفات عن هذه الفطرة لانعدمت تماما ( فردية ) الانسان ، وانعدم التحدى والمنافسة ، فيأس ويركد تيار الحياة ويجمد ، فالمنافسة والتحدى ضرورتان لازمتان لتطوير الفرد وتنمية قدراته . فبدون ( الصفات غير الاجتماعية ) هذه ، قد يعيش البشر عيشة الرعاة بكل معنى الكلمة فى ( وئام تام ورضا كامل ، ولكن جميع مواهب البشر ستظل فى هذه ) ( الحالة كامنة الى الأبد . فشكرا اذن للطبيعة على هذه الصفات ) ( غير الاجتماعية ، ولهذه الخيلاء والغيرة اللتين تتسمان بالحسد ) ( والرغبة فى التملك والقوة ، ويستحيل ارضاؤهما حتى الثمالة ... ) ( ان الانسان يريد الوئام ، ولكن الطبيعة تعلم بصورة أفضل ما هو ) ( الخير للجنس البشرى ، ومن ثم تريد الصراع ، حتى يمكن للانسان ) ( أن يساق الى مران جديد لقدراته ، والى تنمية مواهبه الطبيعية الى ) ( درجة أبعد ) . اذن ، الصراع من أجل البقاء ليس كله شرا .

هذا ، وبينما الانسان يتدرج على سلم التطور فى خضم الصراع ، سرعان ما يتبدى له شيئا فشيئا ، أن الصراع يجب أن تضبطه قوانين معينة ، وتنظمه ضوابط محددة وتحكمه ، وهنا ينبثق أصل ( الجماعة المتمدينة ) ويتواجد . وبالمثل وعلى المنوال نفسه ، يتبين له أيضا أن الحرية التى كانت تراوده أصبحت بالنسبة له حرية مازالت تتوجس الخوف فى العلاقات الدولية ، حيث لا ضابط يحكمها . فكل دولة مازالت تتوجس من عدوان يقع عليها ، وتصطلى مع الجميع بفرع أسطورى ينصاعون له بصورة عامة ، فتأخذ كل دولة فى التفكير فى أن هذا الموقف

يدفعهم الى أن يدخلوا مع بعضهم بعضا فى اتحاد مدنى ينظمه القانون (٣٧) للخروج من هذا القلق الذى يدور حول توقع العدوان على أى منها فى أى لحظة . ويتضح لهم أن هذا الموقف قريب جدا من ( حالة الحرب ) . ومن ثم يأخذون فى التعاقد على التخلص من هذا القلق بنبذ العدوان من أجل الحفاظ على السلام . وفى هذا المقام يستشهد ( كانت ) بالطبيعة ، أو ( الفنانة العظيمة ) كما يحلو له أن يسميها ، ويستند الى مجراها الآلى نفسه الذى يدعو البشر الى السلام . فهى ( على الرغم منهم غايتها أن تبسط على الناس جناح الوفاق والوئام ) . فماء ( الوفاق ) الفرات ينبع من هضاب ( الشقاق ) ، وماء ( النظام ) الرقراق ينبع من بين أحجار ( الفوضى ) . أليست الطبيعة هى التى ملأت رحاب الأرض بشعوب مختلفة عاشوا معا ويعيشون معا ، وقد تحسسا معا السبيل الى انجاز مصالحهم المشتركة؟ (٣٨) . وفى هذا الموقف يشد من أزر الانسان وعزمه ، أنه حين يستقرىء التاريخ فى جملته ، يظهر له ويتبين أن خط تطور التاريخ ينحو باستمرار نحو زيادة مضطردة فى نبذ الحرب ، والعزوف عنها ، للخروج من هذه الحالة الفوضوية المروعة . وهذا المنحى يدلنا على أن هناك فكرة كامنة فى الطبيعة تسوقنا الى أن نضع دستوراً سياسياً كاملاً ، سواء فى الداخل أو الخارج ، وذلك بتنمية كاملة منا لهذه القدرات التى غرستها الطبيعة فىنا (٣٩) من أجل ذلك . وهذا واجب الانسان الذى يجب أن يقوم به ، وهو واجب فى الامكان . وإذا لم نحاول القيام به محاولة جادة ، فلن يكون التاريخ أكثر من جنون لا نهاية له ، وحينئذ ( قد نفترض مثل الهنود أن الأرض مكان للتكفير عن خطايانا القديمة التى أتى عليها النسيان ) (٤٠) .



اذن ، فـ ( كانت ) لا يسمنرىء الحرب فى قليل أو كثير ، ويعبدها ويلا ثقيلاً من ويلات البشرية ، ومن ثم فهو يستنكر فكرة ( الجيوش الدائمة ) ، ويرفع صوته مع الاجيال يشكو مر الشكوى من أن الحكام يرصدون جميع مواردهم لحساب الجيوش الدائمة والحرب القادمة ، بدلا من تدعيم التعليم العام باعتباره خطوة من خطوات التمددين . وقد عبر

## - ١١٢ -

عن ذلك قائلا : ( اشتكت الأجيال مر الشكوى من أن الحكام لا مأل عندهم لكى ينفقوه على التعليم العام ، لأن مواردهم قد رصدت لحساب الحرب القادمة ، فالشعوب لن تتمدن حقيقة حتى تلغى جميع الجيوش الدائمة الغاء تاما على مر الزمان ) . وكما يشهد قوله هذا مع غيره من الأقوال فى الشأن نفسه على شجاعة ( كانت ) ونزاهة رأيه ، اذ ( بروسيا ) فى عهد ( فردريك الأكبر ) كانت أول دولة تأخذ بنظام التجنيد الاجبارى ، بينما ( كانت ) كان يستنكره على أساس أن ( الانسان ) قيمة فى حد ذاته وغاية ، وليس وسيلة لقيمة خارج ذاته . هذا ، ووجود جيش دائم لدولة يحفز غيرها الى التسابق فى التسلح ، وإلى القيام بحرب هجومية للتخلص من نفقات باهظة لجيش دائم . ومن شأن ذلك أن يظل العالم يعيش فيما يبدو أنه ( السلام ) ، بينما الحقيقة أن هذه الحالة ما هى الا ( هدنة مسلحة ) . وهذه ( الهدنة ) أشد وطأة على الدول من ( الحرب ) ، وخاصة أن الحرب قد لا تكون طويلة الأمد أحيانا . وفى هذا الصدد ، لا يفوت ( كانت ) أن يتحفظ من أجل دفاع الدولة عن نفسها ضد العدوان عليها فيقول : ان التدريب العسكرى لمتطوعين لا يتنافى مع الأخلاق ولا يجافىها .

وعلى ذلك ، كان من الطبيعى أن يندد ( كانت ) بتلك الدوافع العسكرية التى دارت بقوة فى دول أوروبا وقتذاك ، وهى تستهدف ( التوسع ) : فى أمريكا ، وأفريقيا ، وآسيا ، بغية ارضاء شهواتها فى المغانم والأسلاب ، فيقول : ( لو نظرنا الى المسلك غير الكريم الذى ) ( تسلكه دول أوروبا ( المهذبة ) ، وبخاصة الدول التجارية ، لاستولى ) ( علينا الفزع من هول المظالم التى ترتكبها تلك الدول فى (زيارتها) ) ( للبلاد والشعوب الأجنبية ، ( فالزيارة ) عندها مرادفة ( للغزو ) ) ( و (الفتح) . فالذين اكتشفوا البلاد الأجنبية ، وبلاد الزنوج ، وجزر ) ( التوابل ، والكاب ، وجزر الهند الشرقية ، والهندوستان ، واستقدموا ) ( اليها قوات أجنبية بدعوى انشاء مكاتب تجارية ، ضيقوا الخناق ) ( بهذه القوات على المواطنين ، وأضرمو نيران الحرب بين الدول ) ( المختلفة فى تلك البقعة الشاسعة من العالم ، ونشروا فيها الجوع ، ) ( والتمرد ، والخيانة ، وما الى ذلك من شرور وآثام ) (٤١) . ويقول

( كانت ) مرة أخرى منددا بالاستعمار : ( ان المرء يهتز لهول  
( المظالم التى تفرضها الحكومات التجارية ، أو الدول ذات العصبية )  
( الدينية ، باسم المدنية ) ( ٤٢ ) .

ويرجع ( كانت ) هذا التوسع الأوروبى الاستعمارى ، الى  
الساتير غير الجمهورية ، والساتير الملكية غير الديمقراطية ،  
التي لا تصلح لأن تكون بمثابة دعائم ( للسلام الدائم ) ،  
لأن الساتير الجمهورية والساتير الملكية الديمقراطية عنده هي  
التي تعتبر بحق دون غيرها دعائم للسلام الدائم . ففي ظلها يكون  
الفرد مواطناً بمعنى الكلمة ، وفيها يحيا المواطن حياة تستحق الحياة ،  
وفيها يعيش حراً كريماً لا يعتدى أحد على حريته أو يستخف بكرامته ،  
أو يمتن انسانيته . وفيها يمارس المواطنون حقوقهم فى  
اعلان الحرب أو عدم اعلانها . اذ قرار الحرب ( لا يمكن اتخاذه الا برضاء  
المواطنين ) ( ٤٣ ) . وبعبارة أخرى ، ففي ظل النظام غير الجمهورى أو  
غير الديمقراطى ، لا مندوحة للتاريخ من أن يظل يكتب بالدماء ، نتيجة  
لأن السيادة فيهما غير منوطة بالمواطنين والشعب ، وانما الحاكم المطلق  
الشمولى هو الذى يحكم بمفرده ، وهو الذى يملك بمفرده ، وهو الذى  
يتصرف بمفرده . وتبعاً لذلك لا يضيره فى شيء أبدا اعلان الحرب . اذ  
هو لن يصطلى بنارها ، وهو ( لا يخشى أن وقعت الحرب أن تؤثر على  
مائدته ، أو فى قنصه ، أو فى دور لهُوه ، أو فى حفلات بلاطه ، الى  
آخر ذلك ) ( ٤٤ ) . فالحاكم الشمولى المطلق هو وحده الذى ( يستطيع  
أن يقرر الحرب ، ولو لأوهى الأسباب ) ، ثم ( يترك مهمة  
تبريرها لرجال من دبلوماسيين ، وهم دائماً على استعداد لذلك ) ( ٤٥ ) .  
هذا ، وفى ظل النظام الجمهورى أو النظام الملكى الديمقراطى ينفسح  
المجال أمام الحكومات لتحقيق الرفاهية والرخاء للمواطنين أفراداً  
وجماعات ، لتنمية المواهب والقدرات الفردية ، والسهر على الحفاظ  
على حرية الأفراد وكرامتهم على أعلى مستوى ممكن . ويبرر ( كانت )  
ويسوغ أفكاره هذه على أساس أن ( الانسان ) ( غاية ) و ( قيمة ) الى أبد  
الابد . اذ هو يرى أن ( كل رجل يجب أن يعامل كـ ) ( غاية ) فى حد  
ذاته وليس كـ ( وسيلة ) ، لأنه ( روح حرة خالدة ، وله قيمته التى تعزى

الى حرية ارادته ، وانها لجريمة ضد الكرامة التى تخصه كـ(انسان )  
 أن يستخدم وسيلة لغرض خارج ذاته ) (٤٦) . والحقيقة أن ( كانت )  
 قد اهتم بالأخلاق الاهتمام كله ، من أجل هدف واحد ووحيد هو كمال  
 الانسان ، فجعل منها خير ذخيرة ( تكفى نفسها بنفسها ) ، وجعلها  
 ( تقود حتما الى الدين ) ، وجعل الايمان ( يقوم فى أخلاقية الانسان )  
 كما سبقت الإشارة ، وجعل ( الارادة الصالحة جوهر الأخلاقية )  
 حتى لو عجزت عن تحقيق قصدها الخير طبقا ( للواجب ) كضرورة  
 لابد منها ( للعمل ) احتراماً لذات (الواجب) نفسه دون خوف أو تردد .  
 وجعل جميع هذه الآراء والأفكار مواد أساسية فى  
 دستور الأخلاق عنده . فاذا ( يعلم الأخلاق ) كما يراه ، هو علم العمل  
 الذى يجمع القوانين المطلقة التى ينبغى بنا أن نعمل وفقاً لها . وتبعاً  
 لذلك رفض السلوك المتناقض والمشين لفرد يسلم ( للواجب ) بسلطانه من  
 ناحية ، ومن ناحية أخرى يدعى العجز عن القيام به ، فهذا تناقض من  
 شأنه أن يجرد الأخلاق من فكرة (العمل) وفكرة (الواجب) ويمحقها محقاً .  
 اذ ( الأخلاقية ) عنده مختلفة عن ( القانونية ) التى تعنى فقط العمل  
 طبقاً للقانون . فقد يكون التصرف صحيحاً من الناحية القانونية فقط ،  
 بينما هو غير أخلاقى لا يتفق مع ( الأخلاقية ) . فامتناع الفرد عن  
 الجريمة انما هو طاعة للقانون كغاية ، وهذا الامتناع يمكن تبريره بتبريرات  
 كثيرة ، كالخوف من الاعتداء على غيرنا ، أو الخوف من العقاب ، أو  
 الخوف من الاستهجان الاجتماعى . . . الخ ، وعلى ذلك فهو ليس بفعل  
 أخلاقى . ولكى يكون (أخلاقياً) يلزم أن (ينوى) فاعله القيام به ، بأن  
 يحدث نفسه من الداخل قائلاً : ان واجبى يقضى على ألا أجرم احتراماً  
 ( للواجب ) و ( العقل ) ، وبذلك يكون ( الفعل ) ( أخلاقياً ) ، ويكون  
 (الفاعل) ( صاحب أخلاقية ) ، لأنه أجبر نفسه وألزمها باحترام القانون  
 الأخلاقى ) ، وهو قانون كلى ، أولى ، ضرورى . وقيمتة ليست فى  
 النتيجة التى تحققت من الفعل ، وليست فى تحقيق غرض الفاعل من  
 فعله ، وانما قيمة ( القانون الأخلاقى ) فى المبدأ الذى يستتبعه فاعل  
 الفعل من ( الارادة الصالحة ) ويقوم بالفعل كـ(واجب) فحسب . وقيمة  
 ( الواجب ) تكمن فى صميم ( الواجب ) نفسه ، بصرف النظر عن أى  
 فائدة من الفوائد ، لأن الانسان عند ( كانت ) هو الكائن الزجيد الذى



يقوم (بالواجب) . هذا و ( قيمة الفضيلة تزداد كلما كلفتنا كثيرا دون أن تعود علينا بكسب ) (٤٧) . فالنفع ، عند ( كانت ) أمر غير أخلاقي ، لأنه ينأى عن ( الارادة الصالحة ) وعن ( الواجب ) ، فالواجب يطلب لذاته .

وإذا كان ( كانت ) قد أعجب ( بالقانون الأخلاقي ) أعجابا ملا نفسه ، فاننا نجده فى كتيبه ( مشروع للسلام الدائم ) يستهل كلامه فى هذا الكتاب بالسخرية اللاذعة من السياسة وقد أدارت ظهرها للأخلاق ، فيتساءل : ( عما قصد اليه صاحب فندق هولندى من نقشه على ناصية ) ( فندقه رسما يمثل ( قبرا ) ! ترى هل قصد بهذا النقش الساخر أن ) ( يوجه اللوم (للناس كافة ) ، أو خص به ( رؤساء الدول ) المتعششين ) ( الى الحروب دائما ، أو خص به فحسب ( الفلاسفة ) الذين يطيب ) ( لهم السلام اللذيذ ؟ ) (٤٨) . وفى الكتاب نفسه نلفاه يرسى ( القانون الأخلاقي ) على مفهوم الحرية ، ثم يتطرق الى الحديث عن العلاقة بين الأخلاق والسياسة ويقول : ( ومن المحقق اذا لم تكن هناك حرية ، أو ) ( قانون أخلاقي يقوم عليها ، واذا كان كل ما يحدث ناتجا عن آلية ) ( الطبيعية المحضة ، فحينئذ تكون السياسة من حيث هى فن استخدام هذه ) ( الآلية للسيطرة على الناس هى كل الحكمة العملية ، وتكون فكرة ) ( الحق لفظا خاليا من المعنى . ولكن اذا رأينا من الضرورى اضافة هذه ) ( الفكرة الى السياسة ، بل وجعلها الشرط المقيّد لها ، فلا بد من ) ( التسليم بإمكان التآلف بينهما . ان فى مقدورى أن أتصور ( سياسيا ) ( أخلاقيا ) ، أعنى رجلا لا يقبل من مبادئ السياسة الا ما تقره ) ( الأخلاق ، ولكنى لا أتصور ( أخلاقيا سياسيا ) يرسم مذهبا أخلاقيا ) ( يلائم مصالح رجل السياسة ) (٤٩) . فالسياسى الأخلاقي حين يلس عيوباً مستعصية الحل ، يقضى على نفسه بأن يبذل أقصى جهده لاصلاح هذه العيوب طبقا للقانون الطبيعى الذى يصنعه العقل ، بينما هو مخالف للحكمة السياسية التى تتفق هنا مع الأخلاق ، وذلك قبل أن يكون عندنا دستور أفضل بديلا للقديم ، وأن يتم ذلك بكل حكمة بعيدا عن اصلاح هذه العيوب بالقوة ، أو على وجه الاستعجال . وكما فى الأمر أن تقوم مطالبة بهذا الاصلاح ، بأن نضعه فحسب أمام الحكومة

كضرورة للإصلاح لابد من القيام بها ، وذلك لكي يتم ( بلوغ أفضل دستور يقوم على مقتضى قوانين الحق ) (٥٠) ، في الظروف الملائمة . فالدستور التشريعي اذا كان مطابقا مطابقة محدودة أفضل من الفوضى التي تنتج عن الاستعجال أو استعمال القوة للإصلاح . فالهدف النهائي انما هو قيام دستور يرتكز على مبادئ الحرية .

أما ( الاخلاقى الاستبدادى ) فيخطئ في مجال العمل والسياسة عندما تسوقه اجراءات وطء العزم على القيام بها في سرعة واستعجال ، ولكن التجربة هي التي تنبئه وترده الى الصواب قليلا قليلا حتى يقترب من الطبيعة لو ابتعد عنها . وهو في ذلك يكون عكس السياسى الذى تساعده عبقريته على أن يجعل الباطل حقا ، ويجعل ما هو غير أخلاقى أخلاقيا ، على الرغم من أن هذا أمر من المستحيل أن يستمر الى الأبد ، لأن الحق حق كل يوم ، و ( الخطيئة خطيئة ولو كانت مبتكرة ) . ومثل هذا السياسى يستخف بالأخلاق تماما ، وهى التي رسمها العقل . والحقيقة أنه واحد من زمرة السياسيين الذين ( يجعلون كل اصلاح أمرا مستحيلا ، وانتهاك الحق أمرا مستديما ) (٥١) . وحجة هؤلاء تجيء براءة في ظاهرها ، الا أنها في حقيقتها مثل فقاعة الصابون واهية سريعة الانفجار . وفحوى هذه الحجة الهشة، وهى بالأحرى حيلة، أن الطبيعة البشرية ( تعجز ) عن أن تحقق فكرة الحق التي رسمها العقل ، على الرغم من أن ( تصورات العقل لا تقبل من ضروب الضغط الا الضغط المشروع القائم على مبادئ الحرية ، فهذه وحدها هى التي تجعل الدستور القائم شرعا شيئا ممكنا ) (٥٢) . وهؤلاء السياسيون عامة وعادة هم الذين ( يشغلون أنفسهم بتملق السلطات القائمة خدمة ) لمصالحهم ، وينزلون الى مناورات لا يتورعون بها عن أن يبيعوا ( الشعب ، بل العالم بأسره لو كان في مقدورهم ) (٥٣) .



اذن ، فكيف يكون الخلاف بين الأخلاق والسياسة أو الاتفاق بينهما عند ( كانت ) ؟ لا خلاف بينهما من حيث الموضوع ، وانما الخلاف بينهما ينز ويتسرب من الناحية الذاتية . ففي صميم السياسة تكمن الانانية . فهى

لا تدع مكانا ( للشرعية ) الخالصة للوصول الى ( ارادة عامة ) دون شائبة ، يمكن أن تصاغ فى صورة عقد لا يقوم البتة على ( قوانين الاكراه ) . وهنا يعرب ( كانت ) عن يأسه فى أن يقوم اتفاق بين الاخلاق والسياسة ، ويقرر أن هذا الخلاف سيظل قائما . ومن ثم نراه يقول : ان هذا الخلاف ( ما أحراه بالبقاء ) (٥٤) ، ليظل بين ظهرانينا دائما ( كالمهماز الناحس ) أو ( الحجر الشاحذ ) يحض السياسة على مراعاة الاخلاق وممارستها، وأن تتخلى عن مبدئها الخبيث بشتى أكاذيبه وحيله غير النظيفة التى تدور حول محور ممجوج واحد ، وهو أن ( فى ضعف الانسان ما يبرر ارتكاب جميع الآثام ) (٥٥) . وعلى كل حال ، فلم يغفل ( كانت ) عن أن يحصر اساليب السياسة المنافية للاخلاق التى تضعها السياسة عادة موضع التنفيذ دون أن تعلن عنها ، وتتخذها بالفعل فى خفية ومواربة وسائل عملية لها .

ومن هذه الاساليب : ( افعل ثم برر ) . و ( اذا فعلت فانكر ) . و ( فرق تسد ) . و ( الشرف السياسى ) : وهو الحيلة التى تدعيها الدول الكبرى لتعزيز قوتها وتدعيم نفوذها فحسب . ومنها ( التحفظ الذهنى ) : وهو الحيلة البارعة التى تعتمد اليها السياسة فى ( تحرير صيغ المعاهدات العامة ، فتحصر على استخدام تعبيرات تستطيع تأويلها لمصلحتها حين تشاء ، كالتمييز بين ( الحالة الراهنة بالفعل ) و ( الحالة الراهنة قانونا ) (٥٦) . ومنها ( الاحتمالية ) : وهى ( التى تفرض سوء النية عند الآخرين ، أو اتخاذ ما يبدو فى امكان تفوقهم سببا مشروعاً لاضناء الدول المسالمة ) . ومنها : ( الخطيئة الفلسفية ) : وهى ( النظرة فى التهام دولة كبيرة لدولة صغيرة ، على اعتبار أنه أمر تافه وهفوة تغتفر ، والزعم بأن فى ذلك أنفعل مغنما للدولة الكبيرة وخيرا عظيما للعالم على العموم ) (٥٧) .

ويتمعن ( كانت ) فى تحليل هذه الاساليب وتفنيدها بالعقل ، ويزنها بأناة ودقة بميزان العدل و ( مبدأ العلانية ) ، وينتهى الى أن كلا منها ( ظلم وخيم ) . ولماذا اختار ( كانت ) ( مبدأ العلانية ) لتقييم هذه الاساليب ؟ ان ( مبدأ العلانية ) هو أساس القرار الصحيح فى الاحكام العادلة وحجر الزاوية فيها . فبدون وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ

لا تتحقق عدالة ، وبلا عدالة لا يصل حق لصاحبه . اذ ( جميع الدعاوى المتعلقة بحق الغير التى يتنافى حكمها مع ( العلانية ) هى دعاوى جائزة ) . اذن سر الخلاف بين الاخلاق والسياسة هو ( الانانية ) التى لا تسمح لـ ( الشرعية ) أن تأخذ مكانها باعتبارها ضرورة فى العلاقات العامة ، ومن هذه العلاقات (العلاقات الدولية)، وهى أشد ما تكون حاجة الى (الشرعية)، ليتيسر لها أن تضع لنفسها قانونا عاما فى صورة عقد تخضع له مختلف الدول ، ( كالعقد الذى تتولد عنه الدولة ) ، أو على الأقل كعقد شركة دائمة حرة ، بعيدا عن ( قوانين الاكراه ) كما سبق القول . ومن شأن ذلك أن يزول النزاع بين الاخلاق والسياسة ، بدلا من انصراف السياسة المتعمد عن الاخلاق ، بل ان السياسة ( تنكر وجودها فى الواقع ) . هذا ، ويجب أن نلاحظ أن ( جميع الأحكام التى تحتاج الى (العلانية) ( لكيلا يفوتها غرضها ) ، توافق الاخلاق والسياسة معا . وانه الحق ، و ( الحق وحده ، هو الذى يوفق بين شتى الأغراض ومختلف الغايات ، وهو فحسب الذى يجعل هذا التوفيق ( أمرا ممكنا ) ( ٥٨ ) . وعلى ذلك اعتبر ( كانت ) هذه الأساليب السياسية مجرد ( علالات ومغالطات ) . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتبرها فى الوقت نفسه بيانات تعلن عن قوة الحق التى لا قوة فوقها ، اذ هى ( تبين على الأقل ، أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من ( فكرة ( الحق ) فى علاقاتهم الخاصة أو فى علاقاتهم العامة ، وأنهم لا يجربون ) على أن يقيموا ( سياستهم ) جهارا على حيل محضة تدعو الى الحيلة ) ( والفتنة ، ولا يتجاسرون على رفض الادعاء لفكرة القانون العام ) ، ( وهذا أمر ظاهر على الخصوص فيما يتعلق ( بقانون الشعوب ) ( اذ يعده ( كانت ) ( فى الواقع كلمة خالية من المعنى ، ويقوم على ) اتفاقات تشمل فى مادة الاستثناءات من عقد ابرامها نفسه على (تحفظ ) ( ذهنى ) ( يقصد به خرقها ) ( ٥٩ ) . وعلى ذلك ( فالسياسة الصحيحة لا تستطيع أن تخطو خطوة الا بعد أداء التحية أولا للاخلاق ) ( ٦٠ ) . و ( الاخلاق هى التى تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة فور وقوع النزاع بينهما ) ( ٦١ ) . و ( الواجب على السياسة أن تنحنى للحق ، وبهذا يقوى أملها فى الوصول ولو ببطء الى مرتبة يتألق فيها سناؤها تالقا موصولا ) ( ٦٢ ) . وجملة هذه الافكار والمفاهيم تشكل المونة

والحجارة ، لكى يقيم الانسان ، حينما يؤتى الحكمة وهى الخير الكبير ، اعظم صرح وأخطره فى حياة الانسانية جمعاء ، وهو صرح ( السلام الدائم ) . وهذا الصرح وتحقيقه ، هما فى حد ذاتهما ، ( مشكلة أخلاقية ) . اذ ( السلام ) كما يراه ( كانت ) ليس بخير ماذى وكفى ، أو أمل مرجو فحسب ، أو مجرد ( حلم لذىذ ) ، وانما هو حاجة وضرورة للبشر المتحضر ، وهو لا يقوم الا على أساس ( تقديس الواجب ) كما رسمه ( كانت ) . فالسياسة ليست كما هو معروف ، مجرد وسيلة لاسعاد البشر ، وانما ينبغى أن تقوم على فكرة ( واجب الحق ) ، الذى قد أعطى العقل مبداه أوليا ( ٦٣ ) ، أى قبل التجربة .



والآن لو تساءلنا عما يبعث فكر المفكر الى التفكير ، والفكر مرتبط عادة بذات المفكر وشخصيته ، وبالروح التى تسود عصره ، فيندفع المفكر الى النظر والرأى ، فان الجواب لن يكون سوى أن نقول : انها هى ( الفوضى ) التى تسوق المفكر الى البحث عن ( النظام ) لكى يقيم نظاما آخر غير الفوضى ذات الصور المتعددة ، التى قد تجرد العقل نفسه من سلطانه ، فتكون الخسارة فادحة والضياع كبيرا . ويجب أن يلاحظ أن المفكر حين يصل الى ( نظام معين ) ، بفضل عقله ، وهو بالذات وبفطرته ( منظم ) ، لابد أن يكون هذا ( النظام الجديد ) نظاما يجذب عقول معاصرى المفكر أنفسهم وأبناء جيله من حوله . وهذا من شأنه أن ينصاع المفكر لفرض الظروف التاريخية والاتجاهات العامة على تفكيره بقدر . وفى الوقت نفسه فعليه أن يحذر من أن تقضى هذه الظروف والاتجاهات على محاولته ايجاد هذا ( النظام الجديد ) والانتهاى اليه . ومما يجب أن يذكر أن المفكرين فى هذه المواقف لا يستهدفون اعادة تنظيم العلاقات البشرية عامة ، سياسية كانت ، أو اجتماعية ، أو خلقية ، بالاكثر من الأحلام السياسية ، أو الأحلام الاجتماعية ، أو المبادئ الخلقية ، وانما هدفهم لا يتجاوز ( اعادة التنظيم ) ، فى قوالب مناسبة يصب فيها ( النظام الجديد ) ، وبغيتهم الأخيرة هو تقدم الانسان ، وتحضر الانسان ، وكمال الانسان ، فى الزمان والمكان .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نختار منها أولا مثال ( هوبز ) Hobbes وتفكيره . فما ساقه الى شق طريق للخلاص من عناء دول أوروبا الذى لحق بها نتيجة لانتشار الحكم المطلق الشمولى فيها لم يكن سوى ( الفوضى ) . وثانيا ، كانت الثورة الفرنسية هى تلك العاصفة الكبرى التى عصفت بأوروبا بصورة خارقة فى فرنسا وغيرها ، نتيجة ( للفوضى ) . ونحن جميعا مازلنا نعلم أن ذكرها تتجدد وسط كل ( فوضى ) أو اضطراب يصيب أى فج من فجاج العالم . وكانت هذه هى العاصفة الكبرى التى دفعت الأستاذ الكبير لعلم المنطق أكثر من ثلاثين عاما فى جامعة ( كينجزبرج ) الى البحث عن تنظيم يصون الانسان والبشر من ( الفوضى ) الموجعة التى جلبتها السياسة وجرتها على العالم وهى تتناسى وتبتعد ، وتتكرر وتتجرد من ( الشرعية ) و ( نظرية الحق ) و ( القانون ) ، سواء فى الداخل أو الخارج . فهو الذى أبصر ( الفوضى ) وعرفها فى مجال السياسة ، خصوصا فى العلاقات الدولية . فالدول تتشبث دائما ( بشرفها القومى ومصالحها الحيوية ) وكفى ، وتحرص الحرص كله على ألا يمس سيادتها أى ماس أو انتقاص ، وأن تقف بالمرصاد ضد أى معتد عليها فى قليل أو كثير . وهذه الروح السياسية القومية وخاصة الثورية لم يكن معها من اليسير أو الممكن فى بادئ الأمر أن ينبثق فيها بصيص من النور ينير الطريق لها فتفطن الى أن من شأن هذه الروح السياسية القومية المجنونة أن تظل ( الحرب ) ( سبيلا من سبل الحق ) ( ٦٤ ) ، مثلما كانت حالة الانسان فى بداوته الأولى ، على الرغم من أن ( النصر لا يحسم بحال من الاحوال مسألة الحق ) ( ٦٥ ) ، وبالتالي لا تنتهى الحروب . وكان هذا ، كما يبدو ، هو ما دعا ( كانت ) الى أن يسرع بصياغة ( المواد المبدئية للسلام ) فى كتيبه ( مشروع للسلام الدائم ) ، بعدما استمع الى العقل ( فى علياء عرشه ) ، وهو ( المصدر الأعلى لكل تشريع أخلاقى ، ويستنكر اطلاقا أن تتخذ الحرب سبيلا الى الحق ، ويجعل من حالة السلام واجبا مباشرا ) ( ٦٦ ) .



أجل ، فاذا كنا نقول اليوم : ( ما أضخم العقل طاقة من طاقات

الانسان ) ، فيجب ألا ننسى أن العقل لطاقته هذه هو القادر على الاحاطة بعدد كبير من مشاكل الانسان وحلولها . فهو صاحب القدرة الفذة على الحل الرشيد لمشاكل الانسان . ومهما تقدم الانسان بخطى المردة والعمالقة والجبابرة والجن ، فى حضارته التكنولوجية المعقدة ، فيجب ألا ننسى أنها صممت فى بادىء أمرها على أساس حاجتها الى الانسان وعقله . وستظل هكذا مهما تضخمت أو تعملت وأثارت عندنا من عواصف عجب واعجاب عاتية . فالانسان هو الحيوان العاقل ، الذى سيظل ذكاؤه يخدمه الى أبد الأبدى . وهو أبو الحضارة الطبيعى والشرعى . وما الحضارة الا بنت له ، وستظل عاجزة عن الخروج عن بنونها لأبيها ورعايته لها ، بل وسيادته عليها . ويجب أن نلاحظ ، أن ( الكمبيوتر ) مثلا ، مهما أظهر وقدم فى حياة الانسان من امكانيات ، حتى لو جاءت متميزة مذهلة ، فلن يتفوق على ( العقل ) البشرى أبدا . ولن يخرج أبدا عن كونه واحد من رعية مملكة الانسان . ولن يستغنى أبدا عن حاجته الى العقل البشرى أو صاحب هذا ( العقل ) . فالانسان هو الذى صنعه وهو الذى يغذيه ، وهو الذى سيظل يتحكم فيه . وهو الذى سيظل يقوده . وهو الذى سيظل سيطر على ( الكمبيوتر ) : وهو الذى سيظل يستخدمه ويستهلكه . فما ( الكمبيوتر ) سوى عبد للانسان وسيلة لمعاونته ، وهو عاجز عن التمرد عليه أو عصيانه . وإذا كان أساس (تكنولوجيا المعلومات ) هو القدرة المبرمجة على التحويل الكمى للوقائع ومتغيراته ، فان ( الواقع ) قد أظهرنا على أن هناك مالا يقبل التحويل الكمى جزئيا أو بتحفظات خاصة . ومثال ذلك الظواهر الاجتماعية . وهذه التحفظات نفسها قد يتعذر فى الأصل ادخالها فى حاسب آلى . ألا يثبت ذلك أن ( العقل ) بذكائه الطبيعى الممتد الى حدود لا نهاية لها ، ويتفكيره المتميز بالخلق والابداع فى أسمى الصور واعلاها ، أوسع نطاقا وأكبر قوة وأضخم قدرة من ( الذكاء الصناعى ) ؟ إذن ، لا مرأ فى أن (العقل) سيظل الحاكم المطلق والشمولى ، والطاغية المستبد المهيمن ، على النتائج التى تصل اليها ( تكنولوجيا المعلومات ) . ويجب الا يغيب عنا بآية حال ، أن إلغاء العقل البشرى ، أو تجريده أو حرمانه من سلطاته ، سوف يكون ( الطامة الكبرى ) ، والخسارة الفادحة ، والضياع المؤكد للانسان .

ان ( العقل ) هو الذى لعب ، ولا يزال يلعب ، وسيظل يلعب ، أدواره الكبيرة والخطيرة فى حياة الانسان الذى صنع التاريخ والحضارة . وكان هو سلاح الانسان الذى امتضاه واستخدمه . وعلى نطاق أوسع كُن دليله ومرشده فى عيشته ، وزعيمه وقائده فى شتى ثوارته عندما شرع فى الغضب ، وأخذ يعصى ويتمرد ويثور ، ليحقق آمالا له وطموحات، تبلورت أولا فى بلورة تطلعه الى الخروج من حظيرة حيوانيته وبدأوته ، ليدخل فى مملكة الانسان والانسانية والحضارة والتقدم والرقى ، والنفس منه التواقة والطموحة دائما تغريه ، بأن يكون فى حياته المقبلة الراعى والرعية ، والحيوان الراقى الذى لم يعد فى معيشته فردا حبيسا من أفراد الحيوانات ، أو فرع عشب منسى من اعشاب الصحارى والقفار . وانه ( العقل ) هو الذى ظل للانسان الحكم ( بفتح الحاء ) الذى وثق فيه وحاوره ، ورجع اليه عند الحاجة ليقيم له (بتشديد الياء الثانية) درجة رقيه التى وصل اليها وهو يتدرج على سلم الحضارة ، ويعين له الصفة التى يستحق أن يوصف بها بعدما أصبحت أظهر صفاته الثابتة وأبرزها فى رحلة رقيه وتميزه عن أفراد رعية مملكة الحيوان . فـ ( العقل ) مثلا هو الذى وصف الانسان بأنه (الحيوان الراقى ) ، أو ( الحيوان العاقل ) ، أو ( الحيوان السياسى ) أو (الحيوان الناطق) ، أو (الحيوان المتدين) ، أو (الحيوان الاجتماعى) ، أو ( سيد الكون ) ، أو ( الكون الأصغر ) الى آخر ذلك . ويلاحظ أن صفاته المختلفة هذه ، ما كانت لتكون له ، الا لأنه ( حيوان ناطق ) أى صاحب ( العقل ) . اذ لولا ( عقله ) لما وصف بهذه الأوصاف ، ولما تحضر وتمدين، وما خرج من حيوانيته وبدأوته وتوحشه . فهو الكائن العضوى الذى ( يقوم الذكاء بخدمته ) (٦٧) . ولولا (عقله) لكان شأنه شأن جميع الحيوانات الأخرى (٦٨) . وهذا نجد أنفسنا تتأرجح كبنودول ساعة الحائط فى منازلنا بين الغريزة والذكاء ، ونجد أنفسنا فى نقرة الحيرة بين قبول أو عزوف عن معنى عبارة ( دى بلانفيل ) التى تقول : ( أن الغريزة هى العقل الثابت ، والعقل هو الغريزة المتحركة ) ! ومن ثم نتساءل : هل الغريزة مضادة أو غير مضادة للذكاء ، وهل الحيوانات ذكية وعاقلة الى درجة معينة ، اذ لو لم يكن هذا أمرها ، لكان قد قضى عليها بالفناء ؟ (٦٩) .



- ١٢٣ -

والآن ، ونحن فى بهو العقل ، أو بالأحرى فى تيه العقل مع ( كانت ) ، نتساءل : ومن من أساطين الفكر وقادته أشاد بانعقل وسطوته فى حياة الانسان ، سواء فى العلم والمعرفة ، أو فى الأخلاق واليمان ، وبز فى ذلك الكثيرين ؟ والجواب : لا أحد سوى ( عماويل كانت ) . فهو الذى أدار فلسفته برمتها حول ( عقله الخالص ) و ( عقله المدلى ) ، وهما عقل واحد منظورا اليه من نافذتين مختلفتين (٧٠) ، فأثرى حياة الانسان بما يقيه ويصونه من الضعف والخواء والهشاشة ، وذلك باكسير الأخلاق الذى منحها فى الوقت نفسه صفة ( الاطلاق ) ، لتكون الأخلاق فى مبناها ومعناها ( مطلقة غير نسبية ) ، والا كان يتحم على الانسان أن يواجه مازقا عميقا ، ألا وهو ( نفى الأخلاق بحذافيرها ) ، ( فأما أن يكون الخير مطلقا ، وأما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر ، وليس هناك وسط بين الأمرين ) (٧١) ومع ذلك ففارس (العقل) نفسه قمين بأن يبين لنا أن هذا المازق نفسه لا يتعذر الخروج منه ، لأن ( الذكاء خادم للانسان ) ، اذ هو ( أداة يمتد استخدامها الى مالا نهاية ) (٧٢) .

و ( بالعقل ) ملا ( كانت ) شتى آثاره الفكرية العالمية بكن ما وسعه من فكر نفيس وخاصة بالنسبة لأسمى النفائس وهى الأخلاق . ليحفل قلب الانسان بالحق والخير والجمال ، والرضاء والغبطة والحب ، كآرق مشاعر وعواطف ومبادئ يحفل بها قلب ، فتوحى معا وفى وقت واحد ، ودون رؤية عين أو سمع أذن ، ومن غير كلمات وألفاظ وعبارات وجمل ، أن يفتح الانسان فى رحاب قلبه وعقله عيون ( الايثار والحب والتعاطف ) ، فتنبت أخلاق البشر وتونع ، و ( لا تنتفى الأخلاق ) (٧٣) أو تجف زهورها وتذبل ، بل يأخذ الجميع فى أن يوفروا لها القوة . اذ ( القوة الأخلاقية لا تكون ذات قيمة الا باشتراك الآخرين ) (٧٤) . لأن ( الأخلاق كل شىء يتوقف عليها ، ولكنها لا تتوقف على شىء ) (٧٥) . وعلى ذلك كانت محاولات (كانت) (تخليق السياسة) مع تصويره للأخلاق بأنها ( تكفى نفسها بنفسها ) هى أظهر القلادات واخلداه ، وأعلاها رونقا وبهاء وقيمة على صدر فلسفته ، وستظل كذلك الى أبد الأبدى فى تاريخ الفكر البشرى . ولما كان (كانت) هو الذى شحذ عقله ، وأجاش قلبه ، بسموها العالى وجدواها الفاتقة ، بالنسبة لكمال الجنس البشرى ، كان من الطبيعى

## - ١٢٤ -

أن يحفظها القدر بين أخلد آيات الفكر البشرى فى وجدان الزمن .  
 فقد قطع خواطره من فكر أصلب من الصوان وأنفس من الماس .  
 ورسمها وصورها ، ونحتها وحكها وصقلها على ( منجلة ) العقل ،  
 وعلى هدى ( القانون الأخلاقى ) و ( الارادة الصالحة ) و ( تقديس  
 الواجب ) وتدعيم ( سلام دائم ) . وصاغها صياغة تراويل الصلاة  
 وتسابيحها فى عبادات الأديان والعقائد . فالأخلاق أصلا وطبعها تهز  
 النوايا الطيبة ، والنفوس الطاهرة ، والقلوب الكبيرة ، والعقول  
 المتفتحة ، وتستدر أرق معانى الصفاء ذى التعبير الزكى ، الذى يفوق  
 اريج زهور كوكبنا ووروده حين انبلاج صبح أو نهار ساعة الشروق . ولذا  
 فكم يحلو ويطيب لنا ، أن نستعيد بعض أقوال ( عمناويل كانت ) ، سواء  
 فى الأخلاق الخالصة ، أو فى كوكبيل منها ومن السياسة ، لنجد أن  
 مجرد ذكر بعضها أو قليل منها ، انما يشكل ابداعا أخلاقيا يتجلى فى أنفس  
 قلادة تزين صدر تفكير ( كانت ) . وأول هذه الأقوال الأعلى من الدرارى  
 وأعلى منها قيمة ، قول ( كانت ) : « شيئان يملأنى اعجابا ، السماء  
 ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الأخلاقى فى نفسى » . وثانيها  
 قوله : « الله هو الوصى على الأخلاق » . وثالثها قوله : « ان المبدأ  
 الأخلاقى لا تخبو ناره فى الانسان أبدا » . ورابعها قوله :  
 « الأخلاق تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة » . وخامسها  
 قوله : « السياسة الصحيحة لا تستطيع أن تخطو خطوة الا بعد أداء  
 التحية للأخلاق » .



صب ( كانت ) جميع أفكاره وهو يصلى فى محراب الانسانية  
 داعيا أن تقوم فى العالم مظلة ( للسلام الدائم ) ، ليستظل  
 بها البشر جميعا . وكان من بين أفكاره النيرة والخيرة ، ذات العطاء  
 الرحب والخصب ، فكرته عن ( عصبة الأمم ) من أجل ( السلام  
 الدائم ) ، التى ظلت مجرد فكرة مائة وخمسة وعشرون عاما ، قبل أن  
 يجعلها ( الرئيس وودرو ولسون ) حقيقة عاشت بيننا فترة من الزمن .  
 اذ كان بفطرته محبا للسلام . ولقد أبان عن هذه الفطرة أثناء رياسته لبلده  
 ( الولايات المتحدة الأمريكية ) فى مناسبات عديدة ، وخاصة فى وقت

كانت تخوض فيه دول أخرى غمار صراعات وحشية من أجل النفوذ والتوسع . فأدى ذلك الى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، التي أسفرت عن أكثر من ثمانية مليون وخمسمائة قتيل وأكثر من عشرين مليون جريح . وحولت الى أطلال خربة موحشة ، كثيرا من أقليم شمال فرنسا والأراضي الوطيفة وبلاد أوروبا الشرقية . وكان من بين هذه المناسبات التي عبر فيها ( الرئيس ولسون ) عن تقبيحه للحرب ، حفل تخريج دفعة من دفعات ( كلية أنابوليس البحرية ) حيث قال : « ان غاية أمريكا أن تخدم الانسانية . وينبغي بكم كلما رفعتم العلم الأمريكى أن تدركوا أن رفع العلم معناه فى حد ذاته ، أنكم تقومون بمهمة نسيئها أساطيل بحرية أخرى فى بعض الأحيان ، ألا وهى مهمة تستهدف ( الخدمة ) ولا تستهدف ( الغزو ) » . فكان من الطبيعى أن تتعين له رسالته التى أداها حين فرضت عليه فى الحرب العالمية الأولى ومؤتمر الصلح الذى أعقبها، فساقته فطرته وكذلك خبرته بالحرب، الى أن يضع ( فكرة عصبة الأمم ) - ( كانت ) موضع التنفيذ فى وقت كان الناس جميعا فى أمس الحاجة اليها ، بعدما قبحت حياتهم الحرب العالمية الأولى، فابتعث هذه الفكرة، فكانت على يديه بمثابة خير معروف أغاث الانسان أكبر ملهوف الى السلام. فهو حيوان ذكى جربها فوجدها من أوجع الولايات وأقبح مباريات الانسان فى تقتيل البشر فى ساحات قطع الرقاب ، بعدما عرف أن اله ( الحرب ) ، لو كان للحرب اله ، ما هو الا شيطان كبير يبتلع الكثير من ضحاياه من بنى البشر . ويستولى على أضخم نصيب مما يجنونه وهم يعيشون فى كيد سعي وراء لقمة العيش الكريمة ، فيصيب اقتصادهم الكساح نتيجة للحرب ، ويتبين لهم أن الحرب انما هى «السرطان المميت لفريسته، ان لم تستأصله وتبعده، فأورامه الخبيثة تنمو بدرجة أسرع من الأنسجة السليمة التى يتغذى عليها »\* . وكان من أقبح ما أفرغ الانسان كحيوان ذكى ، أنه لم يجد بين الاستعدادات للحرب دواء يعيد الحياة لمن قتل ، بينما هو مخلوق خلق يشتهى الخلود ويرغب فى أن يعمر ألف عام ، ورغبته فى الحياة لا تنتهى .

ومن ثم بذل (الرئيس ولسون) كل ما فى وسعه لى تكون الحرب العالمية الأولى «حرباً لانتهاء الحروب» فاهتم كل الاهتمام بفكرة (عصبة الأمم) من أجل السلام وسلامة الجنس البشرى . فوضعها « كجزء لا يتجزأ » من (معاهدة فرساي) واهتم بـ (اقرار عهد العصبة) ، وأنهى جميع ذلك فى وقت قصير . فعقدت له زعامة العالم ، ولقب (بأبى الكلهة) و (يسوع المسيح) ، فكان تنفيذه لفكرة (عصبة الأمم) من أخذ أعماله . وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد اجمعت عن الانضمام اليها وقتذاك ، فقد يعزى ذلك الى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تضعها (تحت الاختبار) . وحجتى فى ذلك ، أن الثابت أن الولايات المتحدة هى التى كانت أول من أسرع لى تقوم (هيئة الأمم المتحدة) فيما بعد ، وجاءت بها هى وحلفاؤها على غرار (عصبة الأمم) فى الكثير .

وكانت نتيجة ذلك أن تألف نجم (الرئيس ولسون) فى مؤتمر الصلح هذا . فهو الرجل الذى عرف بأرائه القوية التى تعادل فى قوتها قوة جيوش من الرجال كما قيل عنه ، فوفق فى إقامة هذه العصبة التى سعى الى تنفيذها من أجل السلام . ويكفى للدلالة على سمو مساعيه الحميدة فى مؤتمر الصلح السابق الذكر ، أن جنوده وجدوا صوره فى أكواخ الفلاحين الفرنسيين فى فرنسا كأمارات اعزاز له فى أوروبا . وأن يردد الطلاب اسمه فى شوارع (أوسلو) باحترام وتقدير . وأن تحتل مجموعة خطبه مكانة عالية بين الكتب الدراسية فى أسبانيا . وأن تلقى رواجاً عظيماً فى الصين والشرق الأوسط . وأن تتابع (أفريقيا) قارئنا العزيزة تصريحاته باستمرار ، فنفسنا نحن الأفريقيين لا نخبو فيها شعلة الحرية . وكيف نخبو وواحد منا يقول : « تكمن الحرية فى قلب كل امرأة ورجل ، وهى فى غنى عن أى دستور ، أو قانون ، أو محكمة . وعندما تموت الحرية فى قلوب الرجال والنساء ، فليس فى مقدور أى دستور ، أو قانون ، أو محكمة ، أن تنقذها ؟ » .

وبالمثل تألفت فى هذا المؤتمر (باريس مدينة النور) بدورها ، بأضواء متألئة ، فكان لهذا المؤتمر وباريس طلعة بهية أخاذة . ولعل

ذلك يتضح للقارئ من وصف ( الدكتور دللون ) Dr. Dillon  
 الممتع ، وإلى القارئ وصفه البديع هذا\* .  
 قل ( الدكتور دللون ) عن هذا المؤتمر : « لم تعد ( باريس  
 المؤتمر ) مجرد ( باريس قصبة فرنسا ) ، بل أضحت محط رجال  
 « جمهرة عظيمة لجموع كثيرة . وصارت تزخر بألوان غير مألوفة  
 « من الحياة والصخب والضجيج ، وتملأ جنباتها عينات من شتى  
 « الأجناس والعشائر واللغات ، جاءت تنتظر ما يأتى به الغد  
 « الغامض ، وترقب مجرى الأمور القادمة ، وكأن لمسة من لمسات  
 « ( ألف ليلة وليلة ) قد مست جبين ( مدينة النور ) ، فقدمت هذا  
 « المشهد الآخاذ العابر ، مشهد مئات من الرجال الذين وفدوا من  
 « أقطار المعمورة الأربعة ، من بلاد التتار ، ومن كردستان ، ومن  
 « كوريا وأذربيجان ، ومن أرمينيا وفارس والحجاز . ورجال ذوى  
 « لحى مهيبة ، وأنوف مدببة ، قدموا من صحارى سمرقند وبخارى  
 « وواحاتها . واختلطت العمائم والطرايش بالقبعات والقلنسوات .  
 « وامتزجت فى عشية الصلح الدائم المنشود البزات العسكرية التى  
 « ابتدعت من نماذج قديمة لجيوش لم تر النور بعد . وامتزجت  
 « البرانس الرحبة والعباءات الفضفاضة والأردية الأنيقة . فعادت  
 « كل هذه المظاهر على خلق محيط من الخيال الحالم ، فى هذه  
 « المدينة التى أصبح يعرض فيها على بساط البحث أعقد المشكلات  
 « وتعالج أدق الحقائق » .

### ★ ★ ★

ويجب ألا يضيع أبدا من بالنا أو يسقط من فكرنا أمر ذو بال ،  
 ألا وهو أن صاحب ( فكرة عصبة الأمم ) هو ( عمناويل كانت ) لا غيره .  
 وكل ادعاء ينسب هذه الفكرة لغير (كانت) إنما هو ادعاء محض . ومثال  
 ذلك ما ادعاه فى هذا الصدد المعسكر الانجلو سكسونى فى انجلترا  
 وأمريكا . اذ ( كانت ) هو الذى حدد قدرة العقل ومداه فى المعرفة  
 والأخلاق وصنع السلام . وهو الذى أحصى الحالات التى لا اتفاق فيها  
 بين الأخلاق والسياسة ، وكذلك حالات الاختلاف بينها ، وذلك فى كتيبه  
 ( مشروع للسلام الدائم ) . وهو الذى أثرى الفكر الأخلاقى بما أبدع

فيه ، وقدمه على مائدة الانسان كغذاء ضرورى له كل يوم ،  
 ضرورة رغيف الخبز وكوب الماء . وهو الذى جاء رسولا  
 لـ ( تخليق السياسة ) . وهو الذى غربل ونخل ( قانون الشعوب ) أى  
 ( القانون الدولى ) وانتهى الى أنه ( قانون مزعوم ) ، و ( كلمة  
 فارغة من المعنى ) وتبين له أنه يقوم على « اتفاقات تشتمل  
 فى مادة الاستثناءات من عقد ابرامها على ( تحفظ ذهنى ) \* ، بقصد  
 خرقها » و ( كانت ) هو أكبر مهندسى ( السلام الدائم )  
 والداعين اليه ، الذى رغب فى أن يقوم على ( حلف الشعوب ) الذى  
 يقضى على الحروب ، وعزف عن أن يقيمه على مجرد ( معاهدة  
 السلام ) ، التى هى مجرد ( انتهاء حرب واحدة ) . وهو صاحب  
 الدعامات المتينة العملاقة ( للسلام الدائم ) ، سواء من ( الجمهورية  
 العالمية ) ، أو ( تحالف شعوب الأرض ) ، الى ( النظام الفيدرالى )  
 أى الاتحادى ، واختارها لتكون بمثابة خير حوافظ للبشر ضد الحروب  
 على الاطلاق ، لأن ( الفيدرالية ) تكفل ( الشرعية ) ، وتكفل ( الحرية )  
 وتكفل الوفاق والاتفاق بين الاخلاق والسياسة . وهو الذى حرص على  
 كرامة الانسان وانسانيته وحرية ، فجعله فى حد ذاته ( غاية ) فى  
 فردوس الغايات ، و ( قيمة ) فى جنة القيم . وصفوة القول فى هذا  
 الشأن ، أن ( كانت ) هو الذى جاء عن طريق ما أوحى به اليه  
 ( تقديس الواجب ) ( ٧٦ ) عنده باللفظ الألماني ( فيلكربوند )  
 Völkerbund ( أى عصبة الأمم ) ، وذلك حين وجد سفينة مذهب المتميز  
 فى المجرى الرئيسى تجرى وتتهادى ، وتصل الى مرفأ هذه الفكرة ،  
 فسمها بهذا الاسم . وهو اللفظ نفسه الذى أطلق على هذه ( العصبة ) عندما  
 ظهرت فى القرن الحالى ، بعد وفاة صاحبها ( كانت ) بمائة وخمسة وعشرين  
 عاماً . ويلاحظ أن جميع ما ذكرناه ثابت برمته فى كتاباته وكتيبه  
 ( مشروع للسلام الدائم ) الذى نشره عام ١٧٩٥ . وفى هذا  
 الكتيب يقرأ المرء قوله : « ان العقل فى علياء عرشه ، وهو المنبع

\* انظر معنى ( التحفظ ذهنى ) ص ١٢١

الأعلى لكل تشريع أخلاقي ، ينكر بصورة مطلقة ، أن تكون الحرب سبيلا من سبل الحق ) . فكان مقصده المؤكد أن يرسى العلاقات الدولية لتستقر بثبات على ( حالة الشريعة ) لا ( حالة الطبيعة ) ، وقد أدرك أن تحقيق ( السلام الدائم ) « لم يعد أمرا مرجسوا فحسب » ، بل أصبح أيضا « أمرا يحدثه ( تقديس الواجب ) » . وخلاصة القول : ان ( فكرة عصبة الأمم ) هي فكرة ( كانت ) ولا سواه ، ولم تصبح حقيقة ملموسة في القرن العشرين الا على يدى ( الرئيس ولسون ) ، الذى دفعته حكيمته وفطرته ودقته ، الى الا يذكر هو شخصيا اسم صاحب ( فكرة عصبة الأمم ) الحقيقى ، اذ هذا أمر ليس له ، وهو لن يفوت على الكتاب والمفكرين فهو من واجبهم ، وهم لن يغفلوا عن القيام به . وبالفعل أكدت كوكبة منهم أن ( الرئيس ولسون ) كان يحتفظ معه بكتيب ( كانت ) وهو ( مشروع للسلام الدائم ) لقراءته اليومية . ولا عجب فى ألا يذكر اسم ( كانت ) بوصفه صاحب ( فكرة عصبة الأمم ) ، اذا يحتمل أن يطفىء ذلك من نجوميته وهو يتألق فى مؤتمر الصلح السالف الذكر ، بينما هو يعمل فى ظروف عالمية صعبة ومعقدة تدور حوله وتملى عليه أن يقف ببراعة فى مركز دوامتها وهى تدور حوله بسرعة وضراوة . هذا ، وكيف كان فى امكانه أن يذكر اسم ( كانت ) بوصفه صاحب ( فكرة عصبة الأمم ) فى باريس مكان عقد هذا المؤتمر ، وهى عاصمة فرنسا ، وثمة عداوة معروفة بين فرنسا وألمانيا توارثتها الاجيال وكانت لاتزال تتوارثها وقتذاك ؟ وكيف كان يتسنى له أن يذكر اسم ( كانت ) باعتباره صاحب ( فكرة عصبة الأمم ) ، و ( كانت ) المانى وطنه ألمانيا بالذات ، وألمانيا حينذاك هى التى أجمع أعضاء المؤتمر والحلفاء وقادة العالم فى هذه الفترة من التاريخ ، على أنها المسؤولة بمفردها مسئولية كاملة عن قيام الحرب العالمية الأولى ، بسبب روحها العسكرى ، وابتداعها لأول مرة فى أوروبا والعالم ( نظام التجنيد الاجبارى ) ، ثم وضعته موضع التنفيذ ؟

وعلى كل حال ، فشلت ( عصبة الأمم ) لأسباب كثيرة ، كان من أهمها أن ضمير الدول كان قوميا ، الى درجة كان بعض الحكام يؤمنون فى قرارة أنفسهم لا شعوريا بأن ( السيادة ) أهم من

( السلام ) \* . وساعد على ذلك عدم انضمام ( الولايات المتحدة الأمريكية ) الى هذه ( العصبة ) . ومع ذلك فالولايات المتحدة الأمريكية هي التي أسرع لتقييم من جديد ( الأمم المتحدة ) من بعد ( عصبة الأمم ) بعدما دخل العالم مرة أخرى في ( الحرب العالمية الثانية ) «لإنقاذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد ، جلبت على الانسانية مرتين أحزاناً يعجز عنها الوصف » . فجاءت هذه ( الهيئة ) شبيهة بأمرها ( عصبة الأمم ) وعلى غرارها في الكثير ، وقد تكون أقرب منها في الأكثر من هذا الكثير . وهذا ليس مكان الحديث عن هذه ( الهيئة ) . بالتفصيل ، وهي تمارس عملها وتصدر قراراتها دون أن تمثل ارادة الجميع حقاً ، بينما الجميع ينبغي أن يمارسوا حريتهم ، خاصة وأن كل دولة فيها تتمتع بعضوية عالمية ، ولا بد أن تكون حرة . فالحرية هي التي تجعل الانسان انساناً والدولة دولة ، فنصل جميعاً ومعا الى الحقيقة باعتبارها توأم الحرية ، ولا غناء عنهما ، لكى ننتصر على الخطأ والضلال في كل مجال .

### ★ ★ ★

واذا كانت ( الأمم المتحدة ) لا تزال تعيش بيننا في هذا القرن قرن التقدم العجيب والمذهل للهندسة والعلم ، فيجب أن يلاحظ أن هذا التقدم قد رفع بدرجة كبيرة من حاجتنا الى ضرورة تطويرها لخطورة مسؤوليتها ، بينما العلم بتقدمه قد رفع من درجة احتمال دمار العالم نتيجة لتقدمه في مجال بحوثه في الطاقة النووية وخصائص الذرة وتركيبها ، ولما وكل هذا التقدم للانسان من قوة فاقت قوة آلهته الأسطورية كما يقال . فتحتم على العلم أن يقوم بواجب الاعلام عن هذه القوة المروعة ، فأحاط رجال السياسة والحكومات والشعوب علماً بها . ويلاحظ أن العلم لا تحوم حوله شبهة من شبهات الاعلام والدعاية كالمبالغة مثلاً، فنراه العلم معروفة ومؤكدة . وهنا ضرب العلم مثلاً للجميع بالقوة التدميرية للقنبلة الهيدروجينية ، التي تعادل ما ألقى على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية خمس عشرة مرة ، وما ألقى على لندن نفسها



مائة مرة • وواحدة منها تكفى لمحو (باريس) محوا، وتدمير (نيويورك) تدميرا ،وتخريب ( لندن ) كل التخريب • وآثارها تفوق آثار قنبلتى ( نجازاكى ) و ( هيروشيما ) من ألف الى خمسمائة ألف مرة ، وهذه القنبلة ( تزدرى الفرد ) (١) •

فاذا بنتائج العلم المتقدمة فى بحوثه النووية تضع ( السياسة ) والعالم فى مفترق طرق مخيف زهيب عسير لم يشهدا مثله فى التاريخ - ( فاما الى الدمار الذى لا صلاح له ، واما الى الجزاء الاوفى ) (٢) ، و ( اما السلم عن طريق الاتفاق ، واما السلم عن طريق غناء العالم ) (٣) • واذا بالعلم نفسه يعانى من مفارقات كبرى ، فتقدمه فى علم الطبيعة واستخدام الذرة لم يكن يواكبه تقدم فى الاخلاق • وكان البون بين سمو المعرفة وفوضى العلاقات السياسية واسعا • ووجد العلم نفسه فى دوامة للحيرة بين مسؤوليته وهى ( مسئولية معرفة ) لا شأن لها باستخدامها فى اغراض الخير والشر وبين (مسئولية السياسة) وهى مسئولية (سلطة) ليس فى المجتمع سلطة فوقها • اذ هى تجب رأى الخبراء فى أى نوع من نواحى المجتمع ، وتثبطه وتحبطه (٤) ، وليس فى قدرة أى سلطة غير ( سلطة السياسة ) أن تجعلها تعزف عن أن تمارس ( الحكمة السياسية ) التى تجعل ( شرف الدولة ) « فى المداومة على زيادة قوتها دون مبالاة بالوسائل » (٥) فلا تطور أسلحتها، ولا تستحوز على ماقد يكون فى مقدورها من هذه الأسلحة الذرية، حتى وصل الأمر الى حد أن سخر ( الشرف القومى ) للدولة ، النتائج الرحيمة والكريمة التى وصل اليها (الانشطار النووى) و ( المواد الانشطارية ) فى الطب والكيمياء من أجل الحفاظ أصلا على أرواح الناس فحسب، لتصير أسلحة للحروب الجرثومية والبيولوجية والكيميائية • وهنا يجب ألا يغيب عن بالنا أن ماهية

(١) اسكندرهادو

(٢) ونستون تشرشل

(٣) برتراند راسل

(٤) جورج كاتلن

(٥) كانت

الدولة هي ( القوة ) ، وأنها هي بالذات ( مبحث للقوة ) فى النواحي المختلفة ، وصاحبة السعى الدائب الى المزيد منها وهى تسوس الناس . وهؤلاء بدورهم مخلوقات حية ، لهم طاقات معينة من ( الارادة ) ، ومدى معين من ( حرية الاختيار ) . ومن ثم وجدنا فطاحل العلماء الطبيعيين تلاميذ ( التلسكوب ) و ( الميكروسكوب ) و ( الالكترون ) و ( الذرة ) ، ومعهم غيرهم من كبار المفكرين فى هذا القرن ، ينكبون على إيجاد حل لهذا المفرق للطرق ، فلم يجدوه الا فى ( العلم السياسى ) وفى واجب السياسة اليوم ، ألا وهو ضرورة تعديل سلوكها . فهم لم يجدوه فى ( العلم الطبيعى ) ، وانما وجدوا جذوره تنبت فى الدين والأخلاق . فدعوا السياسة الى أن تبتعث الحل من ضميرها ، وأن تفكر بقلبها مع رأسها ، اذ الانسان وحده منهما لا تتجزأ ولا انفصال بينهما ، و ( العقل وحده لا يحرك شيئا ) \* . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالإيمان كالعلم تماما ، يتشوف النظام والسلام وصالح الحال . وهكذا نستطيع أن نحيل ( السياسة ) الآن الى ( الأخلاق الواسعة الأفق ) التى عنها ( بيرك ) لتحقيق ( السلام الدائم ) فى العالم .

وحبذا لو واكب ذلك ومهدنا له فى كل فرصة بانعاش المحيط الدولى بطوفان مستمر من ( المصارحة ) و ( بث الثقة ) ، كبدايل لـ ( النفاق السياسى ) و ( الحذر الدبلوماسى ) و ( الخوف والتخوف ) . فالخوف هو الذى يسوق الى التخوف من استخدام القوة السذرية واحتمالاته ، ويدعو الى أن ( تتحشد الأمم للحرب ) . فنحن لو أمعنا النظر فى نقطة بداية السياسة فى العالم لأول مرة ، عندما استطاع جدان من أجدادنا يسكنان الكهوف ، أن يبرما أول اتفاق فى العالم بينهما ، فى وقت كانا يشكلان فيه مع بقية جدودنا ( جنسا ) معيناً من الحيوان ، لتبين لنا أنه ما كان ليبرم هذا الاتفاق لولا أن ( الثقة ) كانت قد نزت فى قلوبهما فازهقت الخوف والتخوف عندهما ، فتم الاتفاق بينهما . ان الثقة هى المفتاح السحرى لحل مشاكل السياسة ، وعلى الخصوص مشاكل

السياسة الدولية . فلو نجحنا فى ذلك فأننا سوف لا نعود نسمع فى زماننا زمن أسلحة الدمار الشامل ما قاله المحارب البروسى الكبير (فون مولتكى) من قبل ، فى وقت كانت الأسلحة فيه تقليدية . وقوله هذا هو : «السلام حلم» و«حلم غير جميل» ، و «الحرب جزء جوهري فى تنظيم الله للكون» ، وهو «فرصة يظهر فيها نبل فضائل الانسان ، من شجاعة وإخلاص للواجب ، واستعداد للتضحية حتى بالحياة نفسها » . ولا نعود نسمع تصريحات تقول : « اننا لم نفكر طبعاً فى استخدام هذا السلاح الرهيب ما لم يضطربنا الى ذلك عدوان لم يسبقه استفزاز » . ولا نعود نسمع قولاً آخر يقول : اننا لنرجو أن تستخدم الطاقة الذرية فى خدمة الجنس البشرى لا دماره ، ولكننا نشك فى خصومنا ، ولا أمان لنا الا فى أن نكون على أهبة الأخذ بالثأر الذى سيكون من غير شك رهيباً وحاسماً .

ولا نعود نسمع دولة تعودت السمعة والصيت تقول صراحة أو إيحاء : « فى مقدورنا أن نقهر العالم ونغزوه مع الزمن » . وانما نسمع فقط صوتاً واحداً بديلاً لهذه الأصوات هو ( صوت السلام ) ، يعلن أن الحكم أصبح للسلام ، ولا سبيل لتحقيق السلام سوى (النظام الفيدرالى) كما قال (كانت) فى القرن الثامن عشر . وقوله هذا هو ما أكد صدقه وصحته فطاحل العلماء وكبار المفكرين فى عصرنا ، عصر تقدم العلم والهندسة .

فاذا بـ (الفيدرالية) ناخذ فى الانتشار فى العالم ، ويدعو اليها الكثير من المنابر ، والكثير من وجوه العالم . وكان من هؤلاء أولاً المؤرخ الكبير (هـ.ج. ولز) الذى أيد رأى ( كانت ) حكيم كينجزبرج فى هذا الصدد ، فقال هذا المؤرخ بكل وضوح : « الطريق الوحيد لتنظيم سلام عالمى ، انما يكون عن طريق ( الاتحاد الفيدرالى ) ، والطريق الوحيد للوصول الى هذا ( الاتحاد ) ماثل بوضوح أمام بصر الانسان » . ومن هؤلاء ثانياً الاقتصادى العظيم ( لورد بيفرديج ) حين قال فى واجب السياسة اليوم « لابد من أحداث تغيير كامل أناسى فى التفكير السياسى » . كما قال مرة أخرى : « لن يستقر السلام وتتحقق الحرية الا عن طريق الفيدرالية » . ومن هؤلاء ثالثاً مؤرخ الحرية ( لورد آكتون ) وهو يوضح هذا الامر للسياسة مستشهداً بـ « الولايات المتحدة ، والاتحاد السويسرى ، والكومنولث الأسترالى ، والاتحاد الكندى ،

والاتحاد السوفيتي(١)» ، وذلك بمثابة أمثلة لطلائع ( الاتحاد الفيدرالى ) . ويمكن أن نضيف الى هذه الفيدرالية الآن ( الاتحاد الأوروبي ) الذى أخذ يطل علينا كحقيقة بين ظهرانينا فى هذا القرن .



والواقع ، أن القدر قد شاء كما قلنا أن يحفظ بالفعل ، ما أبدع ( كانت ) فى المعرفة والأخلاق والايمان والسلام ، كعيون لأخلد الآيات فى تراث الفكر العالمى . وحين قدم للعالم هذه الآيات ، وجدناها تشكل ذخيرة للعالم اليوم فى وقت نحن فى أمس حاجة اليها فى أننا الراهن الرهيب،بينما«الليل الاشعاعى ينذر باسدال الستار على قصة الانسان»(٢) ، و « الانشطار النووى يوسع دائرة الموت الى ما لا نهاية تقريبا ، أو على الأقل الى مساحة كبيرة جدا »(٣) ، وجعلنا « أقرب الى الهاوية مما كنا نظن »(٤) . وجميع ذلك جعل ( السلام الدائم ) يتطلب منا بالفعل والضرورة (بطولة خيالية) ، ويفرض على ضمائرنا « أن ننظر الى الانسان بوصفه ( انسانا ) كما قال (كانت) عندما فكر فى الانسان والانسانية والأخلاق ونبذ الحسرب ، وتخليق السياسة لتحقيق ( السلام الدائم ) بعقل قوى ، وشعور قوى ، ورغبة قوية . وذلك حتى يجيء « قرار السلام ثمرة لاحترام الانسان » ، فى وقت حرج لم تعد فيه فرصة للسلام ، أو للسياسة ، أو للعالم ، الا عن طريق ( الأخلاق ) . فالأخلاق هى التى « تقطع فى المشكلات التى تستعصى على السياسة » كما سبق القول ، وعن طريق الايمان ايضا الذى يفرضه علينا تقدم العلم . فالايمان من أجلى الصور وأحلاها التى يتجلى بها الله على الكون . وكذلك عن طريق المثل العليا ، وهذه ينبغى بنا ألا نعتبرها بمثابة خيالات وأوهام مقطوعة الصلة بواقعنا الذى نعيش فيه . فهى فى حقيقتها حلول

(١) سابقا

(٢) جلبرت ملك ألستر

(٣) هانسارد

(٤) روتبيلات

لمشاكل كثيرة تقتحم حياتنا ، ونحن نصوغها من ( حقائق ) تعيش معنا ونعيش بها ، ولها مواقعها بالفعل على خريطة حياتنا .



وأخيرا لا يفوتنى فى هذا المقام أن أتساءل عن خاطر يتردد فى نفسى باستمرار ترددا لا يفارقنى ، وعسى أن أجد له جوابا طيبا مقتنعا خيرا من أجابتى عليه، وهو يفرض نفسه على ويقول : الام تظل ( السياسة دون ( الأخلاق ) تدير البشر ، ولها الكلمة العليا فى كل مكان ، وهى سيدة كل عصر وزمان ، ولا علم لكائن من كان متى واين تغدو ( الأخلاق ) بالذات ( السيدة الاولى ) التى تتقدم كل موكب فى تاريخ الانسان ، وتمسك المشعل فى يدها وخلفها ( السياسة ) بالذات تتبع خطواتها ، وتمسك ذيل ثوبها ؟ اما جوابى فهو : هذا ما كان ، فلانسان بطبعه ( حيوان سياسى ) . هذا ، والتاريخ لا يزال يقول لنا : فى غضون حضارتنا ذات الخمسة أو الستة آلاف عام ، ان ثمة صراعا أزليا أبديا بين ( عالم الطبيعة ) و ( عالم الأخلاق ) . ولا يدري البشر من من هذين المتحاربين سيكتب له النصر ، ومتى يكون ذلك ، وأين مرسى ذلك ، ومتى يقع وبيدا ، ومتى ينتهى ! وهذا ما سبق أن تساءلناه (١) وقلناه . وكل ما نتمناه أن توفق ( السياسة ) وهى تسوس « النوع البشرى المحب للرياسة والظلم والقهر ومحبة المال والجمع والتمول (٢) » وغير ذلك ، حتى لا يقع بينهم « تباغض وتعاد على حسب الغلبة » ، فتتقد نار الفتن بينهم باهلاك القوى منهم الضعيف على نيل المراد من مال ومحبوب وغير ذلك ، والاقوى من القوى، فيهلكون عن آخرهم « (٢) ، ( وقد ضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف ) . لذا كانت من حكمة

---

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٩١ من كتابنا هذا

(٢) رسائل فلسفية : جمعها ب. كراوس ، الباب الحادى عشر ، وعنوانه ( المناظرات بين الرازيين ) ، ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ ، نشر المكتبة المرتضوية ، سوق بين الحرمين ، طهران

الله الحكيم ، « أن يحفظهم جميعهم بتقنين رسوم وسنن بينهم ،  
تتحفظ بها دماؤهم ، وبالجري على منهاجها والأخذ بها من جهة من  
يختاره من بينهم فيجعله رئيسا لهم » . « وكان هذا هو الواجب  
في الحكمة من دون أن يتركهم مهملين » (١) . ومن هنا كانت (السياسة)  
بمثابة أول مبحث يخص الانسان من أجل قيادة الانسان نفسه والسيطرة  
عليه . وهو صاحب ( طاقة من الارادة ) ، ومدى ( من حرية  
الاختيار ) . هذا ، وفي الوقت نفسه انطوت ( السياسة ) على الرأى والنظر ،  
والمناقشة والحوار ، ووزن الوسائل والغايات والقيم وتقديرها . هذا من  
ناحية ، ومن ناحية أخرى فهي مبحث لكسب المزيد من القوة للسيطرة  
على الانسان نفسه (٢) . فالانسان في جوهره حيوان لا يدانيه أو يعادله أو  
يفوقه أى حيوان فى جرائته حين تحدى القدر نفسه . وهو لا يتوقف  
أبدا عن محاولة السيطرة والتحكم . أليس هو الحيوان الذى وثب على  
أخيه الانسان ، وانقض عليه وتغلب ، بعدما كانا قد سيطرا معا من قبل  
وانتصرا معا على ( الطبيعة ) وأخذا يقيمان معا ( الحضارة ) ؟  
ولكنه أصبح ( حربا ) على أخيه فى نهاية الأمر ؟

## هـوامش

- (١) د. زكريا ابراهيم : ( كانت ) ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ، ص ٥٤، ص ٥٥
- (٢) د. عبد الرحمن بدوي : فلسفة الدين والتربية عند ( كانت ) ، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص ١١
- (٣) المصدر السابق ، ص ١٠ (٤) المصدر السابق ، ص ١٠
- (٥) المصدر السابق ، ص ١١ (٦) المصدر السابق ، ص ١١
- (٧) د. زكريا ابراهيم : ( كانت ) ، الطبعة الأولى ، مكتبة مصر ، ص ٣٦
- (٨) المصدر السابق ، ص ٥٨
- (٩) د. عبد الرحمن بدوي : فلسفة الدين والتربية عند ( كانت ) ، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص ١٢١
- (١٠) المصدر السابق ، ص ١٢٦ (١١) المصدر السابق ، ص ١١٢
- (١٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ (١٣) المصدر السابق ، ص ١١٤
- (١٤) المصدر السابق ، ص ١١٥ (١٥) المصدر السابق ، ص ١١٦
- (١٦) المصدر السابق ، ص ١١٥ (١٧) المصدر السابق ، ص ١١٥
- (١٨) أفلاطون ، انظر : جورج سباين : تطور الفكر السياسي ، الترجمة العربية ، للأستاذ حسن جلال الدين العروسي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ص ٧٣
- (١٩) ليفي بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدرى ، ص ٢٥٢ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية
- (٢٠) جورج سباين المصدر السابق ، ص ٧٣
- (٢١) المصدر السابق ، ص ٧٣ (٢٢) المصدر السابق ، ص ٧٢
- (٢٣) المصدر السابق ، ص ٧١ (٢٤) المصدر السابق ، ص ٦٤
- (٢٥) ليفي بريل : المصدر السابق ، ص ٣١١
- (٢٦) جورج سباين : تطور الفكر السياسي ، الترجمة العربية ، للأستاذ حسن جلال الدين العروسي ، طبعة دار المعارف ، ص ٧٣
- (٢٧) ليفي بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدرى ، طبعة مكتبة الأنجلو لمصرية ، ص ٢٦٢ ، ص ٢٦٣
- (٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ (٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٦٣
- (٣٠) جورج سباين ، المصدر السابق ص ٧٤
- (٣١) المصدر السابق ، ص ٦٣

- (٣٢) د. عبد الرحمن بدوي : فلسفة الدين والتربية عند ( كانت ) ، ص ١٦٧
- (٣٣) د. زكريا ابراهيم : (كانت) ، طبعة مكتبة مصر ، الطبعة الأولى ، ص(٢٠٤)
- (٣٤) كانت : تأسيس ميتافيزيقيا الاخلاق، الترجمة العربية ، للدكتور عبد القادر مكاوي ، المقدمة ص (ر) ، الكويت
- (٣٥) المصدر السابق ، ص ( و )
- (36) The Natural Principal of the Political Order considered in connection with the Idea of a Universal Cosmopolitan History
- (37) Eternal Peace and Other Essays, Boston, 191,p.14
- (38) Gooch : Diplomacy and Statecraft, Ch. IV. p. 328
- (39) Eternal Peace and Other Essays, Boston, 191,p. 17
- (40) Ibid, p.58
- (٤١) كانت : مشروع للسلام الدائم ، الترجمة العربية ، للدكتور عثمان أمين ، طبعة مكتبة الانجلو المصرية ، ص ٦٣
- (٤٢) المصدر السابق ، ص ١٧ (٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٤
- (٤٤) المصدر السابق ، ص ٤٥ (٤٥) المصدر السابق ، ص ٤٥
- (46) George Catlin : The History of Political Philosophers, p. 415
- 47) Kant: Critique de la Raison Pratique, trad. Francaise, Picavet, 1906, p. 286
- (٤٨) كانت : مشروع للسلام الدائم ، الترجمة العربية ، للدكتور عثمان أمين ، طبعة مكتبة الانجلو المصرية ، ص ٢٣
- (٤٩) المصدر السابق ، ص ٩١ (٥٠) المصدر السابق ، ص ٩٢
- (٥١) المصدر السابق ، ص ٩٤ (٥٢) المصدر السابق ، ص ٩٥
- (٥٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ (٥٤) المصدر السابق ، ص ١٠٦
- (٥٥) المصدر السابق ، ص ١٠٧ (٥٦) المصدر السابق ، ص ١٢٣
- (٥٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ (٥٨) المصدر السابق ، ص ١٢٥
- (٥٩) المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣
- (٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٩ (٦١) المصدر السابق ، ص ١٠٩
- (٦٢) المصدر السابق ، ص ١١٠ (٦٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥ ،
- ص ١٠٦
- (٦٤) المصدر السابق ، ص ١٦ (٦٥) المصدر السابق ، ص ١٥
- (٦٦) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦



- ١٣٩ -

- (٦٧) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدوي ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٣٢٧
- (٦٨) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ (٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢
- (٧٠) د. زكريا إبراهيم : كانت ، طبعة مكتبة مصر ، ص ٤٩
- (٧١) ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية ، للدكتورين محمود قاسم والسيد البدوي ، طبعة مكتبة الأنجلو اصرية ، ص ٣٠١
- (٧٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ ، ص ٢٦٣
- (٧٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٨ (٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥
- (٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨ ، ص ٢٩٩
- (76) George Catlin : The History of Political Philosophers, p. 413



## الفصل السادس

### عينات ونماذج

ساحر ، وكاهن ، ومارد



فلك التاريخ يمخر عباب الحياة فوق لجة الزمن ، وينساب مسرعا  
أو متباطئا بين شاطئين ، شاطئ الأعيان والتجارب والوقائع ،  
وشاطئ الأذهان والمثل والقيم . والعقل دائما قلق ومتحفز للبحث عن  
الحقيقة ، في منأى عن اطلال الخطأ في قفار الأوهام والأساطير ، ويعيدا  
عن كهوف الرجم والتخمين ، دون أن يكل أو يمل ، أو حتى يصغى  
الى قول يقول : « ان ما لم يتحقق حتى اليوم لن يتحقق أبدا » . ولكن  
مهما تميز عصر من عصور الفكر بسيادة مذهب فكرى معين ، فان المذهب  
المضاد لا يعدم فى العصر نفسه أنصارا له وأتباعا ، فلا تنتهى المعارك ،  
اذ « المعارك لا تنتهى الا حين لا يبقى هناك مقتلون » . وبطبيعة  
الحال ، لم يكن الفكر السياسى بمعزل عن ذلك . فظهر على أرضه  
معسكران ، كان ( نيقولا مكيافللى ) من أعلى قمم المعسكر الأول وهو  
معسكر التاريخ ، وكان ( عمناويل كانت ) قمة القمم فى المعسكر الثانى وهو  
معسكر الفلسفة .

وعلى فلك التاريخ صعد ثالث متميز من ساحر ، وكاهن ،  
ومارد . وكان الساحر هو ( بنيامين دزرائيللى ) ، والكاهن ( وليم  
ايورات جلادستون ) ، والمارد ( أتوفون بسمارك ) . وكان الثلاثة  
أصحاب قدرات فائقة ، صعدوا على سلمها فى القرن التاسع عشر الى  
أعلى مكانة فى الحياة السياسية فى أوطانهم وأوربا . وهذا القرن كان  
« قرن الاصلاح » من ناحية ، و « أكثر القرون حيوانية وجهنمية

وقبها ، وواقعية وشعبية « وذلك من ، ناحية أخرى . وفيه أبدع كل من هؤلاء الثلاثة ( سيمفونية ) خاصة به ذات أنغام وألحان شتى اختارها ونسق بينها ، وخص ذاته بأن يكون هو فحسب ( مايسترو ) لجوقة من أختياريه هو تقوم بعزفها ، حتى يجيء إيقاعها كما يهوى ساحرا كسحر التعاويذ ليسحر شعبه ويطره ويسعده ، إذ السعادة هي الغاية من السياسة كما هو معروف .



وفى ( بلاد الجن ) التى حرسها ( عروس الجن ) أى ( المنكة فكتوريا ) ، يطول الجدل حول ( مدرسة التاريخ ) و ( مدرسة الفلسفة ) ، ويختار ( دزرائيلى ) المدرسة الأولى ، ليقترح منها حلبة السياسة . بعدما انتقى لها أسلحة ثقيلة ، إلا أنها كانت لامعة براقعة ، أودعها جرابه ، تجمع بين ( ضرورات سياسية واعتبارات تجعل الأمم عظيمة ) ، وأفكار أخرى لابد من أن تواكبها . فكان منها أن ( الأمة عمل فنى صاغه الزمن ، ولها مزاج كـمزاج الأفراد ) . و ( حقوق الانجليز ) لها الأسبقية على ( حقوق الانسان ) . و ( الأمة ليست بأمر نظرى يمكن استنتاج حقوقه بمجرد التفكير العقلى فيه ) . و ( انجلترا لن تكون شيئا مذكورا إلا وهى مركز لامبراطورية عظيمة ) . وبالإضافة الى ذلك ، كانت فكرته التى تقول : ان ( كل ماله مظهر الحق ليس هو الحق دائما ) . ويعلق ( كاتب أوربى ) على هذه العبارة فى كتابه عن ( بنيامين دزرائيلى ) قائلا : وكان بوسع ( دزرائيلى ) أن يضيف الى هذه العبارة عبارة أخرى تقول : وماله مظهر الأخلاق ليس دائما من الأخلاق .

أما ( جلادستون ) فقد ولج ساحة السياسة من باب ( مدرسة الفلسفة ) ، فى جـد كجد الملائكة الرزين الأخاذ ، متأبطا ( سفر الفلسفة ) و ( انجيل أنوار الالهيات ومملكة السماء ) . وكانت النية منه معقودة على مناصرة العدالة والحرية ، والاستجابة لكل نداء لهما يصدر من أى فج من فجاج العالم . فمدت انجلترا يد المساعدة الى ايطاليا لتحقيق وحدتها القومية فى ظل ( آل سافوى ) ، فانفضحت مخازى الظلم

الذى دنس العدالة فى نابولى . وظهر مقت انجلترا لسلطة الاكليروس فى ايطاليا . فضلا عن ذلك ، كان ( جلادستون الكاهن ) قد قدم خدمات جليلة خالدة أخرى لبلاده أثناء وزارته الأولى ، من نظام التعليم الإلزامى ، ونظام الاقتراع السرى ، وتحرير الجامعات من نير القساوسة ، ووضع حد لنفوذ الكنيسة الانجليكانية فى آيرلندا .



فشهدت انجلترا فى ( العصر الفكتورى ) صراعا ناريا بين ( دزرائيلى ) و ( جلادستون ) ، دفعهما الى أن يخطئ الواحد منهما فى حق خصمه السياسى ، سواء وهو على كرسى الحكم أو فى خندق المعارضة ، ويصفه بأوصاف غير مستحبة سوف نورد بعضا منها فيما بعد . ولكن الحقيقة أن كلا منهما كان حريصا على ألا يصدر منه قرار أو رأى ، يجلب للشعب حشفا لا تمرا ، أو يسد عليه طريقا من طرق حريته وديمقراطيته ، أو يقوض صرحا من صروح عدالته أو يلوث حكما من أحكامها ، أو يهيل التراب على مورد من موارد لقمة عيشه . اذ كانت غاية الغايات عندهما معا ، أن يصونا ( استقرار انجلترا ) ويحافظا عليه وعلى جميع الطرق التى تؤدى اليه ، حتى لا يضيع الاستقرار من بين قدمى وطنهما . فدأبا على العمل من أجل مصلحة الشعب فى اطار الحرية والعدالة والرخاء وغيرها من الركائز الأولى للاستقرار . وذلك منذ ساقتهما طموحات الشباب الى العمل السياسى ، ووضع كل منهما خوزة هذه المهمة فوق رأسه ، وانتضى سيفها فى يمينه ، مع ولائه القومى النقى المتلألئ كضوء القمر ، والقوى كنور الشمس . وهذا حال بين أى منهما وبين أن تصيب الاستقرار فى هذه الجزيرة على يديه مجرد شرارة من شرارات الطموح السياسى أو الخلاف الحزبى ، عندما كان هذا أو ذاك يفتح نيرانه على خصمه بين دق الطبول ونفخ الأبواق .

فرجل الحكم أو الدولة لا يستطيع بأى حال أن يخطو خطوة الا اذا كان الاستقرار كحقيقة الهواء الذى يعيش فيه وبه . فهو أول الضرورات الحتمية فى هذا الشأن الذى ينبغى لهما أن يكونا على

## - ١٤٦ -

دراية ومعرفة واسعة بعوامل اقراره ، بادراكهما له . وكذلك بالطبيعة البشرية ، والسلوك الاجتماعى للمواطن وعلاقاته بمن حوله ، وفكرته عن الحياة فى جملتها . والنتائج التى يمكن أن يؤدى اليها التفاعل المستمر بين طبيعة البشر وسلوكهم من ناحية ، وفكرتهم عن الحياة وأمانهم فيها . والعلاقة بين المواطن والمواطن ، وصلة هذه العلاقة بطبيعة الحكم وواجباته وأهدافه التى يجب أن تتحقق . الى آخر ذلك .

ونظرا للمسئولية الكبرى لكل من ( دزرائيلى الساحر ) و ( جلاستون الكاهن ) عن امبراطورية لم تكن الشمس نفسها لتغيب عنها ، لم يغفل أى منهما عن الدور الذى يلعبه ( الاستقرار ) فى حياة الدول عامة ، أو على الأقل فى حياة انجلترا فى عهودها السابقة . وكان لهذا مثالان من أبلغ هذه الأمثلة وضوحا وتوضيحا .

فأولا ، عندما وليت ( الملكة اليزابيث ) ( ١٥٥٨ - ١٦٠٣ ) الحكم فى انجلترا مهدت لحكمها بقدراتها الشخصية الفذة لتثبت أنها جديرة حقا بالتاج البريطانى ، وأنها ملكة لدولة عظمى . وذلك بالحرص بادىء ذى بدء ، على أن يخيم الاستقرار والوحدة والسلام على بلدها ، بحلول قامت بها بالنسبة لمشاكل انجلترا ، فاجأت بها أعداءها فى الأوقات المناسبة ورمت بهم فى هوات الحيرة والارتباك ، فخلصت بلادها من مشاكل عديدة كانت تحاصرها . فلم يكن يغمض لها جفن وهى توحى وتشجع وتدفع بالسفن المسلحة الانجليزية لصد النفوذ الأسبانى فى العالم الجديد . اذ هى حين وضعت التاج على رأسها كانت انجلترا تترنح من الضعف فى قوتها الحربية والبحرية ، بينما سيادة البحار معقودة لأسبانيا ، وثمة سيادة بالذات لها على انجلترا واضحة ، على الرغم من تحالفها ! فنفوذ انجلترا فى آيرلندا قد زال ، والمناوشات على حدود اسكتلندا لا تنقطع ، والنزاع الدينى طاحن شديد . ولكن هذه الملكة لم تقف مكتوفة الأيدى ، وانما كانت تنقض فجأة من حين الى حين بجرأة محسوبة لتضفى الحركة والحياة والاستقرار على بلادها فى جميع نواحي حياتها الاجتماعية والسياسية ، والعلمية أيضا ، حتى قيل عن عهدها انه « عصر النهضة » فى انجلترا ، وبداية عصر انجلترا الحديثة كدولة كبرى وقوة عالمية ، فى حمى بحر المانش حارس انجلترا الأمين ، والمعلم القدوة لأبنائها . فاذا بها تقضى



على الخلافات ، وتخدم الاضطرابات ، وترسى قواعد الكنيسة فى انجلترا ، وتضع الحدود لدسائس البابا وأسبابيا ضد انجلترا ، وتعيد تنظيم الأسطول لتصبح السيادة فى البحار لانجلترا .

ويجب أن يلاحظ أن النزاع كان حامى الوطيس بين انجلترا وأسبانيا فى عهدها ، كما كانت كراهية الانجليز للأسبان شديدة ، وكان ذلك مع قيام حركة الاصلاح الدينى واعتناق انجلترا للمذهب الأنجليكانى ، بينما أسبانيا تترزع الدفاع عن الكاثوليكية . الا أن عهدها كان عهد ملاحين عظام مهرة من أمثال ( همفرى جلبرت ) ، و ( السير والترالى ) و ( السير فرنسيس دريك ) ، و ( اللورد هوارد ) و ( هوكنز ) و ( كافندش ) . والاول هو الذى منحه « حق الاستيطان والامتلاك لجميع الأقاليم النائية التى يقطنها وثنيون ولا يمتلكها أمير مسيحي » . وهو الذى خرج مع مهاجرين انجليز عام ١٥٨٣ ، ليستعمر بهم (نيوفوندلاند) ، ولكنهم عادوا جميعا الى انجلترا بسبب البرد القارس فى الشتاء . وهو بالمثل صاحب العبارة المشهورة الماثورة عنه التى تقول : « ما استحق أن يعيش على الاطلاق ، من يجافى خدمة بلاده ، أو شرفه ، خوف الخطر والموت ، اذ الموت محتم ، وانما ذكر الفضيلة خالد » . أما ثانى هؤلاء الملاحين العظام المهرة ، فقد عهدت اليه هذه الملكة فى ٢٥ مارس ١٥٨٤ ، باكتشاف واستيطان واستعمار منطقة كبيرة فى أمريكا الشمالية ، من ( سانت لورنس ) شمالا حتى ( فلوريدا ) جنوبا . وانتهى الأمر باقامة مستعمرة ( جزيرة رونوك ) فى ( فرجينيا ) . وذلك بعد وفاة ( همفرى جلبرت ) بستة شهور . وثالث هؤلاء الملاحين العظام ، كان هذا الذى قاد ( كلاب البحر الاليزابيثية ) Elisabethian Sea Dogs ضد مراكب الأسبان ، للاستيلاء على حمولتها من الذهب والفضة عند عودتها من مستعمرات أسبانيا وأملاكها فى العالم الجديد فى أمريكا الوسطى والبحر الكاريبى . وهذه المناطق هى التى كانت قد اقتحمتها وغزتها أسبانيا من أجل ( الذهب والأرض والعبيد ) . ورابع هؤلاء الملاحين العظام المهرة كان كوكبة من ( هوكنز ) و ( هوارد ) و ( سيمور ) و ( السير ونترديك ) أبطال الدفاع عن جزيرتهم ضد الغزو الأسباني لها ، عندما حاول ملك أسبانيا الانتقام من الملكة

اليزابيث)، فأرسل لذلك أسطولاً الضخم (أرمدا) وقوامه ١٣٠ سفينة . ولكن الانجليز ، ومليكتهم التي دأبت على توفير الاستقرار بحذافيره لبلادها ، وبـ ( القراصنة المحظوظين ) الذين مر ذكرهم ، وبمراكبهم الخفيفة والسريعة حطموا الأسطول الأسباني . وكان عدد سفن الأسطول الأسباني التي أصر ( السير فرانسيس دريك ) على تحطيمها بمفرده ( ٣٧ ) سفينة ! وعندما سمعت هذه الملكة بهذا الانتصار ، وتحطيم العواصف لما بقى من سفن ( أرمدا ) التي لم تتحطم ، حمدت الله قائلة : أرسل الله رياحه ففرقتهم . وهكذا قضت انجلترا فى هذه الفترة من تاريخها على قوة أسبانيا البحرية ، وقدرتها على منازلة انجلترا فى مغامراتها البحرية ، ومغامراتها التجارية ، ومغامراتها الامبراطورية أيضا ، فأخذت انجلترا تؤسس مستعمراتها !

ولا عجب ، فهذه الملكة كانت بحق ثاقبة الفكر ، فذه فى نشاطها وجراتها ، متفانية فى عشق بلادها وخدمتها ، فاذا بالمؤرخين والكتاب يعتبرونها ( صاحبة العصر الذهبى ) ، ويردون جميع ذلك الى شخصيتها وثقافتها ، وهندسة حكمها الدقيقة ، وما اقامته منذ أول وهله من جسور الاستقرار على أعمدة التعاون والمودة مع الشعب وبرلمانه ، والحرص على التوازن بين سلطتها كملكة وبين سلطة الشعب الخالدة . والأعجب أنها حققت ذلك فى فترة لم تكن الديمقراطية قد توطدت فى انجلترا . فالبرلمان الانجليزى لم تتوطد سلطته الا فى أواخر القرن السابع عشر ، عندما لم تعد لآى سلطة أخرى فى انجلترا أن تتحدى سلطة برلمانها من قريب أو بعيد .

هذا وكان اتجاه خط هذه الملكة آخر ( ملوك التيودور ) فى الحكم غير خط هؤلاء الملوك الذين كانوا يمارسون الحكم فى انجلترا على أساس نظرية ( الحق الالهى المقدس للملوك ) ، وهم ( ملوك الاستيوارت ) الذين كانوا يحكمون استنادا الى هذا الحق المقدس ، فأدى بهم ذلك الى ألْقهر المروع ، والطيش الأخضر ، والافتقار الى الاستقرار بظلاله الوارفة الظليئة ، بسبب مواجهات بين ( ملوك الاستيوارت ) هؤلاء وبين أعضاء البرلمان وهم يطالبون بحقوقهم الدستورية ، وبحقوق القضاء فى الاستقلال . وهذا ما حدث فى هذا

الشأن عام ١٦٢٠ فى صورة احتجاجات وصراع بين (ملوك الاستيوارت) وهم يحكمون ويتصرفون على أساس حقهم المطلق ولا سواه ، وبين الرعايا والشعب الذين كانت عقيدتهم الراسخة لا تدور الا حول فكرة أن الملوك ينبغى بهم أن يفوا الوفاء الكامل بوعودهم ، وأن يحافظوا على حرمة القانون فى بلادهم .

ويوضح ذلك مثالان من تاريخ انجلترا . فاولا ، عندما عارض رجل القانون الضليع ( السير ادوارد كوك ) الملك ( جيمس الأول ) فى بعض القضايا ، صرخ هذا الملك قائلا لـ ( السير ادوارد كوك ) : اذن فانا تحت القانون ، وتقرير هذا المبدأ خيانة وطنية ؟ ولكن ( كوك ) أجاب الملك بشجاعة وحكمة وحلم قائلا له : ( نعم يا سيدى ، أنت خاضع لله والقانون ) ١ . وثانيا ، وفى عام ١٠٦٤ ، أثناء حكم الملك شارل الثانى ، ذهب هذا الملك بشخصه الى المجلس النيابى ، لالقاء القبض على خمسة من أعضائه عرفوا بمعارضتهم له ، ولكن لم يجدهم . فسأل رئيس المجلس عنهم . فكان جوابه على سؤال الملك هو : « مولاي ، لا ترى عيناى الا ما تراه عيون أعضاء هذا المجلس . » « ولا تسمع أذناى الا ما يقولونه . ولا ينطق لسانى الا بما تنطق به » « ألسنتهم . وليس عندى ما أقوله غير ذلك » . فاذا بالملك يلوذ بالصمت وينصرف ، دون أن يعرف مكان هؤلاء ليقبض عليهم .

وثانيا ، حين نصل الى الحديث عن المثل الثانى الذى كن لابد من ألا يغفله أى من (دزرائيلى) أو (جلادستون) نظرا لأهمية الاستقرار فى حياة انجلترا فى عهودها السابقة ، نقول : عندما أصبح الاستقرار سمة عامة بارزة لنظام الحكم فى بريطانيا ، دأبت انجلترا بفضله على اصلاح نفسها والمحافظة على هذه السمة ، فصار نظام الحكم فيها حديث العالم عامة وموضع اعجاب الكثيرين ، وعلى الخصوص فى فرنسا ، وكذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى تسترشد بمبادئه ليقرروا نظام الحكم فى بلادهم بعد استقلالها . اذ أصبح يطلق على انجلترا بفضل نظام الحكم فيها نتيجة للاستقرار ( أم البرلمانات ) قاطبة ، وأصبح يطلق على برلمانها فى القرن التاسع عشر ( البرلمان الزاهر ) . وهذا هو القرن الذى فى غضونه صعد ( دزرائيلى الساحر ) و ( جلادستون الكاهن )

و ( بسمارك المارد ) على فلك التاريخ . وجدير بالملاحظة فى هذا المقام ، أن الديمقراطية فى أسمى صورها استلزمت معها حينذاك أن يتولى بالفعل القضاء فى إنجلترا «قضاة اتصفوا بالشدة والجهامة والجرأة، ونخور فى حضرتهم عزائم الجميع » . وكان ذلك كضرورة حتمية لتأكيد الديمقراطية وتدعيمها فى إنجلترا فى حمى القانون ، فتنحقق الحرية والعدالة فى الواقع بصورة أكيدة ، وبالتالي ينطلق نشاط كل مواطن فى نظام واطمئنان ، ويحس بالأمن والأمان . فملأت الحرية كل مكان ، وملأت نسماها صدر كل انسان ، وظل الاستقرار بفضل العدالة والحرية ركيزة ثابتة فى إنجلترا على مر الزمان . ويلاحظ ثانيا أنه فى جو نظام الحكم هذا « تمرس الناس جميعا فى بريطانيا حكاما ومحكومين قرونا على ممارسة الحكم» . فاذا بمدينة (لندن) العاصمة أيضا فى مدى معين غير بعيد، ونتيجة لسيادة الحرية والعدالة والنشاط والعمل والانتاج، تصبح « مركزا لمجتمع راق ، وحكومة ، وتشريع ، وسياسة ، وصناعة، وتجارة» . وإذا بنهر (التايمز) بعد فترة معينة غير طويلة «يشهد مايزيد على ألفى شراع من كل الأنواع ، وهى تحمل ثلاثة أرباع تجارة هذه المملكة » . وإذا ( بالصوف ) قوام ثروة هذه الجزيرة الصغيرة يبلغ ربع جملة صادراتها عام (١٧٠٠) . وإذا بكنوز إنجلترا تتدفق من التجارة الخارجية . وبذلك وغير ذلك فى هذا الشأن ، صنع أبناء هذه الجزيرة الصغيرة حكاما ومحكومين حضارة لانجلترا ، من عقر دارهم . ولا عجب ، فالدول والأمم تسعى بل تصبوا الى أن يكون لها حضارة وتاريخ ، فالتاريخ أمر مقدس ، والحضارة فضيلة كما يقال ، إلا أنها كفضيلة لا تذكر عادة بلفظها بين فضائل دستور مملكة الأخلاق .

ولتوضيح الشوايح بين الاستقرار والعمل والانتاج والحضارة ، ثم الخلود الحضارى فى النهاية نتيجة لذلك ، كما أشرنا الى ذلك فيما سبق نقول : لا مراء فى قول يقول : ان ( العمل ) فى حياة الانسان يكاد أن يكون ( كل شئ ) ، بل هو فى الحقيقة والواقع ( كل شئ ) كما قال أحد الملوك فى شبه الجزيرة الاسكندنافية . ولكن لا (عمل) بدون ( استقرار ) . فالاستقرار فى حياة النوع البشرى عتبة (العمل)،

## - ١٥٤ -

والعمل والانتاج بدورهما عتبة الحضارة والتاريخ . فبالابداع والاتقان في العمل يدخل الانسان في الحضارة والتاريخ ، ويفوز بهذا النوع من الخلود . المتاح للانسان ، فيضيفه على اسمه بعدما عمل وانتج وابدع واتقن في عمله ثم يحصل على هذا الخلود . ولذلك ومن أجل صالح الناس ، كان من حكمة الله أن جعل هذا النوع من الخلود في حياة البشر وليد الاستقرار ، بأن أناط تحفيته بالانسان كواجب مفروض عليه دون غيره ، ويسر له السبل لتحقيقه لصالحه ، وهياه وأعده له . وذلك بأن خلق اياه ( حيوانا عاقلا ) و ( حيوانا اجتماعيا ) و ( حيوانا سياسيا ) ، ليفطن الانسان بعقله وخبرته ، وهو يعيش بصورة حتمية في مجتمع مع غيره ، ويتدرج على سلم التطور ، فيعرف ويلمس أن «فكرة المجتمع» و «فكرة الحكومة» تتضمن الواحدة الأخرى \* ، وأن « وجود الحكومة » يظهر « بصورة تلقائية » \* ، وأن وجود الحكومة نفسه « ضرورة حتمية » \* . وهنا يسفر ( الاستقرار ) عن نفسه للانسان على أرض ( السياسة ) تحت أعلام « حكومة » . ويتضح له في الوقت نفسه أن حاله قد أخذ ينصلح مع ولرج ( الاستقرار ) في المجتمع ، وأصبح الانسان يعيش في (استقرار) . ويزداد الأمر وضوحا ، عندما يقارن الانسان حالته الجديدة هذه بحالته عندما كان يعيش مع غيره من قبل في ( فوضى ) ( لاسراة لهم ) . ونتيجة للاستقرار في المجتمع يتباح للجميع أن يعملوا ، وأن يعمل أى فرد ( عملا ) ، أو يقيم ( شيئا ) ينسب اليه وهو حى يرزق ، ويذكر به بعد مماته ، وذلك ( غير الزوجة والولد ) . فاذا بهذه الذكرى !تى يقيما الفرد بالعمل ويرفعها وينشرها لنفسه قبل موته ، نقوم بالفعل مقام ( عمر ثان ) له ، وتلعب بعد موته دور نوع معين من خلود واحد له ، هو (الخلود الحضارى) . وهذا الخلود نسبى غير مطلق . وفى امكان الانسان أن يحصل عليه وأن يضيفه على اسمه واسم دولته ، أو هما معا . وذلك على عكس (الخلود المطلق) الذى تطلع اليه واشتهاه منذ أن خلق ، عندما شاهد تكرار زوال الأمم والأقطار ، وتكرار موت القادة والملوك والرؤساء ، والأبطال

---

\* ليفى بريل : فلسفة أوجست كونت ، الترجمة العربية للدكتورين محمود قاسم والسيد محمد البدوى ، الباب الثالث ، ( الاستاتيكا الاجتماعية )

والرواد ، فسمى ( الموت ) ( الظلم الأكبر ) ، وسمى ( الآخرة ) ( دار الظلمة ) و ( البيت الذى حرم ساكنوه من النور ، وأصبح طعامهم التراب وقوتهم الطين ) . ولكنه عرف أخيرا عجزه عن التغلب على الموت ، وتأكد من أن ( الخلود المطلق ) خلود لم يكن قط له ، ولن يكون أبدا له ، وهو المستحيل بالنسبة اليه . وهذا ما تطلعنا عليه مثلا ( ملحمة جلجاميش ) فى أدبنا الأسطورى القديم لمنطقتنا العربية مهد الأديان . ففى هذه الملحمة نسمع صوت ( سودرى ) ، وهى مجرد صاحبة حانة متواضعة وسافيتها الوحيدة فى الوقت نفسه ، يجلس وهى تصيح بـ ( جلجاميش ) وتنصح به نصيحته . ولكن دون أن تشير الى عبيدة أو دين معين لتدعم به نصيحته . ولكن ( جلجاميش ) ذن يعيش فى فجيرة محزنة مبكية لموت صديقه ( أنكىدو ) الذى كان قد أخذ فى البحث بسرعة عن ( اسلود المطلق ) ليجده ، ولكن ( سودرى ) قالت له :

~~~~~

( جلجاميش ) الى أين تندفع مسرعا ؟  
ان الحياة التى تبحث عنها لن تجدها  
لأن الآلهة عندما خلقت البشر  
حكمت على الناس بالموت  
واحتفظت لنفسها بالحياة .  
أما أنت ( يا جلجاميش ) فاملا بطبك  
وكن سعيدا بالنهار والليل  
وتمتع باللذة كل يوم .  
ارقص وابتهج ليل نهار ،  
ارتد الملابس النظيفة  
اغسل رأسك واستحم فى الماء  
تأمل الصغير الذى يمسك يدك ،  
وأسعد زوجتك على صدرك\*

★ ★ ★

---

\* د. عبد القادر مكاوى : جذور الاستعباد ، كتاب رقم ١٩٣ ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت

وهكذا تظهر لنا الأهمية الكبرى للتمييز الكبير البارز للصراع الحزبي الرهيب بين (دزرائيلي الساحر) و (جلادستون الكاهن)، في تاريخ انجلترا من حيث حرص كل منهما على ألا يمس صرح (استقرار) انجلترا بأقل سوء. بيد أن هذا الصراع عابه وقبحه من غير شك الأوصاف غير المستحبة التي كان يكيلها كل منهما للآخر. فوصف (دزرائيلي) (صاحب العبارات اللاذعة والبراقة والمتكبرنة) (جلادستون)، بأنه «رجل يدعى الورع» و «ليس بقديس كما يدعى»، وليس «بالمسيحي المتمسك بمسيحيته». وهو «المزيح العجيب من الحسد والحد» و «والضحية المتطوعة لكل أكذوبة قد توصله إلى الحكم»، و «البعيد عن التهذيب، وهذه صفة بارزة تميز بها، سواء كان رئيسا للوزراء أو زعيما للمعارضة، أو كان يعظ ويصلي أو يكتب». ووصف (جلادستون) (دزرائيلي) بأنه «الرجل العبرى» و «الوثني الكريه» و «المارد الذي يقدف النار من فمه»، و «الممثل المحزن المضحك»، و «سياسته عقيدة دنست نفسية الشعب الانجليزي وحملته على محاربة أمم الأرض وجزت عليه انتقاما عادلا». وزيادة على ذلك فهو (الكافر الكبير) عنده! رغم أن المعروف أن (دزرائيلي) زار (أورشليم) و (جبل الزيتون) و (ركع أمام القبر المقدس)، وأثارت هذه الأمور دهشته الشديدة، إلى حد أن تسأل حينذاك في عجب قائلاً: كيف لم يصبح اليهودي مسيحياً! وهكذا وصم (جلادستون الكاهن) (دزرائيلي) بوصمة الكفر على الرغم من أن (دزرائيلي) كان يميل إلى مبادئ كنيسة انجلترا، ودافع عنها أمام الملحين، وأشاد بقوتها، ودعا إلى أن تكون موضع تقدير واحترام، لأن من شأن ذلك أن يضمن السلامة الروحية لانجلترا، ويدعم نظام الحكم فيها. وعلاوة على ذلك، فهو الذي قال: «إن الإنسان ولد ليعتقد»، و «العالم الهى»، و «وجوده هو بالذات الهى»، أى وجود دزرائيلي.

وإذا كانت هذه الأوصاف غير المستحبة توضح ضراوة الصراع السياسى بينهما وخلافهما واختلافهما بصورة كبيرة، فإن ثورة بلغاريا حينذاك قد فضحت هذا الخلاف وذاك الاختلاف بصورة أكبر وأوضح. وموجز

ذلك أن ( جلادستون ) « الزعيم الحر خـير زهرة أنجبتهـا ( كـليه ايتون ) و ( جامعة اكسفورد ) » ، بينما هو يمارس هوايته فى فـلاحة الأرض وتحطيب الأشجار فى غابات ( هواردن ) الجميلة ، اذ به يسمع صيحات البلغار وهم يساقون الى السجون ، وأطفالهم يذبحون ، ونساؤهم تهتك أعراضهن ، وعذاراهم يبيعن البهائم فى الأسواق ، ومع ذلك كان ( دزرائيلى ) رجل انجلترا الأول هادىء لا يحرك ساكنا . ولكن هذا الحادث أخذ يهز كيان (جلادستون) ، فصوره فى صورة مأساة تشير الغضب وتدمى القلب ، بسبب ما حاق بالبلغار على يد الأتراك والانكشارية . وبالفعل صوره بأروع بلاغة عرفها الأدب الانجليزى ، فى رسالة عاصفة صارخة تقول :

« الأتراك نوع من أنواع البشرية عديم الانسانية . فلا يستطيع « مجرم فى سجوننا، أو أحد أكلة اللحوم البشرية من بحار الجنوب عديم الانسانية ، أن يسمع هذه القضية بلا غضب . والعلاج هو ارغام « الأتراك على أن يخلصونا من أنفسهم . وانى لأرجو من ضباطهم « ومديريهم ويمباشيتهم ونقبائهم والقائمين مقامهم وباشواتهم ، كل « هؤلاء وأحمالهم يرحلون من الولايات التى خربوها ودنسوها \* » . ونشرت هذه الرسالة ، ووزع منها أربعون ألف نسخة ، وقال ( دزرائيلى ) عنها انها « شديدة الانتقام وشر من فظائع البلغار » . وأخذ ( جلادستون ) يواصل فى هذه القضية الحملات والاجتماعات وجمع التبرعات ويقول: «ان ( دزرائيلى ) يؤيد تركيا الهرمة ،لأنه يظن أنها سوف تموت ، وأسطوله فى خليج ( بشقه ) . وأكد أن أكون موقنا أنه على استعداد للاستيلاء على ( مصر ) فى أول فرصة ، وقد نراه بعد ذلك ( دوقا لمنفيس ) . فعلق ( دزرائيلى ) على ذلك قائلا : ان ما تطلبه هذه الاجتماعات هو العبث لا السياسة ، وهى شىء غامض ونظيرى لا عملى « . فيقول (الأحرار) : «وهذه هى سياسة الأنانية» . فيرد عليهم ( دزرائيلى ) ساخرا ويقول : « أن فيها من الأنانية ما فى الشعور الوطنى » .

(\*) اندريه موروا : بنيامين دزرائيلى ، الترجمة العربية للأستاذ حسن محمود



ولم يكن السر فى موقف ( دزرائيلى ) هذا هو حبه للاتراك الذى عرف به . وانما كان يرجع هذا الامر الى حرصه الشديد على مصلحة انجلترا من حيث الحفاظ الساهر على سلامة مواصلاتها الامبراطورية الى الهند برا وبحرا عن طريق ( قناة السويس ) . وهذا دفع ( دزرائيلى ) الى رفض طلب لروسيا والمانيا والنمسا حينذاك ، لتشارك انجلترا معهم فى توجيه مذكرة شديدة اللهجة الى تركيا . فهو يعد تركيا آمن جانبا من روسيا بالنسبة الى سلامة المواصلات الامبراطورية ، ويعتبر فى الوقت نفسه ( جوركاكوف ) فى حد ذاته رجلا لا يؤتمن ، ( ويسمارك ) رجلا لا يعتمد عليه . فهو لم يكن يخشى شيئا أكثر من وصول الروس الى البحر المتوسط وجلسوس الدب الروسى فى القسطنطينية . ولقد دعم هذا الموقف لـ ( دزرائيلى ) من أزمة بلغاريا ، أن رأى العام الانجليزى كان يمقت بالفعل روسيا . وكانت الملكة فكتوريا وزوجها يكرهانها . ومع ذلك ، ظل ( جلاستون ) يصر على موقفه من هذه القضية كل الاصرار ، على الرغم من أن موقفه هذا كان لا يروق للبلاط أو الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع الانجليزى ، ولا لرجال الصحافة جميعا ، ولا لغالبية أعضاء البرلمان . وزاد من صعوبة موقفه هذا التهاب حماس الجماهير نتيجة لارسال الحكومة الجنود الى مالطة وانفاذها الأسطول الى الدردنيل ، عندما هددت روسيا تركيا باحتلال القسطنطينية . وظل ( جلاستون ) يهز انجلترا هذا بحملاته واجتماعاته وتصريحاته بشأن البلغار وما يعانونه ، عن طريق اشعال شعلات الفضيلة والانسانية فى بلاده . وقد ساعده على ذلك ما كان يتمتع به من قوة البيان ، وذراية اللسان ، وقوة الحجج التى تسيطر على عقل من يحاوره فتنفذ الى قلبه . كما كان على قسط رفيع من القدرة الفائقة على افحام خصومه ومعارضيه وتسفيه آرائهم ، وكذلك على نصيب كبير من الجراءة . وقد تجلت هذه الجراءة فى تطبيقه فى عهده ( مبدأ التحكيم ) لاقرار العدالة فى قضايا انجلترا السياسية ، فاذا بالاحكام فى هذه القضايا عند النظر فيها تصدر لصالح خصوم بريطانيا ، فتتساقط الأشجار الضخمة فى الامبراطورية الواحدة تلو الأخرى ، على يد ( جلاستون ) ( خطاب هواردن ) . كما تجلت جرائته هذه عندما أعلن يوما أن ( رسالته ) التى اصطفاه الله

لها هي ( تهدئة ايرلندا ) . وعندما اضطلع بالفعل بهذه المسؤولية ، ألغى الكنيسة البروتستانتية دون مراعاة لعواطف الأسرة المالكة . وحدد قيمة ايجارية للأراضي الزراعية لصالح الفلاحين أولا وأخيرا ، مع العلم بأنه كان واحدا من كبار الملاك المعروفين . ولكنه فشل فى ( تهدئة آيرلندا ) عندما اضطر الى استخدام القوة ، مما أعطى فرصة لـ ( دزرائيلى ) للتهكم والسخرية فقل : « انى لأذكر أنى سمعت أحد وزراء جلالتها يقول فى السنة الماضية : كل شخص يستطيع أن يحكم آيرلندا بالجنوب والمدافع ... نعم كل شخص حتى السيد المحترم \* » .

وكان من ألمح ما تميز به أخلاقيا عقيدة له تقول بوجود ضرورات أخرى فى العالم غير (الضرورات السياسية) التى يقول بها (دزرائيلى)، ألا وهى ( الضرورات الأخلاقية ) . وكان يواجه بها بسخرية (دزرائيلى) عندما يتحدث عن ( صالح الامبراطورية ) أو ( ايجاد جيل طارق جديد ) كضرورات سياسية ، بينما كان المشاهد للجميع فى الوقت نفسه أن روسيا تزداد رقعتها، والحرب دائرة فى الهند، وأفريقيا يسيل الدم على أرضها ، وسياسة ( دزرائيلى ) الانجليزى « تجر عليه كما قال « انتقاما عادلا » من السماء ، ما بين قتل للبعثة الانجليزية الى ( كابل ) ، وقيام قبائل ( الزولو ) بأسر ( ولسلى ) وهطول الأمطار فى ( هوجندن ) بغزارة أتلقت المحاصيل فلم تعد تكفى حاجات الشعب ، على الرغم من « ضرورات دزرائيلى السياسية ! » .

هذا ، وكم شهدت دائرة ( جلاستون ) الانتخابية فى اسكتلندا (جلاستون) يدعو ناخبه الى الا ينسوا أو يتناسوا التفكير فى رفاه الجنس البشرى وهو يقول لهم: «تذكروا أن قدسية الحياة فى أفغانستان الجبلية بين جليد الشتاء مصونة فى عين الله القدير ، فهى لا تقل قدسية عن حياتكم نفسها » . وكم شهدت قرى اسكتلندا ( جلاستون ) وهو يهزها هذا « بوجهه الجميل الشبيه بوجه الطير الكاسر » وبزعاته الأخلاقية .

(\*) أى ( جلاستون )

ومع ذلك لم يتزحزح ( دزرائيلى ) عن خطه السياسى و ( ضروراته السياسية ) ، وأخذ يقول : « ما دام الشعور بقوة انجلترا فى مجالس « أوروبا ، فانى أعتقد أن السلام سيسود لمدة طويلة . أما اذا ابتعدنا « فالحرب لابد منها . وهذا موضوع أتكلم فيه لأهل لندن عن ثقة . « لأننى أعلم أنهم لا يخلجون من الامبراطورية التى أنشأها أجدادهم ، « فلا بد من عاطفة نبيلة ، وهى عاطفة الوطنية . ولكن الفلاسفة ينددون (١) « بها الآن . لأننى اعرف أنهم لا يعتقدون أن بقاء امبراطوريتهم « فيه خطر على حريتهم . سئل رجل من أعظم عظماء الرومان عن « سياسته فأجاب : ( الامبراطورية والحرية ) . وهكذا تظهر لنا فى قوله هذا بوضوح ما كىافليته ونزعة الاستعمارية . فقد قال ما كىافلى : لجميع الحكومات الحرة غايتان رئيسيتان ، أولاهما هى توسيع ممتلكاتها ، والأخرى المحافظة على حريتها (٢) . وهذه النزعة ليست بأمر غريب بالنسبة الى ( دزرائيلى ) ، فهو الذى كانت ( مستعمرة الهند ) عنده « لؤلؤة ترسل اليه باستمرار بريقها من الشرق « . وكان المغامر الساحر الذى اجتذب قلوب أبناء انجلترا الذين انحسروا عن أجدادهم الذين عرفوا بـ ( القراصنة المجدودين ) ، الذين لم يخشوا يوما فى تاريخهم أبدا ركوب الأهوال من أجل عظمة جزيرتهم ومجدها منذ « كانوا يشيطون ظاهرا طعمهم على الجمر أو يأكلونه نيئا « . واذا كانت الصحافة الفرنسية قد أشادت يوما بالتقاليد الانجليزية الرفيعة المرعية عند أبناء هذه الجزيرة وقالت : « ان تقاليد انجلترا لم تمت تماما ، فهى تعيش فى قلب امرأة وسياسى عجوز » ، فانها كانت تعنى ( الملكة فكتوريا ) و ( بنيامين دزرائيلى ) الذى كانت تألفه دون ( جلاستون ) . فكانت ترتاح لفوزه فى الانتخابات ، وتضيق بفوز ( جلاستون ) فيها . وبلغ بها هذا الضيق الى حد أنه وقد فاز ( جلاستون ) فى الانتخابات ذات مرة ، أن أرسلت برفيقة الى ( دزرائيلى ) تقول بمناسبة فوز ( جلاستون ) : « لن تكون الحياة لى فيما بعد الا مضايقات ومحن ،

(١) يشير الى ( جلاستون )

ولكن تقاليد انجلترا المرعية هي التي حتمت على الملكة أن تقف من غور (جلادستون) في الانتخابات موقفا سلبيا لا يتجاوز مجرد أن تتمنى أن تسقط وزارته ! بيد أنها لم تكن تقف من (دزرائيلي) موقفا نفسه من (جلادستون) . إذ كان (ديزي) قد فهمها الفهم الكافي ، فبيعت الثقة في نفسها عندما يكون على رأس الوزارة ، حتى أصبحت لا تتذوق لذة الحكم أكثر مما تتذوقها الا و (دزرائيلي) ف أصبح رجل انجلترا الأول، وشرع يبعث في نفسها الاحساس بأنها قوية وقوية جدا . كما كان يردد باستمرار قوله فيما يتصل برغباتها : « يجب قبل كل شيء أن تحقق رغبات صاحبة الجلالة » . فكان يركع على إحدى ركبتيه ويقبل يدها حين تستقبله ، ويسعد عندما تمدها اليه راضية . فهو الذي كان يضعها على رأس كل موكب ، حتى غدت هي (فتكوريا الملكة والامبراطورية) ، وغدا هو (لورد بيكونزفيلد) ، وغدت زوجته (ماري) (فيكونتة بيكونزفيلد) ، وغدا (كوري) سكرتيره الخاص من الاشراف والنبلاء . وأصبح (بن) يخاطبها بـ (ملاكى) لا (مليكتى) . ويبدأ رسالته اليها بقوله (سيدتى ومليكتى المحبوبة) . أما هي فتستهل رسالتها اليه بقولها : (عزيزى لورد بيكونزفيلد) . كما أصبحت تطلعه على رسائلها السرية ، وترسل اليه كل أسبوع زهور الربيع التي كان يحبها من (قصر وندسور) ، وزهور البنفسج من (قصر أوزيرن) . وذات يوم سئل (دزرائيلي) عن سر هذه العلاقة التي لم يكن لها نظير فأجاب قائلا : « لا أرفض أبدا ، ولا اعترض أبدا ، وأنسى دائما » . مع العلم بأنه كثيرا ما كان يعترض . فكان على عكس (جلادستون الكاهن) (حطاب هواردن) و (الاسكتلندي الجاف) و (نبي مدلوثيان) ، الذي كان يرفض كل طلبات الملكة بأدب جم لا نظير له ، وياحترام واجلال لا حدود لهما ، ومع ذلك كانت تنفر منه ولا تألفه . وقد يعود هذا النفور الى أنه قد أساء اليها وهي ملكة خلال موقفه من الكنيسة البروتستانتية في آيرلندا التي ألغاهها دون مراعاة لمشاعرها ، وهو يمارس (تهدة آيرلندا) .

## - ١٥٩ -

ويبدو لنا أن من أبرز أعمال ( دزرائيلي ) التي كوفىء عليها مباشرة بلقب ( لورد بيكونز فيلد ) كان فوزه لبريطانيا بنصيب كبير من أسهم ( شركة قناة السويس ) عام ١٨٧٥ ، على أجنحة فكره السياسي الثاقب ، وأشرافاته السياسية العملية ، ودأبه على النشاط والمثابرة عندما كان يستشف باحساسه فرصة ثم يقتحمها فوراً ببراعة ومهارة . وبذلك ضمن لبلده سيطرة محكمة وهيمنة متحكممة على ( شركة قناة السويس ) ، وفوائد عنقودية لانجلترا . وموجز ذلك أن ( خديو مصر ) ، حين أوشك على بيع نصيبه من أسهم قناة السويس لفرنسا بالذات ، لحاجته في الحال الى المال ، بينما الأوجب أن يكون هذا الشراء لصالح انجلترا شريطة أن يتم على وجه السرعة لضرورته وفوائدها ، بينما كان كبار المسئولين في انجلترا يقفون من هذا الشراء موقفاً سلبياً . اذ ( بالمرسون ) كان يسخر من هذا المشروع . ووزير الخارجية يعتبر شراء هذه الأسهم « غرماً » و « اساءة الى العلاقات بين انجلترا وفرنسا » . ووزير الخزانة ينفر من هذه الصفقة ويرى أنها لا تتفق مع سياسة بريطانيا التي عارضت المشروع في بدايته ، وتساعل في شأن هذه الصفقة قائلاً : « وما أهمية هذه الأسهم لانجلترا ، وانجلترا تستخدم القناة بعد جريانها ؟ » . وكأن الواحد من هؤلاء لم يسمع البتة صوت انجلترا حين علا يوم افتتاح ( القناة ) قائلة : « يجب أن تكون القناة لى ! » . وعلى كل حال بينما كان ذلك كذلك ، فان ظروف انجلترا حينذاك لم تكن تسمح بالشراء . فمجلس العموم في غير دورة انعقاده بينما موافقته على الشراء وثمان الشراء ضرورة دستورية لابد منها . والوقت كان ضيقاً غير متسع . ولكن ( دزرائيلي ) ، وقد اشتعل خياله والتهب طموحه وحما نشاطه ، خف مسرعاً وقفز من فوق جميع هذه العقبات وتحداها بقوة عزمته واصرارها ، وكأنه قد أصبح الحصان المدرب على القفز من فوق الحواجز ، والجواد الذي يفوز دائماً بالبطولات في مهرجانات الفروسية . فاذا به يكتب في الحال الى ( الملكة فكتوريا ) ويقول لها بحماس منقطع النظير : « ليس لدينا وقت للتنفس ، ولكن يجب القيام بهذا العمل ، ولابد من تدبير ثمن الشراء » . وعندما تم تدبيره هو بالفعل للثمن ، اتجه الى الملكة ليفيدها علماً بذلك . فوقف بين يديها وقال لها : « مستر دزرائيلي يقدم أكبر واجبات الخضوع لجلالتك ... »

لقد تم هذا العمل ، وصارت لديك فى الحال يا سيدتى أربعة ملايين من الجنيهات . ولم يكن هناك الا محل واحد يستطيع هذا العمل وهو ( مصرف روتشيلد ) ، ولقد سلكوا خيرا مسلك فقدموه فى الحال بفائدة بسيطة جدا ، فصار نصيب ( الخديو ) فى يدك يا سيدتى . وبينما الملكة وقتذاك فى ضيق وقلق من جراء تصريح لـ (بسمارك) المتعجرف قال فيه : «ان انجلترا لم تعد قوة سياسية» ، وأخذ يسلك مسلك (سيد أوروبا) بالفعل . وهذا هو التصريح الذى علق عليه (دزرائيلى) عندما علم به قائلا: «ان بسمارك هو فى الحقيقة (بونابرت) عجوز يجب أن يلجم» . ولكن الملكة حين سمعت بنجاح دزرائيلى فى شراء أسهم (الخديو) غمرها فيض كبير من الارتياح والبهجة والكبرياء بسبب ما أحرزته انجلترا من نجاح على يد (دزرائيلى) بشأن هذه الصفقة التى تعتبر بكل المقاييس «عمل» سياسى خالص وهذا وجه الخطر فيه . وإذا لم يكن فى ذاته احتلال لمصر ، « فانه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال » (١) . « فالمعروف أن أهم ما يشغل » « بال سياسة الانجليز هو » ضمان سلامة المواصلات للامبراطورية « البريطانية بين ( لندن ) رأس الامبراطورية وبين ( الهند ) قلبها « « النابض . وفى اليوم الذى يقطع فيه اتصال انجلترا بالهند تنتهى « « حياة بريطانيا ومجدها . ولما كان الطريق يمر ( بجبل طارق ) « « احتلت انجلترا هذا الجبل . ولأنه يمر ( بمالطة ) وضعت انجلترا « « يدها عليها . ويمر ( بقبرص ) احتلت ( قبرص ) . ويمر ( بآسيا « « الصغرى ) رابت انجلترا فى ( فلسطين ) . ويمر بحرا ( بمصر ) « « و ( قناة السويس ) رأت انجلترا لزاما عليها أن تحتل ( مصر وقناة « « السويس » (٢) . ( فالسويس مفتاح الهند وحارس باب الامبراطورية ) و ( مصر هى الرئيس ، والسويس هى الهند ، والهند هى انجلترا ) . « « والعبرة الأخيرة هى قول لشاعر فرنسا الكبير ( لا مارتين ) فى هذا الموضوع . « لم يحارب ( نابليون ) روسيا لكى يصل الى ( مصر ) ، « « بينما قصده الوحيد من وراء ذلك هو ( السويس ) و ( قناة السويس ) ؛

(١) مازاد : مقالة له عام ١٨٧٥ ، فى مجلة ( العالمين ) الفرنسية

2. J.J. Chevallier : L'Empire Britanique

## - ١٦١ -

الم يقل ( بونابرت ) فى ( سانت هيلانة ) : ان الانجليز يرتعدون وتنخلع قلوبهم اذا رأوا فرنسا تحتل مصر ؟ والم يرفض ( محمد على ) بحكمة وبعد نظر ( مشروع قناة السويس ) وهو يقول : « أنا لا أريد أن أفتح على مصر ( بسفورا آخر ؟ ) » .



والحقيقة أن ( دزرائيلى ) حقق الكثير من طموحاته ، بأن صهر بنفسه معدنه وصبه بنفسه فى القوالب التى تناسب معدنه وهو يبحث عن ذاته ، ليصنع من معدنه الحلى والقلائد التى كان يحلم بها منذ كان غلاما يعيش عيشة التشرد والأشباح والفشل فى الدراسة ، وفى محاولته الأولى للعمل فى السياسة بينما هو ثمل بالحياة ويعيش فى عالم يعاديه ، ويلبس أظهر الصدارى المزركشة ، وأظهر الملابس لونا مع السلاسل المعدنية البراقة التى تجعل أرديته أخاذة . ويتطلع الى أن يعيش فى مستقبل حياته عيشة أرفع طبقات المجتمع الانجليزى وهى طبقة ( الأدواق ) ، التى استهوت حفلات الاستقبال عندهم الفياضة بالبذخ والترف . وموائدهم المرصوص عليها الاوانى الذهبية . وحولها يجىء ويروح خدم فى ملابس قرمزية موشاة بخيوط الفضة تتلألأ تحت الأنوار والأضواء . وفوق هذه الموائد باقات يانعة من الورد والزهر ، وحولها باقات أخرى من جميلات انجلترا ، اللاتى عرفن بحرصهن على ابداع زينتهن من المهد حتى النعش . فاذا بالأعناق منهن تسبح دائما فى غدران تتلألأ كقطرات المياه ، الا أنها فى الحقيقة حبات وفصوص من أندر الأحجار الكريمة . وعيونهن تتألق دائما بسحر جذاب . وثغورهن تناسب منها البسمات الرقيقة والعبارات الحلوة . وبطبيعة الحال ، حقق ( دزرائيلى ) أحلامه الوردية هذه فى غضون وصوله الى السلطة ، بعدما صاغ ذاته أبرع صياغة ووثق من نفسه ، وأخلص فى عمله ، وأبدى شجاعته ، وذلك على حد قول (اللورد دربى) فى وصول (بن) بجدارته الى أعلى درجات السلم السياسى . فأصبح قلادة قومية وضاعة ، وكنزا قوميا كبيرا . فتباهت به انجلترا وافتخرت ، وقد أثبت أنه أقسدر الجميع فى « تحريك العرائس وأحقهم فى أن يشير

( بضروراته السياسية ) ، وأعماله الخالدة وخدماته الجليلة لبلاده ،  
حتى عزف فى ( القارة ) واشتهر بأنه ( أخطر رجل فى أوروبا ) .



والآن نغادر ( بلاد القراصنة المجدودين ) أى إنجلترا ، لنصل الى  
( بلاد أساطين الحرب والعسكرية ) أى ( بروسيا ) . عن طريق ( بحر  
المانش ) حصن إنجلترا الحصين الذى حماها آلاف السنين من المعتدين  
حتى من فرنسا . وبفضله أشاد انجليزى من أبناء هذه الجزيرة ودعا  
أهلها وناسها الى أن يجعلوه أول مادة فى عقيدتهم السياسية . والقصد  
منا فى هذا المقام أن نستطلع على أرض ( بروسيا ) مفاهيم ( ألمانيا )  
و( الألمانى ) حتى نقرب أكثر من المارد ثالث الثلاثة الذين صعدوا على فلك  
التاريخ فى القرن التاسع عشر مع ( بنيامين دزرائيلى الساحر )  
و ( وليم ايوارات جلاستون الكاهن ) . وهذا الثالث هو  
( بسمارك المارد ) ، الذى كان عملاقا حتى فى جسمه ، وصاحب قول مثير  
ينسب اليه يقول : « ان الرجل لا ينبغى له أن يلقى ربه الا بعد أن يكون  
قد دخن مائة ألف ( سيجار ) ، وشرب خمسة آلاف زجاجة من  
( الشمانيا ) » . فلقد كان جسمه عملاقا فاره الطول ، وبنيته ضخمة .  
أما أسمه وموقفه من الأخلاق والسياسة وهو يبنى بلده ، فيتضح  
لنا الوضوح الكافى من خلال ما سوف نذكره ، سواء من أقوال موجزة  
للمؤرخين والكتاب الكبار الذى كان هذا ( المارد ) أو بلاده موضع بحوث  
لهم ودراسات قاموا بها ، أو من خلال مفاهيم ( ألمانيا ) و ( الألمانى )  
وظلالها ، وأركان ( الثقافة الجرمانية ) التى سوف نعرضها ونلقى  
الضوء عليها ، والتى حفل تفكيره بها وهو يبنى بلده .

أما أول هذه الأقوال الثلاثة فيقول : اننا نستطيع أن  
نعد العشرات من أساطين الحرب والعسكرية بين الشعب الألمانى ، بينما  
نعجز عن أن نعد سياسيا واحدا بعد ( بسمارك ) ومن طرازه\* .

---

\* مذكرات ( جراى ) ، تعريب الأستاذ على أحمد شكرى



## - ١٦٥ -

وثانى هذه الأقوال تساؤل يقول : وماذا كان يمكن أن تكون ألمانيا من غير ( بسمارك ) فى القرن التاسع عشر ، بينما الحق غير معروف فى السياسة ؟ فالسياسة تملئ على من يمارسها أن يكون كذابا ومرواغا ، ومجردا من عواطف الرحمة ، ومتجاهلا لكل ما يحدث حوله مع علمه به ، ومتظاهرا بالاتفاق مع الخصم فى الجوهر والخلاف بينهما انما هى خلاف فى العرض ، بينما أنت على علم بمكره ودسائسه وبغدره . هذه هى أصول السياسة ومبادئها !

ونجد ثالث هذه الأقوال لمؤرخ فرنسى يقول : ان سياسة فرنسا فى القرن التاسع عشر كانت تتجه الى غاية واحدة ، وهى أن تمنع فرنسا الولايات الألمانية من الاتجاد كما سبق أن اتحدت فرنسا . فظل مصير أوروبا يدور حول الصراع بين فرنسا وألمانيا من أجل السيادة فى أوروبا . وتميز هذا الصراع فى بادىء أمره بالاعتداء الفرنسى لا الألمانى ، وكان يدور على أرض ألمانية . واننا نفترى على الحقيقة لو اتهمنا ألمانيا وحدها دون فرنسا وبصورنا فرنسا مجرد حمل وديع . اذ منذ أيام ( لوثر ) عبرت فرنسا ( جبال البرانس ) مرات . وأغارت فرنسا على هولندا مرتين . واستولت فرنسا على بلجيكا مرة . ولم تسلم حتى روسيا من اعتداء فرنسا . ولم يرحم انجلترا من اعتداء فرنسا سوى ( بحر المانش ) . أما ألمانيا فكانت ( ملعبا دمويا لملوك فرنسا ) . فماذا كان يجب على ( بسمارك ) أن يفعل ؟ أينتظر حتى تلوح الفرصة لفرنسا لتستولى على ( بروسيا ) لقمة سائغة وتبتلعها ، أم كان عليه أن يقوم باجراء عسكرى فيستخدم القوة ؟ وكان هذا بالفعل هو الخيار الوحيد أمام هذا ( المارد ) .

ان هذا ( المارد ) جاء منذ ولدته أمه صبيغة فريدة من صياغة الله والقدر والحظ لصالح بروسيا وألمانيا . فجاء بالفطرة « استجابة للطبيعة الواسعة الكرم للشروط القاسية لرجل الحكم والدولة » ، و « مطبوعا على أفانين السياسة وحيلها » . وهذان القولان لمؤرخ بريطانى . وهذه الفطرة دون شك هى التى أكسبته فى بداية حياته العملية عندما عمل فى ( ديت ) فرانكفورت وفى الخدمة الخارجية ، الكثير اللازم للعمل السياسى ، فانكب على الثقافة الجرمانية

شاملا كاملا ليعلم بها ، وأخذت هذه المعرفة تجرى فى شرايينه وأوردته كالدم ، حتى تشبع بها تشبعا عميقا فتشكلت سياساته وأخلاقياته فى الحكم .



وهذه الثقافة لم تكن تدور الا حول محور رئيسى واحد هو ( الجنس الجرماني ) باعتباره جنس خشن زاهد زهد حجر الصوان ، الا أنه منظم كالكوكب فى أفلاكها . وهذا الجنس هو الذى اصطفاه الله ليبشر فى الأرض بين صقالبة بحر البلطيق بحضارة ألمانية زاخرة بقوى ذات عنفوان وسلطان ، وبقدرات حافلة بطاقات ضخمة ودائما يقظة متحفزة تثبت وجودها كل حين فى مختلف الاتجاهات ، بشتى الطرق والوسائل والأساليب . وقد فتح لهذا ( المارد ) الطريق الى هذه الثقافة الجرمانية كتاب ومفكرون ألمان معروفون ، مثل : ( ترايتشكى ) و ( فيشته ) و ( هوستن ) و ( استيوارت تشامبرلين ) و ( برنهاردى ) و ( تومان ) . وهؤلاء كانوا يدعون الى ( الهول الألماني ) . وغاية فلسفاتهم أن تتبوأ ألمانيا العليا عن طريق الجد والكد دون كلل أو ملل ، وبالكفاح الذى لا يتوقف سواء فى سلم أو حرب . وأن تزيج من أمامها على درب قوتها وحضاراتها وتقدمها وسبقها ، أى عثرة تعترضها ، حتى لو كانت هذه العثرة أخلاقية . فظلت هذه الأفكار تصيح بالألمان بأعلى صوت ليرفعوا باستمرار ( الأنا القومى الألماني ) الى أعلى الدرجات حتى مرتبة الألوهية . فاذا بالقومية العدوانية تصبح عقيدة كل حزب ، سواء عند المحافظين ، أو الأحرار ، أو الاشتراكيين . وتصبح ( السياسة ) عند الألمان هى ( الحياة ) و ( الحياة ) هى ( السياسة ) . وتصبح ( البطولة ) بالذات عندهم نضالا لا يتوقف وسط الأحداث والوقائع فى مجرى تيار الحياة القوى الجارف . واذا تساعلنا عن المستهدف الأخير من هذه الأفكار ، فلن يكون ثمة جواب سوى أن يكون الهدف الأخير هو بالذات ( تحقيق القيم العليا ) و ( وحدة الجماعة الحية ) .

ان ( الأنا القومى الألماني ) ديدنه ( القوة ) . ففيه ( الحياة

## - ١٦٧ -

قوة ( و ) ( الدولة قوة ) . وتبعاً لذلك فالحياة المدنية ، أو حياة الفرد ، أو الثروة وما شابهها ، اذا ما قيس ( بالقيم العليا ) و ( وحدة الجماعة الحية ) فسوف نجدها لا تذكر أبداً بالنسبة الى ( القيم العليا ) و ( وحدة الجماعة ) . يقول ( سيبورج : « نحن رمال غير ثابتة ، ولكن يكمن فى كل رملة منها الشوق والحاجة الى ( الاتحاد ) مع الرمال الأخرى ، ليتشكل منها فى النهاية حجر صلب يبقى ويدوم » . و « هذه الرغبة فى بؤرة حقيقية ومركز للثقل ، هى التى دفعت الألمان الى أن يجدوا فى الدولة معنى ( الاتحاد الكبير ) ، وأن يعتبروها قوة روحية تكاد أن تكون بذاتها عقيدة وديناً » . وانه الفيلسوف الكبير ( هيجل ) هو الذى ابتدع لبروسيا بعبريته ما يتفق مع مبادئها الأخلاقية ، وذلك عن طريق نظريته التى تقول : « ان الدولة الهه يمشى على الأرض » ، و « الدولة أعظم من عهدها » ، و « الحق لابد أن يدعم بالقوة ، وهو قوة » . وانها هذه الرغبة فى هذه البؤرة عند الألمان هى التى تدفعهم أيضاً الى أن يجدوا معنى ( التضامن ) وحاجاتهم كأفراد اليه ، فى الوحدة الفيزيائية والقوة المادية . ولذلك نجد أن أول اصحاب فى الكتب المقدسة الجرمانية يقول : « فى البدء كان شعبنا المؤمن بأن ( الألمانى ) قبل ( الانسانى ) !

اذن ، كان محتماً أن تصبح نتيجة تشبع ( بسمارك المارد ) بالثقافة الجرمانية ، أن تكون أولى الكلمات التى يكتبها فى أول سطر فى أول صفحة فى فاتحة سجله التاريخى كلمة ( جيش ) . وبالفعل أتم ذلك بفضل ثالوث تشكل منه هو بالذات ، ومن ( فون رون ) ومن ( فون مولتكى ) . وأن يكون من الصور النموذجية لجيش ( بسمارك ) ذلك الجيش الذى خاض به أكثر حروبه ضرورة وآخرها لتحقيق ( الامبراطورية الألمانية ) و (الوحدة الألمانية) ، وهذه هى الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ . اذ شكل هذا الجيش بالفعل ، وجعله يتسم بالابتكار والابتداع فى شتى تفاصيله . ما بين تنظيم بروسى خالص فريد ، وتدريب على فنون القتال المختلفة على أعلى المستويات ، وتجهيزه بأحدث ما كان العلم قد وصل اليه من تلغراف ومدفعية وآليات النقل بالسكك الحديدية ، وتعبئة سريعة . هذا ونظام بروسى هو (نظام الخيالة المراقبين) يحيطون بالجيش الألمانية وهى تحارب فى الميدان ، ويتقدمون مع تقدمها فى

أرض العدو . وبالإضافة الى ذلك كان ثمة دراسات شاملة دقيقة تقوم بها ( هيئة الأركان العامة ) عن جيوش فرنسا من تنظيم وتسليح ومواقع الى آخر ذلك . فانتصر الجيش الألماني على « جيش فرنسا المنظم ذى الصيت الذائع والانتصارات الكبيرة » . واستطاع الجيش الألماني أيضا « تحطيمه فى ظرف شهر واحد » كما يقول مؤرخ بريطانى .

وهنا يفرض تساؤل نفسه علينا قائلا : وهل كان فى امكان بروسيا أن تحقق جميع ما حققته فى القرن التاسع عشر بينما لا يزال نظام التعليم فيها كما كان فى القرن الثامن عشر ، وكما سبق ذكرنا (١) . عندما كان بعيدا عن أصول التربية والتهديب (٢) ، وبعيدا عن الثقافة الجرمانية التى تحدثنا عنها (٣) ، وأمرنا ثانويا ملحقا باللاهوت ، ولا يقوم به سوى خدام وصناع فاسدين ، وجنود مشوهين ، أو ممن أخلاقهم مشبوهة ، وتربيتهم مشكوك فى أمرها ، ومعلمين سطحيين لا يحسنون لغتهم القومية ، ولا يعرفون كيف يعلمون ، ويكرهون محاولة كل اصلاح (٤) ؟ والجواب الوحيد هو : كلا . وهذا ما أدركته بروسيا بالفعل فاعتبرته طامة قومية كبرى . وسرعان ما خفت فى التو واللحظة تقوم بأقوى تعبئة وأضخمها لاصلاحه (٥) فغدا ( المعلم الألماني ) أيضا كما قال الأسطيين العسكرى الألمانى عنه فى الحرب الفرنسية الألمانية عام ( ١٨٧٠ ) سُر الانتصار الألماني فى هذه الحرب (٦) ، وذلك بحكم اصلاح حاله ، فرسالته خطيرة وهى صناعة الأجيال . فهو رائد التنوير والاستنارة ورسول ( تقديس الواجب ) وتقديس ( الواجبات ) فى مظهرها الاجتماعى ، فصناعته هذه يجب أن تعزز

---

(١) ارجع الى ص ٩٨ من هذا الكتاب

(٢) ص ١٠١ من المصدر نفسه

(٣) ١٠٣ من المصدر نفسه

(٤) ص ١٠٢ من المصدر نفسه

(٥) ص ١٠٣ من المصدر نفسه

(٦) ص ١٠٧ من المصدر نفسه

وتدعم دائما ، وأن نسهر عليها دائما ، اذ هي قوة سياسية ضاربة بالنسبة الى تطوير الدول وتقدمها .

ويواكب تساؤلنا السابق تساؤلات أخرى تقول : ألا يعنى ما فاه به هذا الاسطين العسكرى الالمانى فى الحرب الفرنسية الالمانية عام ١٨٧٠ ، الذى يرجع فيه احراز النصر فى هذه الحرب الى ( المعلم الالمانى ) بعد اصلاح حاله ، أن هذا المعلم نفسه كان وراء قيام جيش المانيا الذى (لايقهر) كركن من أركان (النا القومى الجرمانى) فى الثقافة الجرمانية ؟ وأن هذا المعلم كان وراء ولاء هذا الجيش لقائده الاعلى (بسمارك) ؟ وأن هذا المعلم كان وراء تصحيح بروسيا لما كانت فرنسا قد اقترفته فى حقها من أخطاء فى وقت كانت بروسيا مجرد ولاية وليست أمة مثل فرنسا ؟ وأن هذا المعلم كان وراء قول (ميرابو) فى حديثه عن بروسيا وهو يقول عنها : « انها ليست بلدا» له (جيش) وانما هي (جيش) له (بلد) ؟ » وأن هذا المعلم كان وراء زعامة بروسيا للولايات الالمانية الأخرى ؟ وأن هذا المعلم كان وراء المواقف التكتيكية لـ (بسمارك) ، سواء فى موقفه من قول (الميرستون) أو فى موقفه من قول (جلادستون) ، وذلك عندما أخذ الأول كسياسى متعصب لبلاده ولأمر فى نفسه يقول فى مناسبة انتصارات (بسمارك) فى حربه من أجل (الألزاس واللورين) و (الامبراطورية) و (الوحدة) : ( لو كانت دعامة الآراء هي الصدق والعدالة فهي أقوى من الجحافل ، وسوف تنتصر فى النهاية على حرب المشاة وقنابل المدفعية وحملات الفرسان ) ؟ وبالمثل عندما أخذ (جلادستون) يصور هذه الانتصارات نفسها فى صورة ( أخطاء سياسية ) و ( أخطاء أخلاقية ) ويقول : ان نقل ما يزيد على مليون نسمة إنما هو فاتحة سلاسل من التعقيدات ، وهو موضع نقد كبير يدعو الى الأسى ، وهو أمر لا يتفق مع روح المدنية الحديثة والعدالة ؟ بينما الحقيقة التاريخية المعروفة للجميع ، هي أن (اللزاس) مقاطعة ألمانية اغتصبها (مازاران) الفرنسى عام ١٦٧٨ بمقتضى ( صلح وستفاليا ) ، أما (اللورين) فهي التى كان (لويس الخامس عشر) قد استولى عليها بعد وفاة حميه (استانسلوس ليوزنسكى) ملك بولندا . وعلى ذلك فلا مرأى فى قولنا فى نهاية الأمر : ان شأن المعلم فى بداية كل مطاف ، سواء فى بناء الانسان ، أو

## - ١٧٠ -

فى بناء الأمم والشعوب حضاريا وتاريخيا ، هو شأن ( البذرة الصغيرة )  
نفسها فى باطن الأرض ، واليها بمفردها تترد كافة نباتات الأرض  
بصورة لا تعرف الاستثناء .



وصفوة الكلام ، لقد تجلت عبقرية (بسمارك) أولا فى اقامة جيش  
( لا يقهر ) . وفى عزله فرنسا عن حلفائها . وفى ادخاله الدول الأوروبية  
الوسطى فى كتلة سياسية واحدة تحسبا لاعتداء قد يقع من روسيا وفرنسا  
معا ، أو واحدة منهما منفردة ، على الدانوب أو الرين . وفى تقديره أن  
الحرب ضد فرنسا ضرورة ، فأخذ يستعد لها فى الكتمان قبل قيامها  
بثلاث سنوات الاستعداد الشامل الذى لم يترك فى شأنها شاردة أو واردة .  
ودبر أمرها على أساس أن تبادر فرنسا باعلانها هى ، وذلك بتحريه  
( برقية امز ) كفخ سقطت فيه فرنسا بالفعل . وفى تدعيمه لانتصاراته  
العسكرية فى حروبه باغرائه لفرنسا وتشجيعها على امتلاك ( تونس )  
ليهدىء من قلقها وتفكيرها فى ( الألزاس واللورين ) . وقام بذلك وهو  
يقول : « لقد أطلقت العنان لهذا الجواد الجامح النارى المزاج كى يذرع  
رمال ( تونس ) ويخفرها ، وسيرى الفرنسيون أنهم ذهبوا الى مغامرة  
باهظة الكلفة » . وذلك لكى يثير أيضا خلافا بين فرنسا وايطاليا . وبالمثل  
شجع انجلترا على امتلاك مصر ليثير خلافا بينها وبين فرنسا .

وكان من أهم خيوط شخصيته روحه العملية . فلم يكن يقيم  
الأحداث الا على أساس نتائجها العملية . ويقال بأن هذه النزعة عنده  
هى التى حالت بينه وبين أن يقع أسيرا للمسيحية . فكان واسع الحيلة ،  
عريض النظرة ، بعيد الفكرة ، بارع المناورة . كما كان أستاذًا فى فن  
الحكم يلقي فيه كل يوم دروسا جديدة .

وأعجب ( بسمارك ) بـ ( دزرائيلى ) بعدما تعارفا . فقد وجد  
فى هذا اليهودى الكثير مما أثار اعجابه به ، من بساطة وخشونة  
وصراحة . فتوطدت بينهما الصداقة . فكانا حين يجتمعان لا يحلوا لهما  
بطبيعة الحال سوى الحديث فى السياسة وعلاقات الدول ، والأمراء

والوزراء والبرلمانات ، وكذا الاستعمار . وذات يوم وهما يتحدثان أمنم خريطة للعالم تراءى لـ ( بسمارك ) أن من الكياسة وحسن السياسة ألا يحبذ وهو مع ( دزرائيلي ) فكرة الاستعمار بل يعارضها . وبينما كان ( دزرائيلي ) يسحب اصبعه على هذه الخريطة ويمرره على (بلاد البلقان ) اذ به يتساءل : ألا تظن أن هذا ميدان آخر للاستعمار ؟ ألا أن (بسمارك) لاذ بدبلوماسية الصمت ولم يجب . ومما يجب أن يذكر عن عظمة وشهرة ومكانة هذا الساحر الانجليزى أو ذاك المارد الألماني ، أن قيل عن ( مؤتمر برلين ) الذى حضره : ان هذا المؤتمر لم يكن فيه من السياسيين العباقرة الكبار سوى (دزرائيلي) و (بسمارك) . ومع ذلك ، فإن النظم الانجليزية ، فيما عدا روح الانجليز العملية ، لم تكن نروق لـ (بسمارك) . ، فرفض نقلها الى بلاده . اذ كان يعتبر هذه النظم «السم الانجليزى الذى أفسد الفضائل الارستقراطية للأمة الانجليزية » . وعد نقل هذه النظم الى بروسيا مما «يجر عليها الخراب والنكبات» . فبروسيا عنده ليست انجلترا ، ولابد أن « تظل بروسيا بروسيا » و « والبروسيون بروسين » . كما كان يصف الديمقراطية دائما بـ ( عجزها عن تسليم البضاعة » ، وأن « خطبها » (بضم الخاء وفتح الطاء) لا تقيم دولته ، ولن تشكل مستقبل بلاده .

وكان من ألمع خيوط شخصيته ما تميز به من صراحة عرف بها وخدمته كثيرا . فعندما كان يصرح بتصريح ، كان سامعوه يرتابون فى تصريحه ويؤولونه ويتشككون فيه . الا أنه كان لا يسلك بالنسبة الى هذا التصريح سوى المسلك الذى كان يعنيه وصرح به . وكان هذا مما لمسه ( دزرائيلي ) فيه فقال عنه : « أحذركم من هذا الرجل ، فإنه يعنى ما يقول » . ويرجع السرف فى هذا القول لـ (دزرائيلي) الى أن (بسمارك) كان قد أخبر (دزرائيلي) ذات يوم بأنه سوف يشن حربا على النمسا فى الوقت المناسب ، وبالفعل شن هذه الحرب بعد أربع سنوات .

ويلاحظ أن (بسمارك) فى صراحته هذه ، لم يكن مثل ( مترنخ ) الذى ( كان يخدع بينما هو يكذب دائما ) ، حتى عرف بأنه ( ناعم مكر ، مزيف لا يؤتمن ، صلف مهذار ) . ولم يكن مثل ( تاليران )

الذى عرف بسرعة البداهة والابتعاد عن التعمية . ولم يكن مثل ( ريشيليو ) الذى كان ( يكذب ، ولكن لا يخدع أبدا ) . وإذا كان كل من ( ريشيليو ) و ( بسمارك ) قد طبق نظرية ( حق الدولة ) فى سياساته وأخلاقياته فى الحكم ، فان ( بسمارك ) قد طبق هذا المبدأ نفسه تطبيقا فاق فى كثير تطبيق ( الكاردينال ريشيليو ) لهذا المبدأ .

( المارد البروسى ) شوه الأخبار من أجل مصلحة الدولة . وحرف البرقيات من أجل مصلحة الدولة . وأسس المكاتب الرسمية للصحافة ومولها بالمال للدعاية لحروبه وتمجيد دولته وأمته من أجل مصلحة الدولة . واستأجر الأقلام واشترى الذمم والضمانات للكثير من الصحفيين من أجل مصلحة الدولة . وابتكر تعيين سكرتيرين للسفارات من اختياره الشخصى للتجسس على سفرائه من أجل مصلحة الدولة . وظل هذا النظام معمولا به حتى أيام ( فون هولشتين ) ( ملك وزارة الخارجية الألمانية غير المتوج ) ، حتى أصبحت الخدمة الخارجية الألمانية شبكة عنكبوت واسعة دقيقة ، دون أن تكون مثيلة لها فى خيوطها الواهية .

وجميع ذلك كان من أجل مصلحة الدولة . ولا عجب ، فهذا ( المارد ) كان يصبوا الى «أن ينشر النسر البروسى دون قيد، جناحيه كدرع وحاكم، من ( ميونخ ) الى ( دونرسبرج ) Donnersberg » . فظل هذا ( المارد ) ثمانية وعشرين عاما يقود سفينة بلاده ببراعة خلال عواصف وأنواء ومكاره عديدة عصفت بها . وفى غضون ذلك لقب بألقاب تشير الى بعض أوصافه وقدراته ، وخاصة مشربه الأوتوقراطى . فهو ( المستشار الحديدى ) و ( رجل الدم والحديد ) و ( السمسار الأمين ) و ( سيد بناء الدول ) . كما أثر عنه قوله المشهور أثناء المسألة الشرقية حين قال : « ان كل دولة ، أو حكومة ، أو شعب ، عدا دولته ، لا تساوى حطام جندى واحد من جنود بوميرانيا » . وأثر عنه قول آخر هو « ألا ايثار بين الأمم » . ومن ثم كان (فلته) فى تاريخ بلاده بكل ما فى هذه الكلمة من معنى الفردية الفريدة التى لا تتكرر، لو صح ما أعنيه أنا من كلمة (فلته) . فقد جعل قلوب أبناء دولته وأمته ، تحفل بأوفى وأنقى أحاسيس الرضا والفخر ، وهو يقود دولته وأمته بنجاح طويل وعريض ، نحو سياسات واسعة النطاق ، تقوم على أسس وقواعد متينة تركز على ركائز قوية



## - ١٧٣ -

ثابتة ، من البرامج الحربية والبحرية والاجتماعية طويلة المدى عظيمة الجدوى . فكان الجيش الذى ( لا يقهر ) باكورة هذه السياسات . فـ(بسمارك) هو الذى احتضن منذ بداية حكمه من بين بيض (الأنثى القومى الجرمانى ) ببضة القوة والجيش الذى لا يقهر ، ورقد عليها كما يرقد الطير الكاسر على بيضه ، حتى فقسست هذه الببضة وخرج منها الجيش الذى ( لا نظير له ) وصحح مختلف الأخطاء التى اقترفت فى حق بروسيا ، فجعل ألمانيا فى النهاية ( فيصلا ) و ( حكما ) (بفتح الحاء والكاف ) وأمة عظيمة فى أوروبا .

والحقيقة أن هذا ( المارد ) لم يكن يكفيه من هذا الجيش مجرد انتصاره ، إذ كان ( بسمارك ) تواقا فى كل لحظة الى أن يقدم لبلاده فى كل فرصة تواتيه عملا جليلا دون زهو . فهو الذى عرف بقدرة فائقة فى مقاومة نشوة النصر ، والحرص على انتحال أذكى الذرائع فى حروبه حين ينوى القيام بها . والحرص على ألا يهين من قريب أو بعيد من انتصر عليه ، وألا يدخل عاصمة المغلوب دخول الظافر المنتصر فى هالة من الكبرياء والفخر .

وموجز القول ، كان ( بسمارك المارد ) ، سواء فى بلده أو فى عصره ، رجل الأقدار الذى اصطفاه القدر ليقوم بالمعجزات والخوارق . فكان العظيم صاحب الاسم العظيم ، الذى لا يليق به أبدا أى مديح حتى ولو كان أعظم مديح . إذ لا مديح يليق أبدا بعظيم يبني دولته بأروع آيات الخلود الحضارى . هذا والحضارة بالذات تؤنس التآربخ نفسه ، الا أنه عندما يروى سيرة الانسان الحافلة بالعجائب والغرائب والخبائيا لا يغفل عن أن يذكر أعجب ما فى هذه السيرة وهى أن الانسان يكتب تاريخه تارة بحروف من نور ، وتارة أخرى بحروف من نار .



## الفصل السابع

### الأنبياء غير العزل



وماذا عساي أن أقول عن ( الأنبياء غير العزل ) الذين ظهوروا على مسرح القرن العشرين ، وعن هذا القرن بالذات قرن تقدم الهندسة والعلم بخطى واسعة سريعة مذهلة ، عندما التقت نيات العلماء عند الكشف عن المجهول في ( الكون الأكبر ) وفي ( الكون الأصغر ) على السواء ، أسوة بـ (التقاء ذكاء الناس عند الله ) و (النيات الطبية عند الانسانية )؟ وعلاوة على ذلك ، فهذا القرن هو الذى راج فيه فكر ماكيافللى الذى فصل السياسة عن الاخلاق الفصل القاطع كقطع السيف البتار ، بينما كان هذا ( الكاتب الفلورنسى ) يهيم بالقومية والسيادة فى عصره ، من أجل وحدة وطنه وحرية وسيادته ، حتى يستعيد بلده مجد روما القديم برمته . ففجرت كتاباته حينذاك على هذا (الأمين العظيم)عواصف التشهير وأعاصيره الغاضبة . بيد أن النقد العلمى الموضوعى النزيه ، بالبحث المحايد والتقييم الدقيق،سرعان ما أخذ يسعف وينتشل هذا المؤرخ المدقق من مباءة التشهير وسعيه ، وينقله الى فردوس التقدير وجنته ، حتى أصبحت كتاباته مادة للدراسة عند الأخلاقيين والسياسيين والمغامرين على السواء . وغدا فكره السياسى ، كما قيل ، ( جميع التاريخ الأخير ) فى القرون الأربعة الأخيرة ومنها القرن العشرون.وهذا القرن هو الذى رفع فوق كل شبر من أرض ساحته السياسية أعلام الفكر القومى الخالص لماكيافللى ( الوطنى العظيم ) عالية خفاقة . واذا ببضاعة ماكيافللى التى صنعها فى فلورنسا يتلقفها السوق السياسى لهذا القرن ، وتقبل عليها وتقنيتها غالبية الرؤساء والحكام فى القرن العشرين ، فيؤثر هؤلاء بالفعل

( السيادة ) على ( السلام ) ، فتعجز ( فكرة أسرة الشعوب ) عن النهوض على ساقها .

وعلى كل حال ، فالواقع أن تقدم العلم والهندسة حمل الينا من ناحية الكثير من الطيبات التى تليق بالانسان خليفة الله فى أرضه ، وتحتم علينا أن نؤدى للانسان تحية الاعظام والمهابة ، وهو يثبت أنه كنز لا يعادله أى كنز آخر من كنوز الحياة ، وأن تاريخ العالم نفسه انما هو رافد من تاريخ هذا الانسان لا العكس . كما حمل الينا تقدم العلم والهندسة من ناحية أخرى ( الأسلحة الذرية ) ، التى سرعان ما أخذت ترسل فى نفوسنا اشعاعات كثيفة مخيفة من الذعر والخوف نتيجة لنجاح العلم والهندسة فى البحوث النووية والانشطار النووى ، على نحو ما تحدثنا عنه فى ختام الفصل الخامس . والتجدير بالذكر ويثير العجب ، أننا لم نشاهد فى هذا القرن تقدما فى الأخلاق يوازي تقدمه فى العلم والهندسة ويساويه ، خصوصا أن بعض الكبار من مفكرى عالمنا كانوا على علم بأن ( التاريخ الواقعى ) للانسان انما ( ينحرف عن الفضيلة والعدالة ) (١) ، وفيه ( الحكم والسيادة ) « لغير المثل الأعلى والخير والأخلاق ، فان مملكتها لا تنتسب الى هذا العالم ، وانما السيادة فيه « للعزيمة ، والارادة ، وللهذه الحاضر والموهبة العملية » ، وأن « ليس فى استطاعة الصيحات المنالاية والأحكام الخلقية أن تزيل الوقائع وأن تمحوها ، وهكذا الانسان ، وهكذا الحياة ، وهكذا التاريخ » (٢) . وهذا ما سبق أن كشف عنه ماكيافللى فى تاريخ البشر وأكد حقيقته ، وذلك فى عصره ، بعقله الثاقب وتفكيره المصاعق .

فكان من طبيعة الأمور أن يظهر على خشبة مسرح القرن العشرين ، من بين النوع البشرى من يصبو الى الوصول الى ( الرئاسة ) ، باعتبارها شهوة من أقوى الشهوات فى قلب الانسان ( الحيوان السياسى بطبعه ) ، الذى خلقه الله من جانب ( محبا للرئاسة ) (٣) . و ( الرئاسة )

(١) هيجل

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوى : اشبنجر ، قوى التاريخ

(٣) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى : رسائل فلسفية

بدورها ومن جانب آخر أعلى قمة فى المجتمع والعمل السياسى ونظام الحكم، وتعلو أصلا فوق (الحكومة) . اذ هى ذات سلطة تجب كل سلطة . وهى شرف مرموق فى الحياة والتاريخ، لا يناله الا من هو جدير بالاتحاد مع التاريخ ، ويكون على درجة رفيعة من هذه الجدارة ، فيفوز بعد موته ومفارقته للحياة بنوع من الخلود، ويظل خالدا فى نفوس الأحياء . هذا ، و ( الرئاسة ) وظيفة من أكثر حاجات المجتمع ضرورة وحتمية ، وواجبها كبير وخطير ، يدور فى دوامة عاتية ، هى توحيد اختلاف الآراء ، والعواطف ، والمصالح ، والتقريب بينها حتى لا تتشتت ، أو يستفحل خطر هذا الاختلاف ويستشرى ، فلا يتسنى للمجتمع فى نهاية المطاف أن يتقدم التقدم الذى فى مقدوره . ان ( الرئاسة ) هى التى تمثل فى المجتمع والحكم والعمل السياسى دور ( الأكثر ) le plus فى كل شئ ، ومن شأن من ( يملك الأكثر ) أن يملك ( الأقل ) le moindre .

وأى طراز من نوعنا البشرى انتهى (الرئاسة) فى القرن العشرين ووصل إليها بالفعل ؟ والجواب : نفر من حشود البشر آمن ( بالواقعية ) ، وسار على دربها الذى يكاد أن يكون وقفا على السياسة ورجالها . وآمن ( بالعقل العملى ) الذى يعين على تحقيق الغرض والغاية ، ويكفر بالحقائق المجردة ، أو الصور الذاتية الذهنية ، وماهيات الأشياء وجواهرها ، الى آخر هذه الأمور التى يعنى بها الفلاسفة والمثاليون . وهذا النفر يتميز عادة عن بقية البشر بتمسكه الصلب من أجل الوصول الى مطامعه وطموحاته ، فهو يعانى ظمأ لا يطفئه سوى خلق التاريخ ، لكي يعيش فيه ويحيا ، بينما هو يتحسس دائما طريقه للوصول الى غرضه على أجنحة ( قوى التاريخ ) من ( العزيمة ، والارادة القوية ، والذهن الحاضر والموهبة العملية ) ، بالاضافة الى وسائل يجلبونها من « الوصايا العشر مقلوبة » ، ومن « تعاليم الشيطان » ، أى ( كتب الأمير ) لماكيافلى ، حيث الفصل بين الأخلاق والسياسة . وكان من بين هؤلاء فى القرن العشرين ( الأنبياء غير العزل ) أمثال : ستالين ، وممصفى كمال أتاتورك ، ولينين ، وهتلر ، وموسوليني .

وسوف نقتصر في الحديث عنهم على ( نبي القومية ) فى شرائعها الماكيافللية الفاشيستية الرومانية ، وعلى ( نبي القومية ) فى شرائعها الماكيافللية النازية البروسية . والأول هو ( الدوتشى بنتو موسولينى ) ، الذى حصل عام ١٩٢٤ على درجة الدكتوراه من جامعة بولونيا ، برسالته التى كان موضوعها « تعليق على ١٩٢٤ على ( كتاب الأمير ) » لأستاذه ماكيافللى ، حيث اعتبر هذا الكتيب « ظل رجل الحكم » . ولأهمية ذلك رأينا أن نجعل مقدمة هذه الرسالة موضوعا لفصل ثامن .



ولكى نبدأ لابد من أن نتساءل بادىء ذى بدء فنقول : هل استعان موسولينى استعانة واعية ، وهو يبتعث ( الفاشيس ) *Fasces* ، أى العصى التى كان يحملها ( اللكتور الرومانى ) *Lectores* رمزا للقوة والسلطان أمام رئيس الدولة الأعلى ؟ وهل دولة موسولينى التى جاءت بتحول كبير فى مصير أوروبا ، نبعت من معين الدولة عند ماكيافللى فى كتابه (المطارات) *Discourses* ، وموجز هذه التساؤلات يقول: هل استوحى موسولينى ماكيافللى مباشرة ، بينما الذى قيل فى هذا الشأن ، ان الكتاب الذين تأثر بهم موسولينى هم : جورج سوريل *George Sorel* ونيتشه ، وببجى ، *Peguy* ، وبرجسون . ولكن ماكيافللى ؟ - هل كان ماكيافللى أول ما قرأت ؟ كان هذا هو نص السؤال الذى وجهه اميل لودفج *Emile Ludwig* الى موسولينى فى قصر البندقية . فكانت اجابة موسولينى كالتالى :

— « فى الليل ، كان أبى يقرؤه علينا ونحن نطلب الدفء حول بقايا ( الكير ) ، ونحن نشرب نبيذنا الوطنى . وعندما أعدت قراءته فى سن الأربعين تأثرت أيضا بالكتاب تأثرا قويا » .

ولا شك فى أن المقالة التى كتبها « الدوتشى » عن مؤلف « كتاب الأمير » عام ١٩٢٤ فى مجلة جراركيا *Gerarchia*



## - ١٨١ -

تنسب الى هذه القراءة الثانية التى اعترف بها موسولينى لاميل لدفع .  
 ولا ريب فى أن موسولينى قد أخلص فى تلك الفترة لماكيافلى وتعاليمه ،  
 وخاصة « لبدأ الفرصة » الذى نادى به . ففي نهاية الحرب العالمية  
 الأولى ، لم يكن للحزب الفاشستى أى وجود الا فى رأس صاحبه .  
 ولكن موسولينى شعر بأن الوقت قد حان وأن الفرصة قد لاحت لميجد  
 الايطاليين لمصيرهم الجديد ، وأعرب عن ذلك فى خطاب له فى  
 بولونيا بمناسبة الذكرى الثالثة لدخول ايطاليا الحرب ( مايو ١٩١٨ ) .  
 قال الدوتشي : ان قول «ماكيافلى فى الباب السادس من (كتاب الأمير)»  
 « عن هؤلاء الذين وصلوا الى السلطان بقدراتهم الخاصة ، مثل موسى  
 : Moses وقورش Cyrus ، ورومولوس Romulus ، وتيسوس  
 Theseus » ، يمكن أن يطبق ، لا بالنسبة للأفراد فحسب ، ولكن  
 « بالنسبة للشعوب أيضا، اذ قال ماكيافلى : اذا فحصنا حياتهم وأعمالهم  
 « فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشئ للحظ ، ولكن الفرصة هى التى  
 « وهبتهم المادة التى صاغوها فى الصورة التى رأوها مناسبة . فلو لم  
 « تكن الفرصة لضاعت قدراتهم هباء ، ولو لم تكن قدراتهم لأصبحت  
 « الفرصة دون جدوى » .

والحقيقة أن روح ماكيافلى تمكنت من نفس موسولينى ، وخاصة  
 فى الأساليب التى طبقها لى يصل الى الحكم . فعندما اندلعت نار  
 الثورة البلشفية فى حطام أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، لم يكن  
 من المستطاع حصر آثار هذه الثورة الاجتماعية حصرا تاما ، ودفعه  
 واحدة . وكان لابد من انتشارها فى ايطاليا بين أبنائها ، خاصة  
 أن الايطاليين قد قاسوا من أهوال الحرب الشئ الكثير ، ووجدوا  
 أنفسهم فى النهاية يفوزون بخيبة الأمل ، وبفضلات الموائد والمؤتمرات  
 السياسية . وفضلا عن ذلك كانت الحالة الداخلية يرثى لها - فالضرائب باهظة ،  
 وأثمان الأغذية مرتفعة ، والوقود نادر . فولد كل ذلك فى النفوس السخط على  
 الحكومة ، وقوى روح التذمر ، «وغدا اسم لينين محبوبا بين الجماهير»  
 « ووزعت بصورة هذا المبعوث الروسى فى كل مكان ، وتلا الاضراب »

« الاضراب ، وسخر الناس بجنود الحرب القدامى فى الشوارع(١) » . وفى غضون هذه الازمة التى كادت تسلم ايطاليا تسليما للبلشفية دون عذاء نجد موسولينى بدلا من أن يهاجم الحركة العمالية مباشرة يؤثر سياسة التزلف اليها والسير فى ركابها الى حين ، وكتب بتوقيعه فى الايام الاولى لاحتلال المصانع : « يجب ألا يغادر العمال مواقعهم قبل أن » يحصلوا على ضمانات « (٢) .

ولكن هل يمكن أن نجد علاقة قوية مباشرة بين مذهب ماكيافللى ومذهب موسولينى خاصة وأن البحث الذى ظهر فى « الجرارىكا » ، الذى سبقت الاشارة اليه ، لم يكن ، كما يقول « الدوتشى » نفسه ، سوى وصل بين حياته التى حياها كرئيس دولة وبين مذهب ماكيافللى ، وليس بتقريب تلميذ . لاستاذة ؟

فالساسة الاقتصادية من خصائص الفاشستية الرئيسية . فهى التى نظمت العلاقات بين رأس المال ، والعمل ، والانتاج ، والاستهلاك . وهذه مسائل اقتصادية لم توضع فى مكانها بالفعل الا منذ قرن من الزمان . واذا كانت القومية الماكيافللية لها صبغة عسكرية ، ولم تعرف مسألة تجنيد النساء ، أو توجيه النشء فى ساحات الألعاب الرياضية ، الا أن هذه الأمور جميعها هى تجديدات من صنع موسولينى . ولكن هل كان شكل الحكم المطلق عند موسولينى يسير طبقا لأفكار ماكيافللى ؟

يقول موسولينى : نعم ، وذلك فى مقـالـه فى « الجرارىكا » . واجابته على هذا السؤال اتهم قاس للديمقراطية ، وثناء عاطر على الدكتاتورية ، وادانة للحكم الشعبى . وأساس هذه الاجابة ، كما يظهر ، فقرة وردت فى كتاب « المطارحات » لماكيافللى تقول : « البشر لا يأتى «أى خير أبدا الا بالضرورة ، ولكن حينما تتوفر الحرية ، وحيث »

(١) ١٠١٥ ل . فيشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٦٠٠

(2) Comte Sforza : Les bâtisseurs de L' Europe moderne

« يمكن أن توجد الفوضى ، يتشبع كل شيء فى الحال بالاضطراب »  
 « وعدم النظام » . وهذا الحكم ذو الصبغة التشاؤمية ، الذى أصدره  
 ماكيافللى على البشر جميعا ، هو الفكرة الأولى التى أبقي عليها  
 موسوليني فى مقالته . فضلا عن ذلك ، نرى موسوليني يعلق عليها فى  
 موضع آخر ويقول : ولكن ربما كان يجب على أن أزيد من أهمية هذا  
 الحكم .

ان موسوليني يعطى أهمية أكبر للنتائج التى استخلصها من  
 ماكيافللى ، وذلك عندما يضعها أساسا لمذهبه السياسى ، ويرفض أن يسمح  
 للشعب بالاشتراك فى الحكم .

لقد كشف ماكيافللى عن مبادئ الجمهوريات ومزاياها ، ومضار  
 الفوضى وعلاجها ، ومزايا النظم المطلقة ومبادئها ، ووصل الى حد  
 القول - وكان يستطيع موسوليني أن يقتبس منه هذا القول ليعزز به رأيه  
 فى رسالته العلمية - ألا وهو أن شعبا ما من الشعوب ، له حكومة تدير شئونه  
 ادارة صالحة ، لا يتطلع الى حرية أخرى ، وقولا آخر يقول : انه عندما  
 نفسد دولة من الدول فسادا كبيرا فيجب أن يصبح حكمها حكما مطلقا .  
 وهذا هو دواء فسادها الأنجع من كل دواء آخر ، حتى من الحكم  
 الديمقراطى نفسه . ولم ينس ماكيافللى ، من جهة أخرى ، أن يزن  
 الحجج المعارضة . وهذا يدل ، بالإضافة الى كثرة الفقرات التى ترد  
 فى كلامه فى هذا الصدد ، على أن ماكيافللى كان باحثا محايدا بالنسبة  
 لهذه الأفكار ، ولكننا نجد ميزانه يميل فى النهاية نحو الجمهورية .  
 ويوضح ذلك توضيحا مبينا قوله : « كان الشعب الرومانى ، الذى ظل  
 عدوا للملكية أربعمائة عام ، يحب عظمة وطنه وصالحه العام » . فهو  
 لا يوصى بالدكتاتورية . ولكنه يعترف بسلامتها وضرورتها فى أحوال  
 معينة وبشرط أن تكون « وقتية ولاجل مسمى » ، ثم تزول بزوال  
 الطوارئ التى دعت اليها . ويرى ماكيافللى أن الدولة الصالحة النظام  
 انتهت مع قيصر ، على الرغم من أنه فى نظر ماكيافللى ، كان ممن هدموا  
 الجمهوريات ، ومن أصحاب السمعة السيئة . ويقابل ماكيافللى بينه وبين  
 من قدموا الخير للإنسانية ، وبينه وبين الذين أرسوا قواعد الدول . أما قيصر

فهو عند موسوليني على عكس ذلك . فهو أجمل « صورة » مجسمة للقوة الرومانية ، وأعظم شخصية فى التاريخ . ولقد قامت المجلات والصحف الايطالية فى أدوار مختلفة بدراسة قيصر ، وتحليل عبقريته ، ورفع شأنه ، والاشادة بعظمته . واحتلت صورته أماكن الصدارة والشرف فى روما . ولم يتورع « الدوتشى » نفسه عن أن يتقمص شخصية قيصر !

وسر اختلاف نظرة ماكيافللى الى قيصر عن نظرة موسوليني اليه ، هو أن الأول كان يعتبره أول القياصرة الذين غمروا روما بفيض من الفساد والانحلال ، بينما يعتبره الثانى صورة العظمة قبل فترة الانحلال ، وذروة المجد الجمهورى . « فى الجمهورية حياة المواطن ليست الا من حياة الدولة ، وعندما تغير هذا الأمر فى عهد الأباطرة كان هذا هو الانحلال . أجل ، هذا ما تريد الفاشستية أن تصنعه من كتلة الشعب ، أى من تنظيم الحياة الجماعية (١) » .

ويهمنا أن نحدد هنا معانى الأوتوقراطية ، والجمهورية ، والديمقراطية . ان العبارة « أنا الدولة » ، التى تنسب الى لويس الرابع عشر ، تلخص الروح الأوتوقراطية الخالصة . ولقد ذهب موسوليني الى عكس ذلك حين قال : « الشعب هو الدولة ، والدولة هى الشعب » (٢) . « فالدوتشى » ، إذن ، أوتوقراطى جمهورى ، يأبى أن يشترك الشعب معه فى الحكم . ولكنه يدعو أفراد الأمة الى أن يهبوا النفس والنفس قربانا للصالح العام ، وهذا هو الذى يجب بدوره أن يكرس من أجل الشعب . أما ماكيافللى فيميل الى أن يكون للشعب نصيب فى الحكم ، أو على الأقل فى الاشراف عليه ، لأنه جمهورى على الطريقة الرومانية ، حيث كان الفرد قبل كل شئ مواطناً ، واجبه أولاً وأخيراً تكريس وجوده البدنى ووجوده الروحى من أجل الصالح العام ، ومن أجل الأوصياء عليه ، أى حكامه الصالحون . لأن فكرة الخير فى ذاته ، كما يرى ، يلخصها مبدأ خدمة الجماعة خدمة حققة . ويجب ألا يخفى علينا فى هذا المقام أن قول موسوليني المشهور الذى يجعل « الدولة هى الشعب » ، و« الشعب

1. Mussolini, cité par Emile Ludwig

(٢) من خطاب لموسوليني عام ١٩٢٤

## - ١٨٥ -

هو الدولة « يبين لنا تأرجح عامل الكتلة الشعبية فى ميزان الحياة السياسية . وهذا العامل كان نتيجة مباشرة من نتائج الثورة الفرنسية التى يذهب الفاشيستون على اختلافهم الى رفض مبادئها ، وعدم قبول مثلها .

اذن ، فلا هوة غير معبورة بين الفاشتية والديمقراطية ، ولكن هناك دربا يوصل كل منهما الى ( القيصرية ) ، نقطة البدء فيه ديمقراطية الشعب وهى الأصل . وهذا الأصل سمى باسماء من اخيار كل عصر وحسب هواه . فكان تارة ( الروبيكون ) Robicon ، وأخرى ( ١٨ برومير ) Brumaire ، وتارة ثالثة ( الثانى من ديسمبر ) ، وتارة رابعة ( الزحف الى روما ) . وظهر ( الروبيكون ) عندما أعلن ( السناو ) أن من يعبر بجنوده نهر ( الروبيكون ) يعد خائنا للوطن والجمهورية . فلم يأبه ( قيصر ) بذلك ، وعبر النهر فى ليلة ١١/١٠ يناير عام ٤٩ ق م ، فاضطر ( بومبى ) Pompey ( القنصل الوحيد ) والحاكم الدستورى الشرعى الى الخروج من ايطاليا . ولقد قال ( قيصر ) أثناء عبوره النهر عبارته المشهورة : ( تقرر المصير ) alea lacta est . وصفوة القول ، فقد قلب ( قيصر ) دستور روما الذى خدمها خمسمائة عام ، بينما كان لايزال ملأ من وجهاء نبلائها يكن لهذا الدستور الولاء النقى العميق .

وظهر ( ١٨ برومير ) عند عودة ( بوناپرت ) من مصر ونزل فى ( فريجى ) Fréjus فى أكتوبر ١٧٩٩ ، ونقل مقر اجتماع مجلسى الخمسمائة والشيوخ الى حدائق سان كلو Saint Cloud فى السنة الثامنة للجمهورية فى ٩ نوفمبر ١٧٩٩ ، وطوى الجنود المسلحون المجلسين مجتمعين ، وطردهم الأعضاء من قاعة الاجتماع وألغى المجلسان ، ووافقت البلاد بأغلبية كبيرة على دستور جديد ، ومنح ( نابليون ) بوصفه ( القنصل الاول ) سلطات مطلقة خلال عشرة أعوام تلت ذلك . وهكذا قلب ( نابليون الكبير ) حكومة الادارة وأقام حكومة القنصلية .

وكان ثالث هذه الانقلابات أى ( الثانى من ديسمبر ) هو الانقلاب الذى عبره الرئيس ( لويس نابليون ) يدهاء وقوة حائثا بيمينه الدستورية ،

## - ١٨٦ -

ومنتهكا حرمة الدستور ، وذلك ليجعل من نفسه ( سيد فرنسا ) . وقد تم هذا الانقلاب فى الثانى من ديسمبر عام ١٥٨١ .

أما رابع هذه الانقلابات التى ذكرناها ، فكان ( الزحف الى روما ) واحتلال الفاشستيين روما فى ١٧ أكتوبر ١٩٣٢ ، عندما رفض الملك اعلان الحكم العرفى بناء على طلب ( قالتا ) .

وحين تلقى الضوء على هذه الانقلابات نقول : أن ( نابليون الكبير ) و ( نابليون الصغير ) و ( موسولبنى ) ، وغير هؤلاء ، اما أن لهم نكوبنا ثوريا ، أو أنهم انطلقوا من صفوف الشعوب ، فكانت جميع ميولهم واستعداداتهم منذ بدء حركاتهم متمشية مع مثلهم العليا التى أوصلتهم الى السلطان . الا أن ثمة ضرورات كالقدر قاهرة ملحة بالنسبة لهم ، يلخصها « حق الدولة » ، الذى لم يكن لهم سابق تجربة به . فاضطروا اضطرارا الى التحرر من قيود المثل والى مصادرة حرية الشعوب فى كثير من الأحيان . ولم يكن ذلك منهم الا من أجل غاية واحدة هى الدولة . فمنطقها ، أو منطق حاجاتها من السيادة والبقاء والأمن وصالح الحال ، هى التى دفعتهم الى استغلال كل وحدة من وحدات طبقات شعوبهم استغلالا يجعل الحرث جميعه ، وكذلك الغلة جميعها والخير العميم للمحصول كله ، تأتى خيرا عاما للجميع ، فى كل شبر من ارض الوطن ، وذلك فى النهاية .

وماكيافللى لم يفته ملاحظة تحول الديمقراطية الى الأوتوقراطية ، أو العكس ، حيث قال : هذه هى الدائرة التى تدور فيها جميع الجمهوريات ( الدول ) . ويعلل هذه الظاهرة بتطور الدول الطبيعى الى الانحلال والفساد . فحكومة الشعب تنحدر الى الفوضى ، والملكية تسقط فى الطغيان . والدواء الفعال لفساد التعاليم الجمهورية ، عند ماكيافللى ، هو « اصلاح دورى » للدولة .

يقول ماكيافللى الذى لم ينقطع موسولبنى عن الاستشهاد به فى مواضع متفرقة ، وذلك فى الباب الثالث من « المطارحات » : « من الضرورى لمن يعد جمهورية ويضع فيها نظاما ، أن يفترض

أن البشر جميعا خبياء ، ومستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم الى الشر حينما يجدون فرصة مواتية لذلك » . ونجد موسوليني يخص الشعب بهذا الميل الفطري الى الشر ، بينما ماكيافللى يعممه على البشر جميعا ، حكاما ومحكومين . وهذا هو السر فى اهتمامه الزائد بالبحث عن جميع الوسائل التى تقى الحاكم شر الطبيعة البشرية ، وشر تقلبها، وشر ميولها الانانية ، وفى اهتمامه بدراسة جميع الوسائل الصحيحة التى تكفل « للمراكز الموجهة » للدولة أن تؤدي وظيفتها على أكمل وجه دون أى اضطراب يجيء فى صورة ثورة أو انقلاب . وهذا بدوره هو سر تحبيذه لمبادئ معينة مثل « محاكم الشعب » ، لتحمى الشعب أو أى مركز من مراكز القوة من سوء استخدام للسلطة . اذن فثمة اختلاف بين فكرة ماكيافللى وفكرة موسوليني عن شكل الحكم . وعلى الرغم من أنهما يسيران فى طريقين مختلفين ، الا أننا نجد طريقهما يتلاقيان فى النهاية عند نقطة واحدة هى : الفرد لا شيء ، والدولة كل شيء . وهذه النقطة بدورها صورة جديدة تمخض عنها تفكير العصور الحديثة .

ان الدولة والوطن ، تبعا لماكيافللى وموسوليني ، هما الخير الاسمى الذى لا يفتقر الى أى تبرير . فالاول يقول : و « عندما يتعلق الأمر بسلامة الدولة بصورة مطلقة يجب ألا ننغمس فى أى اعتبار آخر » . والثانى يقول : « ان الدولة توجد القانون باعتبارها ارادة خلقية شاملة » . فالدولة لها روح خاص بها ، فهى توجد من أجل الأفراد ، وانما الأفراد هم الذين يحيون من أجل الدولة . والخير ، عند ماكيافللى ، هو ما يحقق نفعا لها أو مصلحة ، والشر عنده ، وجميع ما يتنافى مع الاخلاق ، هو الذى يضر الدولة ويفسدها . وهنا نجد ماكيافللى يصل الى حد تغيير المعانى . فيغير الخير الى الوطنية ، والاخلاق الى أخلاق المواطن المثالى الذى يحترم القوانين . أما الشر فهو السعى وراء ارضاء النزعات الانانية التى لا صلاح للجماعة فى ارضائها . أننا بازاء « أمر أخلاقى مطلق » بالمعنى الماكيافللى . وهذا الأمر ، كما يقول (اروكلى) ، لم يطبقه رئيس من رؤساء الدول بقوة فاقت قوة تطبيق موسوليني له . فهو الذى جعل الحياة تدب بالفعل فى أوصال هذه الفكرة . وهو الذى بعثها وجعلها حقيقة واقعة . ان موسوليني هو صاحب

الفضل فى ذلك ، ففرض الايمان بالآمة كجماعة فوق الجميع فرضا .  
وجعلها غاية عليا فوق جميع الغايات . وجعل منطقها المنطق الوحيد  
الذى يجب أن يبرر جميع أعمال البشر . ولم يكن لموسولينى مورد فى  
ذلك سوى ماكيافللى .

ان لويجى فاكلى Luigi Vacchelli يربط ربطا وثيقا ومباشرا  
بين المبادئ الفاشستية وفلسفة ماكيافللى ويقول : ان جميع الوسائل  
يجب الأخذ بها لضمان سلامة الدولة وعظمتها . وهذان أمران يجب أن  
يوضعا فى اطار مقدس ، يعلو كل اطارات الأخلاق الجارية . وواجب الحاكم  
أن يطبق القوانين المستمدة من عالم الواقع الذى يحيا فيه ، ولا تنتسب  
من بعيد أو من قريب الى أى عالم آخر حتى لو كان عالم الأخلاق .  
أى واجب الحاكم ألا يهمل حسابا للقوى الواقعية ، والا ضل السبيل وسط  
غيوم الصور المجردة ، كيلا يكلفه السير فى غير طريق الواقعية  
الهلاك . ان فن الحكم يتجلى فى معرفة الطريقة العملية الصحيحة  
لاستغلال جميع قوى الأفراد وقدراتهم الروحية والمادية ، وعصرها حتى  
القطرة الأخيرة لى نصنع منها نهرا يجرى دون توقف فى مجرى ينتهى  
دائما عند الدولة المستقلة ، والقوية الحرة ، والعادلة ، الهائلة . ان الدولة كيان  
عال قوى له وجوده بالفعل ، وهو فوق كل ما عداه . وهى التى توجد  
القانون ، وتهمل كل مالا يكسبها قوة ونماء وعلاء وثناء وبقاء ، وترمى  
به بعيدا عنها .

الدولة فى النظام الفاشستى كل شىء . وثمة أمثلة كثيرة لتطبيق  
هذا المبدأ فى السياسة الداخلية . فالدولة هى التى تنظم النشاط  
الاقتصادى . وهى التى تنظم التجارة . وهى التى تنظم الانتاج الفكرى .  
وهى التى تنظم الانتاج الفنى . . . الخ . وجميع هذه التنظيمات لم يكن  
فى مقدور ابن عصره أن يتنبأ بها . وزيادة على ذلك فثمة  
حقيقة نجدرة بالملاحظة ، وهى أن نظرة كل من ماكيافللى وموسولينى  
الى الدين واحدة . ان ماكيافللى لم يخصص للدين أقل من خمسة أبواب  
متتالية من كتابه « المطارحات » ، كما سبق القول فقال : أن رجل  
الدولة يجب أن يحمى الدين وبرعاه ، حتى لو كان يعتبر مثل هذا



الدين فاسدا باطلا ، فالدين لازم للدولة لى يساعدها على تحقيق أغراضها . وهو مطلوب ليحقق لها النفع ويدعمها ، ويعود عليها بالفائدة . وأصلح الأديان ، فى نظره ، هو الذى يخلق من أبناء الوطن جنودا ومواطنين ، لا رهبانا وقديسين . ولهذا كانت أديان القدامى فوق المسيحية وأقوى منها وتفوقها . وواجب الدولة ، الذى يجب الا تهمل فيه أدنى اهمال ، الا تتردد أبدا فى فرض سلطانها على رجال الدين ، وأن تدفعهم دفعا الى تحقيق رسالة الدولة وأغراضها عن طريق العقيدة والايمان .

ولقد كان لموسوليني مواقف ضد الاكليروس معروفة : وعلى الرغم منها ، فقد عمل على رفع شأن الدين فى ايطاليا ، واعلاء مكانته بين الايطاليين ، وذلك دون أن تصل هذه المكانة الى قمة الجماعة . فوضع « الدوتشى » لرجال الدين حدودا دقيقة . ورسم لهم حظيرة لا يجوز لهم الخروج عنها . فعين لهم مهمة هى جزء من تربية الشبيبة الفاشستية . وهذا الجزء لم يكن ليجعل رجال الدين بأية حال أصحاب السلطة الأولى ، وانما كان الأمر غير ذلك . لقد كان الدين ناحية من بين نواحي كثيرة للدولة ، وليس هو كل شيء . وجميع هذه النواحي كانت مجرد وسائل وأساليب ، أما الغاية المنشودة فهى وحيدة ، وهى الدولة . لقد جعل موسوليني لرجال الدين صفا بين صفوف حملة «الفاشيس» ليتكاتف الجميع على حملها . ان الدولة الفاشستية كاثوليكية ، ولكنها فاشستية فى جوهرها ، دما ولحما وعظما وروحا . ولا تشكل الكاثوليكية فيها سوى جزء يتكامل مع أجزاء أخرى غيره ، لتكون فى النهاية وحدة منتظمة متكاملة هى الدولة .

قال موسوليني فى خطاب له فى أول أغسطس عام ١٩٣٤ ، وهو يعتلى دبابة عند بدء المناورات الكبرى : « ان حياة الأمة السياسية » والاقتصادية ، والروحية ، بأكملها وكيلاها ، يجب أن توجه الى نقطة « واحدة وتلتقى فيها ، وهى حاجتنا العسكرية » . وفى بحر عام أو يزيد من هذا التاريخ ، أى فى وقت الحملة على الحبشة ، سار تجنيد الوعى الايطالى جنبا الى جنب مع التجنيد العسكرى وفى الوقت نفسه .

«فكلف» رجال الدين ، كما «يكلف» الرجال العسكريون تماما ، بتعبئة  
الرأى العام على طريقتهم . واستطاعت « التريونا » **Tribuna**  
أو المنبر ، أن تصدر الى الجمهور الايطالى فى ٢٠ ديسمبر  
١٩٣٥ ليقرأ أبناء الوطن الواحد : « ها هو ذا لأول مرة يأخذ  
القساوسة والأساقفة أماكنهم جهارا ، ويصبح لهم اثر فى قضية سياسية  
تشغل ايطاليا . وأخيرا يوجد القس والأسقف الايطاليان اللذان يعرفان  
فى الوقت المناسب ، وضع القوة التى تستمد من وظيفتهما السامية التى  
يمارسانها فى خدمة المصالح القومية » .

أليست هذه ساعة عزيزة على ماكيافلى ، وحببية الى نفس هذا  
« الوطنى العظيم » ؟ لقد عدنا الى حيث « استخدم الدين لقيادة  
الجيوش ، واحياء نفوس العامة ، والمحافظة على الناس اخيارا » (١) .  
لقد رجعنا الى العصر الذى استفاد فيه الرومان من الدين لى « يعيدوا  
تنظيم المدينة، وللتوفيق فى مشروعاتهم، وليقضوا على الاضطرابات » (٢) .



يقال : « للقلب أحكامه » . فالعاطفة لها منطق يخضع له البشر  
أحيانا ويهتدون بهدية فى سلوكهم دون العقل . واذا صح ذلك ، فيجب  
علينا أن نبحث قليلا فى تاريخ روما حيث عاش ماكيافلى بقلبه وعقله ،  
وحيث رفت نفسه حاملة بالعظمة الرومانية القديمة . ان ماكيافلى  
وموسولينى جعلا من نفسيهما شاطئين لمجد روما ، ثم صنعا أيضا قنطرة  
توصل بين الشاطئين ، شاطيء ماكيافلى وهو عشق الواقعية ، وشاطيء  
موسولينى وهو عشق الروح الرومانية . وكانت واقعية الاول توصل الى  
رومانية الثانى ووسيلة لها ، ورومانية الثانى قبلة لواقعية الاول . فعند  
هذين الايطاليين نجد أفراطا. واضحا فى هذه النواحي لا يقف عند حد ،  
وهما يفكران فى السياسة . ونجد ايمانا قويا بمنطق ( حاجات الدولة )

1. Discours, I, 2

2. Discours, 1, 13

يصل الى حـد الزهد فى كل منطق آخر . فمنطهما يظهر غى  
غالب الامر فى صورة قسوة عابسة غير مقبولة تنفر الناظرين ، الا أن  
هذه القسوة لا موضع فيها للتقاعس أو الاهمال فى (حق الدولة) . فهذا أو ذاك  
كانت تحترق نفسه شوقا الى أن تمتلىء جميع نفوس المواطنين قدره  
رومانية ، وعظمة رومانية ، ومجدا رومانيا ، ونظاما رومانيا . ولا غرو  
فى هذا الشوق ، فهما يعتبران جنسهم الاصلى وريث الأمجاد فى التاريخ  
البشرى . ولو فرض أن بعث ماكيافللى حيا ، وخرج من تابوته وقبره ،  
وذهب ليشاهد زحف « الكادرومفير » *Quadrummvir* « (١) الى المدينة  
الخالدة ، و « الدوتشى » يخطب فى « الفورم » فى آلاف من الشبيبة  
الايطالية ، وقد اصطفوا كتائب وفرقا على الطريقة الرومانية تحت  
أعلام رومانية ، لوجد « ماكيافللى الوطنى العظيم » نفسه ، يرفع يده  
فى خفة ولا شعور بالتحية الرومانية على طريقة المبارزين الرومان ، وهم  
يحيون قيصر قبل المبارزة أمام مقصورته قائلين : « سلام على قيصر . . .  
ان هؤلاء الذين سيموتون يحيونك » (٢) .

ولكن ، وما أقسى مرارة هذا اللفظ هنا ، غابت عن بال  
موسولينى حكمة لماكيافللى كثيرا ما اقتبسها « الدوتشى » ، ولا أدرى  
كيف غابت عنه وهو الذى ضمنها رسالته لنيل الدكتوراه ؟ أجل ،  
انه هو الذى عرفها معرفة سرى تيارها فى شعيرات تلافيف مخه فى أيام كفاحه  
السياسى الأولى ، وهو يخطو أول خطواته نحو الحكم ، وعرفها وهو  
فى منتصف الطريق . ولكنها غابت عن وعيه حين اطمأن الى فتنة  
السلطان ، ونشوة الحكم ، وسكرة النفوذ . وكان الأولى والأجدى  
له الا تغيب عن باله فى لحظات حرجة من حياته . قال ماكيافللى : « من

(١) تكون « الكادرومفير » من أربعة تحت رئاسة موسولينى فى ٢٤ أكتوبر عام

١٩٢٢ ، وهو تاريخ المؤتمر الفاشستى فى نابولى . هؤلاء الأربعة هم : ميشيل بيانكى

*Michel Bianchi* ، وإيطالو بالبو *Italo Balbo* ، ودى بونو *Di Bono* ،

ودينو جراندى *Dino Grandi*

2 Ave Caesar (ou Imperator). morituri te salutant

الضرورى لمن يعد الجمهورية وينشئ فيها نظاما أن يفترض أن جميع البشر خبيثاء ، وأنهم مستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم الى الشر حينما يجدون فرصة مواتية لذلك « (١) . كما غابت عنه حكم أخرى ساقها ماكيافللى فى « كتاب الأمير » ، وكان الأجدر بموسولبنى أن يذكرها أنى كان وأنى نزل ، ويتبعها كما يتبعه ظله ، فيعمل حسابا للصعوبات التى توجب حقيقة فى الملكية الجديدة . . . فان اضطراباتنا تنبثق أولا من صعوبة طبيعية توجد فى جميع الممتلكات الجديدة ، حيث نجد الرجال يغيرون حكاهم راغبين أملا فى تحسين أحوالهم (٢) . » . فمثل هذا الأمير ( أى الحاكم ) لا يستطيع أن يعتمد على ما يراه فى أوقات الهدوء والسكينة ، حين يكون المواطنون فى حاجة الى الدولة ، فحينذاك يبذل كل فرد الوعود بكثرة ، ويكون مستعدا لافتداء الأمير بحياته ، فالموت بعيد . ولكن عند الطوارئ حين تحتاج الدولة الى المواطنين ، فلن يجد منهم الا القليل (٣) . . . » . وذلك « . . . لأن المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل شئ سرعان ما يرتطم بما يدمره بين الأشرار وهم كثيرون جدا (٤) » . « ان البشر يتردد فى اىذاء من يحب أقل من تردده فى اىذاء من يهاب ، لأن رباط الالتزام بالحسب الذى يبقى عليه ينقطع فى كل فرصة من فرص مصلحتهم ، لأن البشر أناني (٥) » . أجل ، غابت عن موسولبنى جميع هذه المعانى فى ساعاته فى حكم ماكيافللى تجارب شديدة الخطر ، بعيدة الأثر ، لا تعود ولا تتكرر ، بل تقع مرة واحدة ، ولا تكلف الانسان سوى شئ واحد ، وهو حياته . . . !

نسى موسولبنى كل هذه الأحكام التى لم يأت بها ماكيافللى من خياله ، انما استقرأها استقراء فى ماضى الانسانية ، وفى

(١) المطارحات : الكتاب الثالث

(٢) « المطارحات » ، الكتاب الثالث

(٣) « كتاب الأمير » ، الباب التاسع

(٤) « كتاب الأمير » ، الباب الخامس عشر

(٥) نفس المصدر ، الباب السابع عشر

## - ١٩٢ -

( التاريخ الواقعى ) . ولكن الطمأنينة لدغت «الدوتشى» دون أن يعرف أن الطمأنينة، على حد قول شكسبير، تكون أحيانا من ألد أعداء الانسان . فالأكف التى صفقت لموسولينى بالأمس هى التى صفقت لمن سبقوه قبل الأمس . وأن من رفع معه اللواء بالأمس ، هو نفسه الذى حمل اللواء لمن سبقوه قبل الأمس . ان البشر « خبيثاء » ، وويل للسياسى من « هذا النوع الملعون » ، كما قيل .

كما نسى « الدوتشى » أن يعى ما كان يمكن أن ينصحه به ماكيافللى مما لا يتصل من بعيد أو من قريب بالأكف والتصفيق ، أو بالتزلف وبالهتاف ، وإنما هو مستمد ، كما قلنا ، من حقائق ووقائع تاريخ الانسانية وأحداثه ، وأورده ابن فلورنسا فى « تيتوس ليفيوس » فى عبارة تقول : « ولا تنسق وراء عظمة قيصر » « حين تسمع الكتاب يمجّدونها . ان من أثنى على قيصر قد أفسده » « مال قيصر الذى اشتراه به ، وضاع حقه فى أن يتحدث عنه حديثا » « حرا . فلو أردت أن تعرف ماذا قال فيه الكتاب الأحرار فانظر » « قولهم فى كاتيلينا Catilina ، وانظر أيضا كم من قلائد الثناء » « قلدوا بها بروتس Brutus » . وهل كان يستطيع « الدوتشى » أن ينظر بعينى ماكيافللى ليستشف المستقبل ، ليرى الفصيلة الثانية والخمسين من قواته المسلحة الايطالية نفسها تبحث عن قافلة موسولينى ومن معه وهى تتجه هروبا نحو كومو Como ، والنحاس يغالبه بجانب السائق فى أحد « اللوريات » التابعة للجيش الألماني ، وهو يرتدى معطفا من معاطف هذا الجيش ، وخوذته ماثلة على رأسه ، وعيناه وراء منظار كبير ، وبين ساقيه مدفع رشاش . وكاد أن يفلت ، لولا أن القدر دفع أحد المواطنين الى أن يتقدم اليه بالذات وينزع عنه نظارته ويصيح فى رفاقه : « انه... هو ! » . فيرفع موسولينى فى التويديه استسلاما ، بينما هذا الايطالى يصوب مسدسه الى صدر زعيمه ! هل كان يستطيع أن يعلم « الدوتشى » مع ماكيافللى ألا ضير عند بعض أتباعه ، فى لحظة من اللحظات ، فى أن يوثقوه أمام جدار ويعدموه ، ويتركوا جثته بجوار

جثة عشيقته فى العراق تحت المطر زهاء ساعتين ، ثم تحمل جثته مع جثث أخرى للفاشستيين من دونجو وتفرغ فى حظيرة للسيارات فى نابولى كانوا هم والنازيون قتلى اليوم قد اختاروها بالأمس ليعدموا فيها خمسة عشر من المواطنين ؟ . « ان البشر خبثاء » ، وويل للسياسى من « هذا النوع الملعون » . ان « الناس جميعا يجحدون المعروف » .

هذا موقف الدوتشى من ماكيافللى ، فما موقف « الفيرر » أو ( الزعيم ) أدولف هتلر ؟

فى ألمانيا عام ١٩٣٣ نجد التضخم النقدى ، ثم الرخاء الظاهرى نتيجة لانتعاش الصناعات انتعاشا ظاهريا ، وانشاء المصارف ، وتأسيس المصانع ، بسبب القروض التى منحت لألمانيا . ولكن الهزة المالية العنيفة التى وقعت فى نيويورك عام ١٩٢٩ اقتضت سحب الاموال الامريكية من ألمانيا فأخذ بناؤها الاقتصادى يتهاوى . فأعيد قفل المصارف ، وطرد العمال من المصانع . فقل الدخل ، وتضاعل الربح ، وأصبحت أولى المشكلات التى واجهتها الوزارة الألمانية حينذاك ايجاد عمل لقراة ستة ملايين من العمال العاطلين ، وضرورة موازنة الميزانية . وزاد الطين بلة صرخات المتعطلين المريرة فى الشوارع ، وهم يحملون اعلام الشيوعية الحمراء ، واكتساح دعاية لبقة لألمانيا تعمرب عن جميع ألوان الآلام والاستياء التى كانت حبيسة فى صدر الأمة الألمانية وقد غدت كالقطيع بلا راع . أجل ، ان ألمانيا اليوم فى حاجة الى « زعيم » يهديها سواء السبيل .

فبدت هذه الظروف فرصة لظهور أدولف هتلر ، ذلك « المبعوث النموسوى الغمور » الذى بدأ بتنظيم حزبه النازى ليحقق تطهير ألمانيا من اليهود ، وسحق الشيوعية ، ويعث الشعب الألمانى ، واحياء أمجاد الفرسان التيونون ، وبث الكثير من الروح البروسية العسكرية فى نفوس الشباب الألمانى . فلم تفته هذه الفرصة ، وبدا يشن حملات خطابية أستمريت أربعة عشر عاما ، بعد ما فشل فى الوصول الى الحكم عن طريق فتنة عسكرية ، وتنظيم الارهاب بجرأة عنيفة ، والسيطرة سيطرة كاملة

## - ١٩٥ -

على الرعاع والكتلة الشعبية بكتائبه المؤلفة من « جنود الهجوم » ذوى القمصان السمراء . وفى النهاية نصب نفسه مستشارا (للرايش الالمانى) فى يناير عام ١٩٣٣ ، وتحطمت سفينة جمهورية فيمار Weimar وسط الاعصار النازى الجبار ، الذى كان يـبـرق بمبدأ سلطان الدولة على الجميع . وهو مبدأ نادى به ( هيجل ) ، ومارسه ( بسمارك ) ، وبشر به ( ترايتشكى ) ، واستدعى ( فوتان ) . Wotan ليكون الها قيوما للدين النازى ، بديلا لدين المسيح عيسى بن مريم .

واستولى هتلر على رئاسة الجمهورية عند موت هندنبرج فى ٢ أغسطس عام ١٩٣٤ ، وظل محتفظا لنفسه بمنصب المستشارية . وكانت وسائله حملات من الارهاب دامت طويلا ، كان منها حرق الريشتاج (٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣ ) ، و « حمام الدم » لكتم أنفاس زعماء حزبه القتل الاثمين ، واحرقت جثثهم ( ٣٠ يونيو ١٩٣٤ ) . ولم تشأ الأمة الالمانية أن تتذكر ولو طرفا قصيرا من هذه الخطايا ، بل كأنها ما كانت ، وغفرتها له بحماس شديد ، فهو « الزعيم » . وهو صاحب نظام قومى من أدق النظم ، وهو المبشر بدولة واحدة ، دينها واحد ، وتحيتها واحدة ، وصيغة هذه التحية نفسها واحدة . وهذه أمور لا تنزل من العقل الجماعى الالمانى الا منزلة المزنه الهائلة من النباتات المتعشة الى الرى والحياة .



فكان من أقواله : « ان الأمة النى تنكر عليها حقوقها قد تستعمل «  
« أى سلاح حتى سلاح الميكروبات ، وليس فى نفسى ذرة من الشك فى »  
« ذلك ، وسأستعمل أى سلاح احتاج اليه » . « وعندما أغامر بالحرب »  
« يافورستر ، فستظهر الجيوش على حين فجأة ، فى وسط أوقات »  
« السلام ، فى باريس مثلا . وهم يرتدون ملابس فرنسية ، ويسيرون »  
« فى الشوارع فى رائحة النهار ، ويحتلون الوزارات ، ومجلس النواب ، »  
« وفى بضع دقائق يختطف من فرنسا وبولندا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا »  
« زعماءها وقادتها ، ويصبح الجيش الفرنسى بلا قيادة له ، وقد أبعد »  
« جميع الزعماء السياسيون عن الطريق . ولكنى سأكون قد أنشأت قبل »

« ذلك بوقت طويل علاقات مع الرجال الذين سيؤلفون حكومة جديدة ،  
 « حكومة توافق أغراضى » . « وسنجد أمثال هؤلاء الرجال ،  
 « سنجدهم فى كل مملكة ، ولن نحتاج الى ارشائهم ، فسيحضرون من  
 « تلقاء أنفسهم ، فالطمع والغرور والنزاع الحزبى والبحث عن المجد  
 « الشخص سيسوقهم اليها » . « وماذا كان من أمر بريطانيا ؟ ألم تنل  
 « امبراطوريتها بالسرفة والاعتصاب ؟ فهل كان ذلك ( سياسة تحالف )  
 « أما كان قوة القاهرة ؟ » « لقد فقدت الوصايا العشر قيمتها » . « ان الضمير  
 « اختراع يهودى » . « اذا كان هؤلاء السادة بآرائهم البالية يتصورون  
 « أنهم يستطيعون الاستمرار فى اتباع سياسة التاجر الأمين الذى لا يريد  
 « أن يخدع جمهور عملائه ، وأن يحرصوا على أن تكون خطوطهم  
 « موافقة للسابقات وما تعارفوا عليه ، فدعهم يتابعون سياستهم هذه ،  
 « أما أنا فان ما يعنينى هو سياسة القوة ، وأعنى بذلك أن أستعمل  
 « كل الوسائل التى تبدو لى أن من الممكن الاستفادة منها ، دون أقل  
 « اهتمام بمراعاة خصائص الوسائل أو باتباع قانون الشرف . واذا  
 « جاء الناس يشكون من هذه الأساليب عندي ، كما فعل ذلك الرجل  
 « هوجنبرج وقبيلته ، ويدعون أننى لم أحترم الوعود التى أعطيتها  
 « لهم ، وأننى لا أعبأ بالمعاهدات ، وأننى أسير على سياسة دعامتها .  
 « الحيلة ، وخداع الناس ، والتظاهر بغير الحقيقة ، فسوف أجيـب  
 « قائلا : حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ فأنتم أحرار فى أن تفعلوا كما أفعل ،  
 « فلا أحد يمنعكم عن ذلك ، فاذا وجدنا من هو مستعد لأن يـخدع  
 « نفسه ، فلا يجوز أن يندهش اذا رأى الناس يـخدعونه » . « فى  
 « فترات التاريخ الكبرى تسقط الأشياء التافهة فى الهواء ، ويحكم  
 « الساعة ناموس الحياة الأعلى » . « اننى أعيد الى القوة كبرياءها  
 « الأصيل ، ذلك الكبرياء الذى هو أساس كل عظمة ، وفيصل كل نظام  
 « وضع » . « اننى لا أعترف بقانون أخلاقى فى مسائل السياسة .  
 « ان السياسة لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل ، وتتغير فيها قواعد  
 « اللعب على أيدي اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم » . « وليست  
 « عندى أية رغبة فى الظهور بمظهر من يحتقر القانون الأخلاقى أكثر  
 « مما يحتقره غيرى من الرجال . فلماذا أسهل على الناس السبيل  
 « لمهاجمتى ؟ أستطيع بسهولة أن أعطى سياستى لونا من الأخلاق ، »



« وأظهر سياسة خصومى سياسة منافقة . ان القواعد الخلقية العامة »  
 « ضرورة لابد منها لجماهير الشعب ، وليس ثمة خطأ أكبر من سياسى »  
 « تمثل نفسه فى نظر الناس كما لو كان ( انسانا أعلى ) يحتقر الأخلاق »  
 « المتواضع عليها ، ان هذا لعبة جنونية » . « ان أولئك المسئولين »  
 « عن التاريخ قد أصبحوا ظاهرين أكثر فأكثر لأعين التقويم العالمى ، »  
 « وبناء على ذلك يجب أن يكونوا أحرارا كالألهة من رقابة الجماهير ، »  
 « فغرضهم الأعلى ، وغرضهم الأوحد ، فى كل ما يقدمون عليه يجب »  
 « أن يكون الاحتفاظ بسلطتهم . وطريقنا هذا ليس معبدا . ولست »  
 « أعرف حالة واحدة وصل فيها رجل الى السلطة دون أن يخوض فى »  
 « الأحوال » . « ونحن راضون أن نترك لحلفائنا أن يتدثروا بقواعد »  
 « الأخلاق » .

ومن أقواله أيضا : « ثلاث نقط أساسية فى دعوتنا هى : المزايا »  
 « العملية ، والألفاظ المعسولة ، والأطماع ، أى ارادة الوصول »  
 « الى الحكم » . « ان واجبى على أية حال ليس أن أجعل الرجال »  
 « أحسن مما هم ، ولكنه الاستفادة من ضعفهم » .

وقال فى الخوف والمخبة : « لا يمكن أن تحكم الدنيا الا بالخوف ، »  
 « ألم تروا قط جمهورا من الناس يتجمع ليرقب مشاجرة فى الطريق »  
 « العامة ؟ » . الوحشية محترمة . . . والناس محتاجون الى الخوف »  
 « الجماعى ، ومحتاجون الى أن يخافوا شيئا ما » . « اننى أمتنعكم »  
 « أن تغيروا شيئا ، فلتعاقبوا بكل وسيلة واحدا أو اثنين حتى يمكن »  
 « أن تنام تلك الحمير الألمانية الوطنية هادئة ، فالفزع هو أشد »  
 « الأدوات السياسية تأثيرا . يجب أن نكون قساة . ويجب أن يطمئن »  
 « ضميرنا الى القسوة، وبهذا وحده نستطيع أن نظهر الشعب من نعومته »  
 « وعواطفه المخنثة ، وانحداره الى لذة غب البيرة ، فلم يبق فى وقتنا »  
 « متسع للعواطف الرقيقة . يجب أن نرغم شعبنا على السير فى طريق »  
 « العظمة اذا كان لا بد له من أداء مهمته التاريخية » .

« ان الحكم والمحافظة على النظام لا يمكن أدراكهما بدون اكراه » .

« ان كل نظام جديد يبدو كما لو كان استبدادا . . . . » . « لا أحب »  
 « أبدا معسكرات الاعتقال والبوليس السرى وما شاكل ذلك ، ولكن »  
 « هذه الأمور هى فى الواقع ضرورات لم يكن عنها محيص » . « ان »  
 « واجبى أن أنتفع بكل وسيلة لتقوية الشعب الالمانى بالقسوة والعنف »  
 « ولأعده للحرب » .

وفى الوفاء بالوعد فى السياسة قال : « اننى مستعد لأن أضمن »  
 « جميع الحدود ، ولأن أعقد اتفاقات عدم اعتداء ، وأن أبرم »  
 « محالفات ودية مع أى انسان . الامتناع عن الانتفاع بمثل هذه »  
 « الاجراءات ، لا لشيء سوى أن الانسان قد يساق الى موقف »  
 « يضطر فيه لأن ينكث بعهد مقدس هو مجرد سخافة . لم توجد قط »  
 « معاهدة أقسم عاقدها على احترامها لم تخرق يوما ان قريبا أو »  
 « بعيدا . . . انه لا يوجد شيء اسمه محالفة أبدية ، فالرجل الذى يبلغ »  
 « به احساس الضمير الى حد أن يمتنع عن توقيع معاهدة رجل أبله . . . »  
 « لماذا لا أعقد اليوم اتفاقا بنية حسنة ثم أخرقه فى الغد دون تردد ، »  
 « اذا تطلب مستقبل الشعب الالمانى هذا الخرق ؟ » . « سأعقد أى »  
 « محالفة أنا فى حاجة اليها ، وهذا لا يمنعنى أبدا من أن أعمل فى أى »  
 « وقت ما أراه ضروريا لمصلحة ألمانيا . ولم كل ذلك ؟ هذا من أجل »  
 « الأمة الالمانية ووحدتها » .

وقال أيضا «يجب على أولا أن أخلق الأمة حتى قبل أن أبدا فى »  
 « معالجة الواجبات الوطنية التى نواجهها وليس هناك سوى حق واحد »  
 « شرعى هو حق الأمة فى أن تعيش » .

« ان من الخير لنا أن نفكر فى رذائل البشر بدلا من أن نفكر فى »  
 « الفضائل » . « لقد نادى الثورة الفرنسية بالفضيلة ، فمن الخير أن »  
 « نفعل العكس » . «ولا يكفى أن ندرس رذائل الكتلة الشعبية، فان دراسة »  
 « رذائل الرجال الذين هم على القمة أهم بكثير » . « ان المعرفة »  
 « الكاملة الدقيقة لكل خصم من خصومى ورذائله أول شرط لنجاح أية »  
 « سياسة » . « اننى متهم بأنى أحطت نفسى بعناصر دافعة ذات أطماع، »

## - ١٩٩ -

« أى هراء ! هل كان على أن ابني (الرايش) بالأخوات المقدسات ؟ »  
« إذا لم يكن الانسان طموحا فأنا لا أريده ... » .

ومن أقواله فى الدين ، ونظرته مع اتفاقها مع نظرة ماكينفلى  
فيها اختلاف : « ان رجال الدين سواء ، ولا عبرة بما يسمون أنفسهم »  
« به ، فلا مستقبل لهم ، وبخاصة الألمان منهم بالفعل . وقد تتفق »  
« الفاشستية ، اذا هى شاعت ، مع الكنيسة ، وكذلك أفعل أنا ، ولم »  
« لا أفعل ؟ فهذا لا يمنعنى من أن أمزق المسيحية أصلا وفرعا ، وأن »  
« استأصلها من ألمانيا ، فالإيطاليون قوم سذج ، وهم أهل لأن يعتنقوا »  
« الوثنية والمسيحية فى وقت واحد . لكن الألمانى على خلاف ذلك ، »  
« فهو جاد فى كل أمر يطلع به . وهو اما مسيحى أو وثنى ... هذا »  
« الى أن موسولينى لن يستطيع أبدا أن يخلق من الفاشستيين أبلا . »  
« أما فيما يتصل بقومنا فان أمرهم حاسم ، سواء اعترفوا بالعقيدة »  
« اليهودية المسيحية بما فى تعاليمها الحنونة من رخاوة وخنوثة ، أم »  
« اعترفوا عن قوة وبطولة بالله فى الطبيعة ، أو بالله فى شعبنا ، وفى »  
« مصيرنا ، وفى دمائنا » . « الانسان اما أن يكون مسيحيا أو ألمانيا ، »  
« ولا يمكنك أن تجمع بين الأمرين ، وليس لنا حاجة الى هؤلاء الناس »  
« الذين يتطلعون الى الحياة بعد الموت . ولكننا نريد رجلا أحرارا »  
« يشعرون ويعلمون أن الله فى أنفسهم ، فالقيامه لن تعنى بعد اليوم »  
« البعث والنشور ، ولكنها التجديد الأبدى فى شعبنا . وهل تظنون أن »  
« هؤلاء الرهبان الأحرار الذين أصبحوا ولا عقيدة لهم ، وأصبحت »  
« المسألة وظيفة يؤدونها ، يمتنعون عن التبشير « بالهنا » فى كنائسهم؟ »  
« اننى أستطيع أن أضمن ذلك ... سيستبدلون بصليهم صلينا »  
« المعكوف ، وبدلا من أن يخدموا مخلصهم القديم سيعبدون دم شعبنا »  
« النقى الصافى ، وسيتلقون ثمرات الأرض الألمانية هبة مقدسة كما أكلوا »  
« حتى الآن من جسد المههم » .

« والكنيسة الكاثوليكية شئ كبير حقا . فلماذا وعلى أى »  
« نظام تقوم ؟ لقد عاشت حتى الآن ما يقرب من ألفى سنة ! فيجب »  
« أن نتعلم منها . انها تعتمد على الدهاء ، وحسن الحيلة ، والعلم »

« بالطبيعة البشرية . فالقسس الكاثوليك يعرفون من أين تؤكل الكتف . »  
 « ولكن يومهم قد انتهى ، وهم يعرفون ذلك . لأنهم أذكى جدا من »  
 « ألا يدركوا الحقيقة فيشتبكوا في معركة ميئوس منها ، ولكنهم ان »  
 « فعلوا وغامروا ، فمن المحقق أننى لن أجعل منهم شهداء وقديسين ، »  
 « فسنسهم بسمة المجرمين العاديين ، وسأنزح قناع الشرف والأمانة »  
 « عن وجوههم » .

هذه بعض أقوال هتلر . ولو نظرنا فيها لوجدنا فى يسر المعانى الماكيافللية منطقية فيها ووجدنا موقفه من الأخلاق والسياسة واضحا ، وأمكننا ردها مباشرة الى أقوال ماكيافلى نفسه . الدولة كل شىء . والضرورة لا تعرف منطقا غير منطقها . والغاية فى السياسة تبرر الوسيلة . والبشر خبياء . وهم عموما يجحدون المعروف . ويترددون فى إيذاء من يخشون أكثر مما يترددون فى إيذاء من يحبون . والأنبياء العزل يهلكون . والترف مدمر للدول ، وهو العلة الأولى لسقوطها ، بينما فن الحرب يعين من يجيده على نيل السلطان . ومن السهل أن نجعل شعبا يؤمن بأمر ما ولكن من الصعب الإبقاء على إيمانه هذا ، ولذا وجب اعداد الأمور بحيث اذا ارتدوا عما اقنعناهم به استعملنا القوة لنكرهم على الايمان الذى نريده . والأذى يجب أن يكون دفعة واحدة ، لأنه كلما قل تكراره قل خطره . وشتان ما بين الحياة كما هى فى الواقع والحياة كما ينبغى أن تكون ، ولذا من يترك ما هو كائن الى ما ينبغى أن يكون انما يسعى الى حتفه . ويجب على الحاكم ألا يعبأ بالتعرض لفضيحة الرذائل التى بدونها يصعب المحافظة على الدولة ، لأن الانسان اذا أمعن النظر ، وجد أن بعض الأمور تبدو من الفضائل ، ولكنها ترمينا فى التهلكة لو عملنا بها ، وبعضها يبدو من الرذائل ونتائجها سلامة للانسان أكبر ، وهناة أعظم . والحاكم العاقل لا يعرف الوفاء حين يكلفه خسارة مصلحة له ، وذلك عندما تنتهى الأسباب التى دعتة الى الارتباط به ، وفى هذه الحالة لا تعوز الحاكم الأعذار الشرعية اذ أراد أن يبرر عدم وفائه . ومن الضروري أن يعرف الحاكم كيف يخفى هذه الرذائل فلا تظهر . وان من يخدع لن يعدم أبدا من يخدعه . فكل أمرى عبرى ما يتظاهر به الحاكم وهو يحكم عليه

به ، فالقليل يعرف الحقيقة ، وهذه القلة لن تجرؤ على أن تعارض رأى  
الكثرة فيه . الخ . وكانت هذه المعانى هى التى استخلصها ماكيافللى  
من التاريخ السياسى للبشر . فهل قرأ « الفيرر » ماكيافللى وخاصة  
« كتاب الأمير » ؟

- هل قرأت مقالة سورل Sorel عن العنف ؟ هل سمعت عن  
« دورة الصفوة » التى قال بها بارتو Pareto ؟ كان هذا نص السؤال  
الذى وجهه يوما الى « انفيرر » . ولكن هتلر كان يمقت مثل- هذه  
الأسئلة ، ويعزف عن الاجابة عليها مباشرة، ولكنه اكتفى حينذاك بأن قال:  
انه قد خصص جزءا كبيرا من وقته للقراءة فى هذا الموضوع، ويعد أن كان  
يحيط علما بكل ما يقرأ ويكون لنفسه رأيا فيه ، لا يعنى بمعرفة من  
أين استقى هذه الآراء ، الا أنه يسرع الى أن يكون « أول من ينفذها  
جميعا على أساس عريض وبمثابة غير فائرة » . لقد حبذ هتلر الحيلة  
والخداع كوسائل سياسية فعالة . هذا ، ولم يكن يوافق بعض ممن كانوا حوله  
على رأيه فى هذا الصدد فكانوا يقولون له: انها أسلحة بحددين ، والحيلة تستدعى  
الحيلة ، ولا تلبث أن تفقد تأثيرها ، وهذا بعث للماكيافللى . ولكن هتلر  
أجاب وقال: « بعث للماكيافللى اذا شئت . لا أعترض على وصف نفسى بأننى  
« تلميذ لماكيافللى » . « ولكننى أعتبر أننا وحدنا ، نحن الذين نعترف  
« بالأساس الحيوى للسياسة ، هم الذين فى موقف يساعد على اتباع  
« مثل هذه الخطط » . والثابت أن هتلر لم يقنع بقراءة « كتاب الأمير »  
فحسب ، بل قد توفر أيضا على دراسته كما صرح هو نفسه ، وقال أن  
هذا الكتاب من الضروريات اللازمة لكل سياسى . فكان  
يحفظ به على المائدة المجاورة لفراشه ، ويقال انه كان يضعه دائما  
تحت وسادته . ويحدثنا البعض عن أن موسيقى فاجنر Wagner  
و « كتاب الأمير » ، كانا من أهم مقومات شخصية الزعيم الالماني . لقد  
وصف هتلر للبعض الراحة والحرية التى شعر بهما من جراء قراءة هذا  
الكتاب ودراسته ، اذ هو الذى حرره من نير العاطفة الغامضة التى كانت  
تقيده كسياسى بقيودها ، وتربك أفكاره وهو (صاحب نظام جديد) . كما كشف  
« الفيرر » لمحدثه فى حينه عن « كيف أن كثيرا من الميراث العاطفى

## - ٢٠٢ -

يعرقل خطونا فى كل شىء » . قال هتلر : انه لم يعرف شيئاً عن حقيقة علم السياسة حتى قرأ كتاب ( الكاتب الفلورنسى ) . فالزعيم الألمانى كان يهتم بدراسة الرذائل البشرية ، وانشغل بدراسة الضعف الانسانى . ولعل ايمان هتلر بفاعلية مذهب ماكيافللى فى غاب السياسة يظهر بوضوح فى نقده الغاضب للدبلوماسية الألمانية حينذاك ، وهى توجه دفة السياسة الخارجية الألمانية فى بدء عهده . فوصف مجهودات رجال وزارة الخارجية الألمانية وقتذاك بأنها « تخبط فى الظلام » ، مادام يعوزها (قلم مخابرات) بالمعنى الصحيح ، اذ يغلب عليهم الاعتماد على تقارير شكلية كلها قشور لا لب فيها، واستنتاجات غير مفيدة لا قيمة لها ، تصل من وقت الى آخر من السفارات فى الخارج . فكان هتلر لا يرضى عن تلك القشور ، اذ كان يطمع فى معلومات موضوعية أدق ، ويرغب من صميم نفسه فى أن يعرف « أين يلقي اللورد فلان شباكه ، ومن هى عشيقه » « فلان ، وما هو مدير شركة كذا ؟ » . « ان وزارة الخارجية كلها معنية » « بالأوضاع الداخلية وبالمشكلات » . والواقع أن (قلم المخابرات الألمانى) ، كان ضعيفا وقتذاك حين استلم هتلر مقاليد الأمور فى ألمانيا، فأراد أن يعيد تنظيمه ليأتى بالفائدة المرجوة ، ويصبح « مماثلاً لـ (قلم المخابرات البريطانى) » « هيئة منظمة تؤدى الواجب بحماسة ورغبة » . وعلى كل حال ، فإن من يريد تفصيلاً أكثر فى هذه المسألة ، فعليه أن يرجع الى تقدمتنا لترجمتنا العربية ، لكتاب الدبلوماسية للسير هارولد نيكولسون، وتعليقنا على نصوصه ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .



هذه بعض اقتباسات من أقوال « الفيرر » ، توضح لنا قوة حماس هتلر كمريد لشيخه ماكيافللى ، وتبين ما وجدته (هتلر) فى مبادئ « السفير الفلورنسى » من حلول لمشاكل السياسة ووقائعها وأحداثها . ولم تكن حلول ماكيافللى عند الزعيم الألمانى ساذجة جوفاء واهمة ، أو ذات قيمة تافهة ، بل وجد هذا « الزعيم » أن الخسران فى عدم السير فى موكب أتباع ماكيافللى ومريديه ، ولذا توفر على السير فى فلكه .

ولكن ، يا للقمة من هول اغراء النفس ، ومن هول نسيان من يصل اليها لنفسه . وطوبى لمن يؤتى الحكمة والاتزان وهو يعتلى القمة . وويل لمن يسكره النصر ، وقد بلغ أعلى القمم ! ان المغالاة فى وسائل الاستيلاء والسيطرة ، فى نظرنا، تجعله ينزلق ويقف من جديد ويعود الى صفوف حشود البشر وجماهيره كأي فرد عادى كما كان من قبل . فالافراط كالتفريط فى هذا الشأن . وكلاهما أمر غير مرغوب أمام منصة الحكمة عند الحكام . وهما يؤديان الى الحضيض بعد حين . اذ الحكمة ضرورة للقوة ، وضرورة للنصر الدائم . ولقد نسى هتلر جميع ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ، ونسيه وهو ظافر عنيد ، فكان لابد له من الحكمة وعدم الاسراف والتطرف ، لكيلا يدمر نفسه بنفسه ، وهو يسرع الخطو الكثير والسريع ويوسع خطوته . فكانت العاقبة أن انفرجت ساقاه وتعطل مسيره ، وشلت حركته ، وأصبح فى النهاية المقعد الأسير . الصعود باستمرار علو واقترب من القمة واحتلالها ، ولكن القمة نقطة ، والاسراف فى اتخاذ اتجاه واحد للوصول اليها دون تغيير للاتجاه كوسيلة قد يؤدي الى الهبوط والانحدار من القمة من ناحية أخرى . ألا ينزل الانسان حين يتحرك من أى مكان ما على سطح الأرض ، دون أن يغير الاتجاه ، الى المكان نفسه الذى بدأ يتحرك منه ؟ ان الفضيلة تقع بين رذيلتين ، وأى اسراف فى فضيلة يؤدي الى رذيلة . فى الماء رى وحياة ، وبه غصص ، وفيه غرق . فى الدواء مع الحكمة ومراعاة مقتضى الحال ، صحة وسلامة ، وفى الاسراف فى تناوله أسقام ومنية . ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . لقد نسى هتلر كل ذلك ، وهو قوى شديد ، ونسيه وهو عال وحيد ، ونسيه وهو ظافر عنيد ، فخدم اسرافه هذا فى سياسة القوة أعداءه وأخذ يقترب من ساعة سقوطه . الاسراف فى استخدام القوة كالاسراف فى الجود ، « وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالكرم ، لأنه كلما كان المرء كريما كلما فقد القدرة على أن يكون كريما » . لقد كان الاولى بهتلر ألا يسرف فى تطبيق مبدأ واحد هو مبدأ القوة ، وهو الذى كان تلميذا لماكياقللى ، بينما شيخه نفسه

## - ٢٠٤ -

يحذر مريديه وتلاميذه من الحكام والرؤساء من السير على طريقة واحدة في معالجة الشئون السياسية ، حتى ولو سبق أن حققت لهم النصر . لأن الظروف تتغير ، وسر الظفر هو مناسبة الوسائل لمقتضى الحال . وملخص رأى ماكيافللى فى هذا الصدد أن الناجح من الحكام من كان أسلوبه فى العمل والتصرف يتفق مع روح الوقت والعصر من حيث مستلزمات العمل ومجابهة الواقع فى حينه ، ومن يخيب هو الذى يتصرف بطريقة تخالف ذلك . فالزمن دائما فى تغير . اننا نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما فى نيل ما يريده ، بينما يفشل الآخر فى تحقيق غرضه . وكذلك يكتب النجاح على حد سواء لفردين طريقة أحدهما تغاير طريقة الآخر ، وأحدهما يصطنع الحذر وسيلة ، والآخر يتخذ الاندفاع طريقة له . والسر فى جميع ذلك هو مناسبة أساليب العمل أو عدم مناسبتها فى حينها لطبيعة العصر الدائم التغير . وعلى ذلك ، وكما قلت ، نرى أن رجلين اتخذا وسيلتين مختلفتين يصلان الى نتيجة واحدة ، وان فردين آخرين يصطنع كل منهما وسيلة الآخر نفسها يصل أحدهما الى هدفه بينما لا يبلغه الثانى . ويزيد ماكيافللى هذه النقطة وضوحا بقوله : اننا لم نعثر على حكيم حازم حزمنا استطاع معه أن يكيف نفسه مع هذا الأمر ، اما لأنه كان ناجحا وهو يسلك طريقا واحدا بعينه ، فلم يعد يستطيع اقناع نفسه بأن الأفضل ترك هذا الطريق ، أو لأنه لا يستطيع أن ينحرف عما أعدته به طبيعته وشخصيته من استعدادات وقدرات . ولذلك نجد أن الرجل الحذر حين يكون التعجيل بالعمل مطلوبا لا يعرف كيف يعمل ، وبالتالي يفشل ، لأن المرء اذا استطاع أن يكيف طبيعته مع الزمن فان حظه لن يتغير أبدا .

ونحن نقول : ان هتلر كان ناجحا وهو يسلك « طريقا واحدا » ، وهو طريق القوة ، فلم يستطع أن يقول لنفسه : « ان الأفضل ترك هذا « الطريق » حسبما كانت تملى الظروف وقتذاك . حقا ، ان ماهية الدولة ، كما يقول (ترايتشكى) هى القوة أولا ، والقوة ثانيا ، والقوة ثالثا » ، ولكن لم يغب عن بال هذا المفكر الكبير التحفظ لى يضمن عدم سقوط الدولة « القوية » فى النهاية وتدميرها نفسها بنفسها ، فأضاف الى قوله السابق اضافة تقول : ولا بد أن « تكون أغراضها أخلاقية » .



## الفصل الثامن

« ظل رجل الحكم »



كان ( كتاب الأمير ) لأبى القوة ( ماكيفلى ) ، ومعه ( موسيقى فاجنر ) ، من أهم مقومات التطور الروحى لـ ( الفيرر أدولف هتلر ) أحد ( الأنبياء غير العزل ) فى القرن العشرين . وكان هذا الكتاب ، كما قال ( الفيرر ) نفسه ، هو الذى أطلعه وأقنعه بحقيقة السياسة بنية وأحشاء ، وخلصه وحرره من ثقل نير العاطفة وهى تعض أحاسيسه وشغاف قلبه كما تعض أمواج محيط هادر رمال شطآنه وذلك بطبيعة الحال ، عندما أحس أن العاطفة تعوق خطواته وقفزاته ، وهو يتحرك ويحرك نظامه السياسى الجديد . فاذا به لا يعيب هذا الكتاب فى قليل أو كثير ، بل أخذ ينكب على قراءته واستيعاب ما جاء فيه ، ويحتفظ به على مائدة مجاورة لفرشه أو تحت وسادته ، وذلك لقراءته فى الفرصة التى تواتيه . وإذا بأقواله فى الحكم والسياسة التى سردنا بعضا منها منذ قليل ، تنطق بوضوح دون أدنى لبس ، بتأثره بشيخه وأستاذه ( نيقولا ماكيفلى ) الذى فصل بين الأخلاق والسياسة فصلا تاما فى ( كتابه الأمير ) بجرأة الريح فى عواصفه وزوابعه ، دون أى تحسب لما قد يشعله هذا الفصل من برق خاطف راعد عاصف ، فيعده الكثيرون من قبيل وقاحة سافرة لفكر مجنون أو من قبيل الشطحات الفكرية ، وليس بآيات واقع قبيح فى السياسة ، شاهدها ( ماكيفلى ) المدقق فى التاريخ ، عندما قرع هذا الكاتب بابه ، لينفرد به وحده دون ثالث لهما ، ويطلع بفكره الثاقب المدقق ويقرأ أولا وبالذات بين سطور سجل ( التاريخ الواقعى ) ، لـ ( الحيوان السياسى بطبعه ) أى

الانسان ، اتجاهات دروبه ومسالكه ، وسمات وسائله وحيله ، للوصول الى النصر ، فى حومة السياسة ، وهو يتحرك فيها كالسيل فى مجرى التاريخ . وكان من بين الأقوال الماثورة عن هذا الزعيم الالماني التى توضح مباشرة تأثيره البالغ بشيخه وأستاذه ( نيقولا ماكيافللى ) ، قوله أولا بأنه « لا يعترف بقانون أخلاقى فى مسائل السياسة » ، و « السياسة لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل » ، و « فيها تتغير قواعد اللعب على أيدى اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم » . وقوله ثانيا بأنه « لم يعرف حالة واحدة وصل فيها رجل الى السلطة دون أن يخوض فى الأوحال » . وثالثا قوله بأنه « يعيد للقوة كبرياءها الاصيل ، ذلك الكبرياء الذى هو أساس كل عظمة ، وفصل كل نظام وضع » . ويستشهد فى قوله هذا ببريطانيا فيقول : « انها لم تحصل على امبراطوريتها الا بالسرقة والاعتصاب والقوة القاهرة ، وليس عن ( طريق التحالف ) » .

والحقيقة أنه تأثر أيما تأثر بشيخه وأستاذه ( نيقولا ماكيافللى ) ، وشيخ ( الأنبياء غير العزل ) قاطبة وأستاذهم فى القرن العشرين . ولكن يبدو أن ( الدوتشى ) ، قد فاق علميا والى حد بعيد ( الفيرر ) كمريد وتلميذ لـ ( نيقولا ماكيافللى ) ، فهو ابن جلدنه ويلده . فالزعيم الايطالى هو الذى اطلع فى وقت مبكر من حياته على فصل ( الكاتب الفلورنسى ) بين الأخلاق والسياسة فى ( كتاب الأمير ) ووالده يتلوه عليه كما سبق القول من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهو الذى حرص على أن يعيد قراءة هذا الكتاب قراءة واعية ليشارك الكاتب ( الفلورنسى ) حلمه بروما المدينة الخالدة ومجدها القديم ، بينما كان موسولينى يبحث عن ذاته ويتساءل : ( من أنا . وما سأكون ) ، أثناء تطوره الروحى ، حتى تشبع بفلسفة ماكيافللى ونظريته السياسية ، وأخذت بدورها تلعب دورها فى تكوين عقيدته السياسية ، بينما ايطاليا عن بكرة أبيها حينذاك تفخر بولدى فلورنسا ( دانتي ) و ( ماكيافللى ) . فاذا بكتابات ( السفير الفلورنسى ) تسوق ( الدوتشى ) ، وهو صاحب نظام سياسى جديد أخذ يمارسه ، الى يقف فى طابور طلاب الدراسات العليا فى جامعة بولونيا ، لينال درجة الدكتوراه

برسالة علمية موضوعها ذلك الكتيب الصغير ، وهو أثر من آثار ماكيافللي الهامة والطريفة والجريئة ذات الشهرة المدوية ، والذي صدر عنه في عصر البعث الجديد وهو عصر النهضة . إنه ( كتاب الأمير ) الذي اعتبره هذا الزعيم ( ظل رجل الحكم ) \* وذلك في رسالته التي كان عنوانها (( تعليق عام ١٩٢٤ على ( كتاب الأمير ) لماكيافللي ) . ونظرا لأهمية هذا الكتيب ، سواء في السياسة أو في الأخلاق ، رأيت أن أفرد فصلا لما قاله ( الدوتشي ) في شأن ( كتاب الأمير ) أثناء مناقشة رسالته الجامعية ، بوصفه صاحب هذه الرسالة وكذا صاحب نظام سياسي جديد شرع يمارسه . وهذا الفصل هو الفصل الثامن المائل وعنوانه ( ظل رجل الحكم ) \* . وإلى القارئ ما جاء به هذا الزعيم الإيطالي ( بنتو موسوليني ) في مقدمة هذه الرسالة ، وهو يقف أمام منصة اللجنة الجامعية التي شكلت لمناقشة موضوع هذه الرسالة ، عندما أخذ يقول ما يلي :

« حدث ذات يوم أن أخبرني من امولا Imola فرق القمصان »  
 « السوداء أني سأهدي سيفاً نقش عليه عبارة ماكيافللي وهي »  
 « ( لا تحافظ على الدول بالكلام ) . فوضع هذا حدا لترددى ، وعين »  
 « مباشرة موضوع الرسالة الذي أقدمه اليوم إليكم لتصويتكم عليه ، »  
 « وقد أستطيع أن أطلق عليه ( ظل رجل الحكم ) \* . وفضلا عن ذلك ، »  
 « يجب أن أضيف للأمانة العلمية ، أن مراجع رسالتي قليلة ، كما »  
 « سنرى فيما بعد . لقد قرأت ( كتاب الأمير ) وبقية مؤلفات »  
 « ( الأمين العظيم ) Le grand Secrétaire قراءة واعية . »  
 « ولكن الوقت والإرادة أعوزاني لكي أقرأ جميع ما كتب عن ماكيافللي »  
 « في إيطاليا وفي العالم . إذ أردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من »  
 « الوسطاء القدامى أو المحدثين ، الإيطاليين والأجانب ، حتى لا أفسد »  
 « عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وبين حياتي التي عشتها ، وبين »  
 « ما لاحظته هو وما لاحظت أنا عن البشر والأشياء ، وبين ممارسته »  
 « للحكم وممارستي له . إذن ، ما أشرف بقراءته عليكم ليس »  
 « باستطراد مدرسي فاتر حافل باقتباسات من الآخرين ، وإنما هو »

\* Vademecum de l'homme de gouvernement

«بالأحرى كما أعتقد مسرحية ، وذلك لو استطعنا النظر بعين الاعتبار إلى أنه»  
«محاولة إقامة جسر روحى فوق هوة الأجيال بروح مسرحى معين .»  
«ولن أقول جديدا .»

« فالمشكلة هى : ماذا يبقى حيا فى ( كتاب الأمير ) بعد أربعة قرون من  
« الزمن ؟ وهل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافلى أية فائدة لرجال  
« الحكم المحدثين ؟ وهل قيمة المذهب السياسى لـ ( كتاب الأمير )  
« وقف على العصر الذى ألف فيه ، وعليه فهى قيمة محدودة  
« بالضرورة ، وباطلة إلى حد ما ، أو هى ليست شاملة وواقعية  
« وفعالة على وجه الخصوص ؟ إن رسالتى تجيب على هذه الأسئلة .»  
« وإنى أؤكد أن مذهب ماكيافلى حى حتى اليوم بعد أربعة قرون . والسبب  
« فى ذلك ، أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرا كبيرا ، فإن  
« التغيرات فى روح الأفراد والشعوب تبدو عميقة جدا .»

« وإذا كانت السياسة هى فن حكم البشر ، أو بعبارة أخرى هى تربية  
« أهوائهم وأناياهم ومصالحهم ، بالنسبة إلى غايات تمتد إلى المستقبل ،  
« إذا كانت هذه هى السياسة ، فلا ريب أن الإنسان هو العنصر الجوهرى  
« لهذا الفن . ومن هنا يجب البدء بالتساؤل عما هو البشر فى المذهب  
« السياسى لماكيافلى ؟ وهل هو حين يقول ( البشر ) يتفاءل أم  
« يتشاءم ؟ وهل يجب علينا أن نفسر هذا اللفظ بمعناه الضيق ،  
« أى بالإيطاليين الذين عرفهم ماكيافلى وحكم عليهم كمعاصرين له ،  
« أو بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان ، وبعبارة مقدسة نقول : تحت  
« ( مظهر من مظاهر الخلود ) \* . وقبل الشروع فى تمحيص أكثر تحليلات لمذهب  
« ماكيافلى السياسى كما يظهر لنا مركزا فى ( كتاب الأمير ) ، يبدو  
« لى أن من الواجب أن نتساءل بذقة : أى فكرة كانت عند ماكيافلى  
« عن البشر عامة ، وعن الإيطاليين خاصة ؟ أجل ، إن النتيجة  
« الواضحة ، حتى من قراءة سطحية لـ ( كتاب الأمير ) هى تشاؤم  
« ماكيافلى العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية . أنه يزدرى البشر ، شأن  
« الذين أتاحت لهم الفرصة للتعامل مع أندادهم معاملة رحبة ومتصلة ،  
« فكان عليه أن يقدمهم إلينا فى مظاهرهم السلبية كأشد ما تكون السلبية

\*Sub specie æternitatis

« والدنيئة كأحط ما تكون الدناءة » .

« عند ما كيافللى ، البشر خبثاء ، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر »  
 « من تمسكهم بحياتهم الخاصة ، وعلى استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم »  
 « ويعبر ما كيافللى عن فكرته هذه عن البشر في الباب السابع عشر »  
 « من ( كتاب الأمير ) هكذا : ( نظرا لأنه يمكن القول عن البشر عموما ، »  
 « إنهم يجحدون المعروف ، ويهذرون في الكلام ، ويظهرون غير ما يطنون ، »  
 « ويقلقون على تجنب الخطر ، ويطمعون في الكسب ، وطالما يستفيدون منك »  
 « فهم أعوانك تماما ، ويفدونك بالدم والمتاع والحياة والولد ، فالحاجة »  
 « إليهم بعيدة ، ولكن حين تقترب يغدرون بك ، فيهلك الأمير الذى يعول »  
 « على وعدهم دون أن يستعد بالعدد الأخرى . إن البشر يترددون في الإساءة »  
 « إلى من يحبون أقل من ترددهم في الإساءة إلى من يهابون ، لأن الالتزام »  
 « بالحب الذى يشد البشر ينقطع في فرصة من فرص مصلحتهم ، »  
 « فالبشر أناني . ولكن الفزع من العقاب الذى لا يخفق أبدا يحفظ الخوف ) . »  
 « وفيما يخص الأنانية أعثر بين ( الأوراق المتباينة ) \* على »  
 « ما يأتى :

« يعانى البشر من ملكية نزعست منهم غناء أكبر من موت »  
 « أب أو أخ ، لان الموت ينسى أحيانا ، أما الثروة فلا تنسى »  
 « أبدا . وسبب ذلك بسيط ، فالجميع يعلم أن تغيير دولة لا يمكن »  
 « أن يعيد أبا ، ولكنه قد يعيد ملكية . وفي الباب الثالث من »  
 « ( المطارحات ) أعثر على ما يلى ، وقد تبينه جميع الذين يفكرون »  
 « في الحياة المدنية ، والتاريخ حافل بأمثلة لذلك . ( فمن الضروري »  
 « لمن يعد جمهورية ويقيم فيها نظاما ، أن يفترض أن جميع البشر خبثاء ، وهم »  
 « دائما على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم ، حين تسنح لهم فرصة »  
 « مواتية . إن البشر لا يعملون أى خير أبدا إلا بالضرورة . ولكن »  
 « عندما تتوافر لهم الحرية ، ويكون هناك فوضى ، يحفل كل شئ في »  
 « الحال بالاضطراب وعدم النظام ) . ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات ، »  
 « ولكن هذا غير ضرورى . فالشذرات التى اقتبسناها تكفى لإثبات أن الحكم »

« السلي على البشر في ذهن ماكيافلي غير عرضي ، ولكنه حكم »  
 « جوهرى وواضح أيضا أن ماكيافلي عندما يحكم على البشر مثلما حكم »  
 « عليهم لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا و أهل »  
 « توسكانيا والإيطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل »  
 « القرن السادس عشر ، وإنما فكر في البشر كافة دون تحديد زمنى أو مكانى . »  
 « أما بالنسبة للزمن ، فقد انقضت منه حقب ، ولكن لو أجزى لى أن على »  
 « أحكم أمثالى وأبناء عصرى ، فلا أستطيع بأى صورة أن أضعف من حكم »  
 « ماكيافلي ، بل قد يكون من واجى أن أزيد من أهميته ، فماكيافلي نفسه »  
 « لا يتخدد ولا يتخدد الحاكم ، والتعارض فى فكر ماكيافلي بين الحكم »  
 « والشعب ، وبين الدولة والفرد\* ، تعارض محتوم . وهذا ما سميناه النفعية »  
 « والبرهانية والكليية والمكيافلية ، التى تنبجس بصورة منطقية من هذا »  
 « الموقف المبذنى . ويجب أن نفهم أن كلمة ( أمير ) تعنى »  
 « ( الدولة ) ، فعند ماكيافلي ( الأمير ) هو ( الدولة ) . وهى تمثل »  
 « تنظيما وتحديدا ، بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسهم فيترعون إلى »  
 « الخمود الاجتماعى . فالفرد يتزع باستمرار إلى الحرب ، ويميل إلى عدم »  
 « طاعة القوانين ، وعدم دفع انضرائب ، والإنخراط فى التجريد . وقليل »  
 « هم هؤلاء الأبطال والقديسون الذين ضحوا بمصالحهم على مذبح الدولة\* ، »  
 « وغير هؤلاء فى حالة ثورة كامنة ضد الدولة . إن ثورات القرنين »  
 « السابع عشر والثامن عشر حاولت أن تحل هذا الصراع الذى يوجد »  
 « عند قاعدة كل تنظيم اجتماعى للدولة ، بأن أظهرت السلطة كافا »

\* ويلاحظ من ناحية قول موسولينى أيضا فى خطاب عام ١٩٣٤ : « الشعب هو الدولة ، والدولة هى الشعب » . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ماكيافلي جعل التعارض بين الدولة والفرد تعارضا محتوما بالفعل ، بينما يجعل التعارض بين الدولة والشعب تعارضا معلوما على الإطلاق .

\* لقد مثل ((الأنصار)) مع الرسول هذا الدور فى الدعوة الإسلامية ، فقال لهم : ( إنكم لتكثرون عند الفزع ( أى الحرب ) وتقلون عند الطمع ، أى عند توزيع الغنائم



« صادرة عن إرادة الشعب الحرة . وهذا خرافة . وفضلا عن ذلك فهو »  
 « وهم . فأولا لم يمكن تعريف الشعب أبدا . فهذا الشعب باعتبار أنه »  
 « كيان سياسى ، هو كيان مجرد تجريدا بحتا . ونحن لا نعرف معرفة »  
 « دقيقة من أين يبدأ ، ولا أين ينتهى . إن صفة السيادة ~ ~ ~ »  
 « الشعب سخرية مؤلمة . الشعب على أكثر تقدير »  
 « لا يستطيع أن يمارس في الواقع أية سيادة »  
 « تنسب إلى الآلية أكثر من الأخلاق . وفي البلاد نفسها التى »  
 « تستخدم فيها هذه الآليات أعظم استخدام منذ قرون ، تأتى عليها »  
 « ساعات رسمية لا يطلب فيها من الشعب شئ أكثر من ذلك ، إذ نحس بأن »  
 « الجواب يمكن أن يكون مهلكا ، فتتزع من الشعب تيجان السيادة المصنوعة »  
 « من الورق . وهى تيجان صالحة فى الأوقات العادية ، فأمره أن »  
 « يقبل ثورة أو سلما ، أو السير نحو حرب مجهولة ، ولا إجراء »  
 « آخر ، فلا يكون للشعب سوى الإقرار و الطاعة . فالسيادة »  
 « التى تمنح بلطف للشعب تسحب منه فى اللحظات التى نستطيع »  
 « فيها أن نحس بالحاجة إليها ، وترك له فحسب عندما تكون »  
 « غير ضارة ، أو ممدوحة كذلك ، وبعبارة أخرى نقول فى لحظات »  
 « الإدارة العادية . هل تتصورون حربا أعلنت بالرجوع إلى الشعب ؟ »  
 « إن الاستفتاء يسير سيرا حسنا جدا حينما نكون بصدد اختيار أنسب مكان »  
 « لنقيم نافورة القرية فيه ، ولكن حينما توضع المصالح العليا للشعب فى »  
 « الميزان ، تتقى الحكومات فوق الديمقراطية نفسها أن ترجعها إلى حكم »  
 « الشعب بالذات . إذن هناك على الدوام صراع بين السلطة المنظمة للدولة »  
 « وبين شرائح الأفراد والجماعات . وحتى فى النظم نفسها التى صنعتها لنا »  
 « الانسيكلوبيديا Encyclopedia و أخطأت فيها عبر روسو بإسرافها المتفائل »

«دون حدود ، لانجد نظما استحوزت على الموافقة المطلقة ، ويحتمل ألا  
يحدث ذلك أبدا . لقد كتب ماكيافللي في (كتاب الأمير ) ، وذلك منذ  
«مدة طويلة ، وقبل أن تصبح مقالتى هذه مشهورة\* ، (وعلى  
«ذلك حدث أن انتصر جميع (الأنبياء غير العزل ) ، وهلك (الأنبياء  
«العزل ) ، لأن طبيعة البشر متقلبة ،ومن اليسير أن نجعل البشر يؤمنون  
«بأمر من الأمور ، و لكن من العسير أن نبقى على إيمانهم هذا . ومن هنا  
«لزم أن نعد الأمور . إعداذا يمكننا من أن نستخدم القوة لنكرهم على الإيمان  
«عندما يرتدون عنه . فلو كان موسى ، وقورش ، ورومولوس عزلا ،  
«لعجزوا عن أن يجعلوا غيرهم يراعى دساتيرهم أمدا طويلا .

---

\* Forza e consenso

## دليل الكتاب \*

---

\* عند الاسترشاد بدليل الكتاب تحذف ( أل ) من الكلمة . ويلاحظ أننا جعلنا مادة الحرف ( لا ) قائمة بذاتها علاوة على مادة حرف ( اللام )



(أ)

- أبو الهول : ٦٦  
الاتحاد :  
— الأسترالي : ١٣٣  
— الألمان الكبير : ١٦٧  
— الأوروبي : ١٢٤  
— السوفييتي : ١٣٤  
— السويسري : ١٣٣  
— الفيدرالي : ١٣٣، ١٣٤  
— الكندي : ١٣٣  
أثينا : ٤٠، ٢٦، ٤٠، ٢٦  
الاحتمالية : ١١٧  
أرسطو :  
١٣٢، ٣٠ — ٢٨، ٢٦ — ٢٣، ٨  
أرمينيا : ١٤٨  
أسبانيا : ١٤٨ — ١٤٦، ٧٠، ٤٦، ٣٦  
إسبانية : ٢٦  
الاستقرار :  
١٥٣، ١٥١ — ١٤٨، ١٤٦، ١٤٥  
أسرة الشعوب : ٢٧٨، ٧٧  
اسكتلندا : ١٥٦  
الاسكتلندي (البابا) : ٤٨، ٥١  
الإصلاح الدوري : ١٨٦  
أفريقيا : ١٢٦، ١١٢، ١٥٦  
أفغانستان : ١٥٦  
أفلاطون :  
١٠٥، ٢٨، ٢٤، ٢٣، ٢٠ — ١٧، ٧، ٥  
آكتون (اللورد) : ١٣٣، ٨٥  
الأكليروس : ١٨٩، ١٤٥  
الدين (مطبعة) : ٣٨
- الانزاس واللورين : ١٧٠، ١٦٩، ١٠٦  
المانيا :  
١٥٥، ١٢٩، ١٠٤، ١٠٣، ٨٥، ٧٩، ٣٦  
١٦٤، ١٦٦، ١٩٤، ١٩٩  
اليزابيث (الملكة) : ١٤٦ — ١٤٨  
أم البرلمان : ١٤٩  
الأمم المتحدة : ١٣٠، ١٢٦  
إمولا : ٢٠٩  
الأمير (كتاب) :  
٧٩، ٧٧، ٦٩، ٦١، ٥٧، ٥٥، ٥٤، ٥١  
٢٠١، ١٩٢، ١٨٠، ١٧٩، ٨٦، ٨٥،  
٢٠٢، ٢٠٨ — ٢١٠، ٢١٤  
الأمين العظيم : انظر : ماكيفللي وموسولين  
أنا بوليس : ١٢٥  
الأنا القومي الجرماني : ١٦٦، ١٦٩، ١٧٣  
الأنبياء العزل : ٢١٢، ٢١٤، ٢٠٠  
الأنبياء غير العزل : ١٧٥، ٨٩، ٥٩، ١٧٩،  
٢١٤  
إنجلترا :  
١٤٩ — ١٤٦، ١٤٤، ١٢٧، ٨٤، ٣٦  
١٦٥، ١٦٣ — ١٥٩، ١٥٧، ١٥٤، ١٥٣،  
١٧١، ١٧٠،  
أنجلو شتات (ميدان) : ٥٧  
أنجلو (ميشيل) : ٣٥  
الانسيكلويديا : ٢١٤  
الانشطار النووي : ١٣١، ١٣٤، ١٧٨  
الأنصار : ٢١٣  
انقلاب :  
— برومير : ١٨٥

|                                              |                                         |
|----------------------------------------------|-----------------------------------------|
| بروسيا : ٧٧ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،          | ٢٠ ديسمبر : ١٨٥                         |
| ١٠٦ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١            | — الرويكون : ١٨٥                        |
| بريطانيا : ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨             | — الزحف إلى روما : ١٨٦                  |
| البعث الإيطالي : ٤٧ ، ٦٩ ، ٨٣                | أنكيو : ١٥٢                             |
| البعث الجديد : ٣٥ — ٤١                       | أنيتوس : ١٧                             |
| بلاطين ( تل ) : ٤٧                           | أورشليم : ١٢٦ ، ١٦٢                     |
| البلطيق ( بحر ) : ١٦٦                        | أوسلو : ١٢٦                             |
| بلغاريا ( ثورة ) : ١٥٣ — ١٥٥                 | الاوليكارشية : ٢٥                       |
| بنلوش : ٩٨                                   | ليزوقراط : ٢٧                           |
| بودان : ٩٠                                   | إيطاليا :                               |
| بوسفان : ٥٧                                  | ٣١ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، |
| البوسفور : ١٦١                               | ٥١ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٢ ، |
| بول الرابع ( البابا ) : ٥٦                   | ٨٤ ، ١٤٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ٢٠٩        |
| بولص ( الكاردينال ) : ٥٦                     | ( ب )                                   |
| بولونيا ( جامعة ) : ١٨٠ ، ٢٠٨                | بارتو : ٢٠١                             |
| بومبي : ١٨٥                                  | باريس : ١٠٧ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،   |
| يونانبرت : ١٨٥                               | ١٩٥                                     |
| يونانبرت عجوز : ١٦٠                          | بافاريا : ٥٧                            |
| بيجي : ١٨٠                                   | باك بك ( معبد ) : ٣٩                    |
| بيرك : ١٣٢                                   | باليو ( ايطالو ) : انظر : الكادرومفير   |
| بيرويت ( فاجنر ) : ١٠٤                       | بالمرستون : ١٦٩                         |
| بيكونزفيلد : انظر : قناة السويس              | باتشيون فلورنسا : ٧٥                    |
| ( ت )                                        | برجسون : ١٨٠                            |
| تاليران : ١٧١                                | بسمارك ( اوتوفون ) : ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،  |
| التايسمر ( نمر ) : ١٥٠                       | ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٣ |
| تجديد النساء : ١٨٠                           | البرلمان الزاهر : ١٤٩                   |
| تحالف شعوب الارض : ١٢٨                       | برلين : ٧٩ ، ٩٩                         |
| التحفظ الذهني : ١١٧ ، ١٢٨                    | برناردى : ١٦٦                           |
| تحقيق القيم العليا : انظر : ( القيم العليا ) | بروتس : ١٩٣                             |
| و ( الأنا القومي الجرمانى )                  | البروتستانت : ٥٦                        |

- تخليق السياسة : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ٢٢٣ ،  
ترايتشكي : ٧٩ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ١٦٦ ، ١٩٥ ،  
٢٠٤  
التريون : ١٩٠  
تركيا : ١٥٤ ، ١٥٥  
تشامبرلين (ستيورات) : ١٦٦  
تشرشل (ونستون) : ٩٠  
تعاليم الشيطان : انظر : ماكيافلي  
التعليم والعلم البروسي : ٩٧ — ١٠٤  
تقديس الواجب : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٨  
تكنولوجيا المعلومات : انظر : الكومبيوتر  
قعدة ايرلندا : ١٥٦  
تومازيني : ٨٢ ، ٨٣  
تومان : ١٦٦  
تونس : ١٧٠  
تيسوس : ١٨١
- ( ث )  
الثقافة الجرمانية : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧  
الثورة البلشفية : ١٨١
- ( ج )  
جبال البرانس : ١٦٥  
جبل الزيتون : ١٥٣  
جبل طارق (جديد) : ١٥٦  
جرجنتوا : انظر : الطفل المارد  
جراندي (دينر) : انظر : الكادرومفير  
جراي (اللورد) : ٩٠  
الجزويت : ٥٧  
جلادستون (اوارت) : ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ،  
١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٩  
جلجاميش (ملحمة) : ١٥٢
- جلبرت : ٩٨  
جمهورية أفلاطون (كتاب) : ١٧  
الجمهورية العالمية : ١٢٨  
جمهورية فايمر : ١٩٥  
الجنس الجرمان : ١٦٦  
جوركاكوف : ١٥٥  
جوفينال : ٩٧  
جويتشديني : ٦٨  
جيراريا : ١٨٢  
جيسي : ٨١  
جيمس الأول : ١٤٩
- ( ح )  
حاجات الدولة : انظر : حق الدولة  
حالة الشريعة : ١٢٩  
حالة الطبيعة : ٢٢٩  
حب الفرة : انظر : الداء الإغريقي القديم  
الحرب العالمية الأولى : ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٨١  
الحرب العالمية الثانية : ١٣٠  
الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠) : ١٦٥ ، ١٦٩  
حركة الإصلاح الديني : ١٤٧  
الحروب البيولوجية و الجرثومية و الكيميائية : ١٣١  
الحزب الفاشستي : ١٨١  
الحزب النازي : ١٩٤  
حطاب هواردن : انظر : جلادستون  
الحق المقدس للملوك : ١٤٨
- ١٩ ، ١٨٦  
حمام الدم : ١٩٥

(ر)

راينر : ٩٨  
 رانكى : ٧٨ ، ٧٩  
 الرايش : ١٩٥ ، ١٩٩  
 رجال الكنيسة : ٦٠  
 الروبيكون : انظر : انقلاب  
 روسو ( جان جاك ) : ٧٥ ، ٩٩  
 روسيا : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٧٠  
 روما : ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ،  
 ٦٧ ، ١٨٦ ، ١٩٠  
 رومولوس : ٤٧ ، ١٨١ ، ٢١٤  
 رون ( فون ) : ١٦٧  
 الرئاسة : ١٣٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩  
 الريشتاج : ١٩٥  
 ريشيليو ( الكاردينال ) : ٧٦ ، ١٧٢  
 رينان : ٤٠

(ز)

زيوس : ٣

(س)

سانتيانا ( جورج ) : ٣٥  
 السفير الفلورنسى : انظر : ماكيافللى  
 سقراط : ٨ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٣  
 سكستوس الخامس ( البابا ) : ٥٧  
 السلام الدائم : ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ،  
 ١٣٥  
 السناتو : ١٨٥  
 سودرى : ١٥٢  
 سورييل ( جورج ) : ١٨٠ ، ٢٠١

(خ)

خديوى مصر : ١٥٩  
 خطاب إلى الشعب الألماني : انظر : ( فيشته )  
 الخطيئة الفلسفية : ١١٧  
 الخلود الحضارى : ١٥٠ ، ١٥١  
 الخلود المطلق : ١٥١ ، ١٥

(د)

الداء الإغريقى القلم : ٢٦  
 داتسجلير : ٨١  
 دانتي : ٨٢ ، ٢٠٨  
 دربي ( اللورد ) : ١٦١  
 الدرديل : ١٥٥  
 دزرائيلسى ( بنيامين ) : ١٤٤ — ١٤٦ ، ١٤٩ ،  
 ١٥٢ — ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١  
 الدساتير ( الجمهورية والملكية ) : ١١٣  
 داللون ( د . ) : انظر : باريس  
 دوركايسم ( اميل ) : ٦٣ ، ٦٤  
 دونجو : ١٩٤  
 دونرسيرج : ١٧٣  
 دى بلانكيل : ١٢٢  
 دى بونو : انظر : الكادرومفير  
 ديجي : ٦٣  
 دى لاروفير ( الكاردينال ) : ٥١ ، ٥٢  
 دى مديتشى ( كاترين ) : ٥٦ ، ٥٧  
 ————— لورنزو : ٦٧  
 ديمقراطية الشعب : ١٨٥  
 ( ذ )  
 الذكاء الصناعى : ١٢١  
 الذئبة : ٤٧



الضرورات الأخلاقية : انظر : جلادستون

الضرورات السياسية : انظر دنزائيلي

( ط )

الطفل المارد : ٣٧

طفل النهضة : انظر : جرجنتوا

( ظ )

ظل رجل الحكم : ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢١٤

( ع )

عصبة الأمم : ١٢٤ — ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠

عصر التنوير : ٧٥

عصر الطغاة : ٤٥

العصر الفكتوري : ١٤٥

العقل ( إمكانيات ) : ١٢١ ، ١٢٢

العقل العملي : ٤٦ ، ١٧٩

العلم السياسي : ١٣٢

العلم الطبيعي : ١٣٢

( ف )

فاجنر ( موسيقى ) : ٢٠١ ، ٢٠٧

الفاشية : ١٨٠ ، ١٨٩

فالتا : ١٨٦

فالتينا ( الدوق ) : انظر : قيصر بورجا

فرنسا : ٣٦ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥ ،

١٠٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٥

فريجي : انظر : بونابرت

فردريك الثاني : ٧٥ ، ٧٦

سوريا : ١٦٢

السوفسطائيون : ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ٢٠

السويس : ١٦٠

سيادة الشعب : انظر : ظل رجل الحكم

المناسية ( أساليب ) : ١١٧

— والحضارة : انظر : الاستقرار

— والعمل : ١٥٠ ، ١٥١

— الواقعية : ٨٢

سيورج : ١٦٧

سيراكوزة : ٢١

سيكولوجيا الفرد وسيكولوجيا الجماعة : انظر :

أفلاطون

سيليزيا : ٧٦

سيمونديز ( المؤرخ ) : ٤٥

( ش )

شارل الثاني : ٢٤٩

شارل الخامس : ٥٧

شاكسبير ( وليم ) : ٣٥ ، ١٩٢

الشرعية : ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩

شرف الدولة : ١٣١

الشرف السياسي : ١١٧

الشرف القومي : ١٢٠

شركة قناة السويس : ١٥٩

شوينهور : ١٠٩

شيررون : ٨

شلمر ( الشاعر ) : ١٠٩

( ض )

ضد ماكيافلي ( كتاب ) : ٧٦

- فكتوريا ( الملكة ) : ١٥٧ ، ١٤٤ — ١٥٩  
 فلسطين : ١٦٠ ، ١٦٢  
 فلسفة القانون ( كتاب ) : ٧٨  
 فلورنسا : ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥٠ ،  
 ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٧٧  
 فوتان ( جمهورية ) : انظر : هتلر  
 الفدرالية : ١٢٨ ، ١٣٣  
 فيشته : ٧٨ ، ١٦٦  
 الفورم : انظر : موسولين  
 فولتير : ٧٦ ، ٧٧  
 فيكونتة بيكونزفيلد : ١٥٨  
 فيلكر بوند : انظر : عصبة الأمم
- ( ق )  
 قاعدة المرايا : ١٠٧  
 القانون الدوري : ٦  
 القانون الدولي : ٧٨ ، ٨٠ ، ١٢٨  
 قانون الشعوب : انظر : القانون الدولي  
 قيرص : ١٦٠  
 القراءة للجميع ( ألمانيا ) : ٩٩  
 قرار الحرب : ١١٣  
 القراصنة المجددون : ١٤٨ ، ١٥٧  
 قرن الاصلاح : ١٤٣  
 قصر أوزبرن : ١٥٨  
 قصر البندقية : ١٨٠  
 قصر فرساي : ١٠٧  
 قصر وندسور : ١٥٨  
 قناة السويس : ١٥٥ ، ١٦٠  
 القهر الإجتماعي : ٢٠  
 كينجزبرج : انظر : ( كانت )
- قورش : ١٨١ ، ٢١٤  
 قوى التاريخ : ٨٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩  
 قيصر : انظر : ماكيافلي وموسولين  
 قيصر بورجا : ٤٨ — ٥٢ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧٩  
 القيم الجرمانية العليا : ١٦٦
- ( ك )  
 الكاتب الفلورنسي : انظر : ماكيافلي  
 الكاثوليك : ٥٦  
 الكادرومفير : ١٩١  
 كافور : ٨١  
 كالفن ( مذهب ) : ٥٦  
 كانت ( عملويل ) : ٩٥ — ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦  
 — ١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ،  
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،  
 ١٤٣  
 كلاب البحر الاليزابيثية : ١٤٧  
 كلاوسفتر : ٧٧  
 كلاي ( جيمس ) : ١٦٢  
 كليمانت السابع ( البابا ) : ٥٦  
 كمال أتانورك : ١٧٩  
 الكنيسة البروتستانتية : ١٥٦ ، ١٥٨  
 كنيسة روما : ٦٠  
 — سانتا كروتشي : ٧٥  
 — سستين : ٣٥  
 الكنيسة الكاثوليكية : ١٩٩  
 كوري : ١٥٨  
 الكمبيوتر : ١٢١  
 الكومنوليث الأسترالي : ١٣٢  
 كومو : ١٩٣

- كبرون (اله) : ٦٦
- ماينكى : ٨٦ ، ٨٧
- مبدأ التحكيم : انظر : جلادستون
- مترنخ : ١٧١
- مجلس الثلاثين : ٥٦
- محاكم الشعب : ١٨٧
- محاورات فن الحرب ( كتاب ) : انظر : ماكيافللي
- محمد ( الرسول ) : ٢١٣
- محمد علي باشا : ١٦١
- المخابرات البريطانية : انظر : هتير
- مدرستا التاريخ والفلسفة : ١٤٤
- المذهب الأنجليكاني : ١٤٧
- المسيح ( عيسى ) : ١٩٥
- مشروع السلام الدائم ( كتاب ) : ١٠٧ ، ١١٠
- ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩
- مصر : ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٠
- المطاردات ( كتب ) : ٦١ ، ٦٢ ، ١٥٧ ، ١٨٠
- ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣
- معاهدة فرساي : ١٢٦
- ملوك الاستوارت : ١٤٨ ، ١٤٩
- ملوك النوردور : ١٤٨
- مملكة الصقليتين : ٤٦
- المواد الانشطارية : ١٣١ ، ١٧٨
- مؤتمر برلين : انظر : دزرائيلي
- مؤتمر الصلح ( ١٩١٨ ) : ١٢٦ ، ١٢٧
- موسوليني ( بيترو ) : ٦٨ ، ١٧٩ — ١٨٤ ، ١٨٧ ،
- ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٣٠٨ ، ٢٠٩
- موسى ( الرسول ) : ٦١ ، ١٨١ ، ٢١٤
- مولتكي ( فون ) : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٣ ، ١٦٧
- ميللر : ٩٨
- ميونخ : ١٧٢
- ( ل )
- لسنج : ١٩٨
- اللكثور الرومان : ١٨٠
- اللوقيون : ٢٥
- الليل الإشعاعي : ١٣٤
- لندن : ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣
- لوحه الخلق الجديد : انظر : أنجلو
- لودفج ( اميل ) : ١٨٠ ، ١٨٤
- لوزان : ٥٦
- لوك : ٣٢ ، ٦٠
- لويس الخامس عشر : ١٦٩
- الرابع عشر : ١٠٧ ، ١٨٤
- لينين : ١٧٩ ، ١٨١
- ليوزنسكى ( استانسلاوس ) : ١٦٩
- ( م )
- مارياتريزا : ٧٦
- مازاران : ١٦٩
- مازيني : ٨١
- ماكسميليان : ٤٦
- ماكولى : ٨٤ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٢
- ماكيافللي ( نيقولا ) : ٥٢ ، ٥٤ — ٦٣ ، ٦٦ ،
- ٧٥ — ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ — ٨٣ ، ٨٨ — ٩٢ ،
- ١٤٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
- ١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩٠ — ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
- ٢٠٣ ، ٢٠٧ — ٢١٠ ، ٢١٢
- مالطة : ١٥٥ ، ١٦٠
- المانش ( بحر ) : ١٤٦ ، ١٦٤

(ن)

نابليون الكبير : ١٨٦

نجازكي : ١٣١

نزهة الفليسوف ( شارع ) : انظر : ( كانت )

نظام التجنيد الإجباري : ١١٢ ، ١٣٩

نظام الخيالة المراقبين : ١٦٧

النظام الفيدرالي : ١٢٨ ، ١٣٣

النمسا : ١٧١ ، ١٩٥

نوما : ٦١

نيتشه ( فردريك ) : ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٥

نيك العجوز : ٥٥

نيكولسون ( السير هارولد ) : ٧١ ، ٢٠٢

نيويورك : ١٧١ ، ١٩٤

هيليرج : ٧٩

هيرودوت : ٢٨

(و)

وحدة الجماعة الحية : ١٦٦

الوصايا العشرة مقلوبة : ٥٤

وصفات ماكيافللي الخطيرة : ٧٩

الوطني العظيم : انظر : ماكيافللي وموسوليني

ولسون ( الرئيس ) : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩

الولايات المتحدة الأمريكية : ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠

(لا)

لائحة هيكر : ١٠٠

لاريتان ( بير ) : ٦٧

لامارتين ( الشاعر ) : ١٦٠

(ي)

يوليوس الثاني ( البابا ) : ٥١

يينا ( جامعة ) : ٩٩

(هـ)

هارفي : ٩٠

هايني ( الشاعر ) : ٩٥

هتلر ( أدولف ) : ١٧٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤

٢٠٧

هدنة مسلحة : ١١٢

الهند : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠

هندنيرج : ١٩٥

هنري الثالث : ٥٧

هوبز : ٩٠ ، ١٢٠

هوستن : ١٦٦

المول الألمان : ١٦٦

هولشتين ( فون ) : ١٧٢

هيجل : ١٨ ، ٧٨ ، ١٦٧ ، ١٩٥

## المراجع

### ١- العربية

- محمد مختار الزقزوقي : نيقولا ماكيفاللي .
- السير هارولد نيكولسون : الدبلوماسية ، الترجمة العربية والتصدير والتعليق لـ / محمد مختار الزقزوقي .
- هـ . ا . ل . فيشر : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، الترجمة العربية للأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضيع .
- هـ . ج . ولسز : معالم تاريخ الإنسانية ، الترجمة العربية للأستاذ عبد العزيز جاويد .
- أندريه موروا : بنيامين دزرائيلي ، الترجمة العربية للأستاذ حسن محمود .
- د . مصطفى الحفناوي : قناة السويس .
- مذكرات اللورد جراي : تعريب الأستاذ علي أحمد شكرى .
- ( كانت ) : مشروع للسلام الدائم ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .
- د . زكريا إبراهيم : ( كانت ) .
- د . عبد الرحمن بدوي : فلسفة الدين والتربية عند ( كانت ) ، بيروت .
- ( كانت ) : تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، الترجمة العربية للدكتور عبد القادر مكاوي ، الكويت .
- ج . جرانت وهارولد تميرلي : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة الأستاذين محمد علي أبو درة ولويس اسكندر .
- ليفي بريل : فلسفة أوجست كونت ، ترجمة الدكتورين محمود فاسم والسيد البدوي .
- جورج سباين : تطور الفكر السياسي ، ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسي .
- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : رسائل فلسفية ، طبعة بيروت وطبعة طهران .

- هـ . ا.ل . فيشر : تاريخ أوروبا في العصور القديمة ، للدكتورين  
إبراهيم نصحي ومحمد عواد حسين .
- اسكندر هادو وآخرون : السلام العالمى في عصر الذرة ، ترجمة الأستاذ  
عثمان نوية .

## ٢- المراجع غير العربية

- Phyllis Doyle: History of Political Thought
- George Catlin: History of Political Philosophers
- W.T. Jones : Masters of Political Thought
- G.P. Gooch : Studies in Diplomacy and Statecraft
- Louis De Villffosse : Machiavel et Nous
- Carl Sforza : The living Thought of Machiavelli
- Niccolo Machiavelli : The Prince
- Niccolo Machiavelli : The Discourses
- Adolfo Oxilia : Machiavelli
- Ettore Janni : Machiavelli
- Comte Sforza : Les Batisseurs de L'Europe
- Kant : Eternal Peace
- Kant : Critique de la Raison Pratique, Traduction  
Française, Picavet

## التصويب

| رقم الصفحة | الخطأ                           | التصويب                                      |
|------------|---------------------------------|----------------------------------------------|
| ٣          | فكل مدينة                       | في كل مدينة                                  |
| ١٦         | ولحق                            | وحق الدولة الذي                              |
| ٤٦         | سكانها                          | سكانها                                       |
| ٨٩         | انظر صفحتي ٦٥ ، ٦٦              | انظر صفحتي ٦١ ، ٦٢                           |
| ٩٨         | العلم والتربية لم تكن           | العلم والتربية لم يكونا                      |
| ١١٣        | أو غير الديمقراطي               | أو الملكي غير الديمقراطي                     |
| ١٢٦        | تقوم (هيئة الأمم المتحدة)       | تقوم (الأمم المتحدة)                         |
| ١٢٧        | عاودت                           | عاونت                                        |
| ١٢٨        | انظر ص ١٢١                      | انظر ص ١١٧                                   |
| ١٣٥        | أن يرجع إلى ص ٩٢                | أن يرجع إلى ص ٨٨                             |
|            | (( تباغض وتعاد على حب الغلبة )) | (( تباغض وتعاد على حب الغلبة )) <sup>٢</sup> |
| ١٥٨        | (فكتوريا الملكة والإمبراطورية)  | (فكتوريا الملكة والإمبراطورة)                |
| ١٦٢        | أن قاربه                        | (( أن قاربه                                  |
| ١٦٨        | ارجع إلى ص ١٠١                  | ارجع إلى ص ٩٧                                |
|            | ارجع إلى ص ١٠٣                  | ارجع إلى ص ١٦٤ ، ١٦٦                         |
|            | ارجع إلى ص ١٠٢                  | ارجع إلى ص ٩٨                                |
|            | ارجع إلى ص ١٠٣                  | ارجع إلى ص ٩٩                                |
|            | ارجع إلى ص ١٠٧                  | ارجع إلى ص ١٠٣                               |
| ١٧٠        | والرين                          | والراين                                      |
| ١٨٢        | وسخر الناس بـ                   | وسخر الناس من                                |

---

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٢ لسنة ١٩٩٨  
التزقيم الدولي I.S.B.N 977 - 05-1589-2

---

مطبعة

أبناء وهبه حسا

٢٤١ أش الجيش ٥٩٢٥٥٤٠





